

إبراهيم بن سيّار النظّام

ثورة العقل في الإسلام

مقتطفات من تراث النظّام وشخصيته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد الصمد الذي لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، المنزه عن الكيف والأين والجوهر والعرض، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الذي لا يأمر بالجور ولا يرضاه، ولا يقضي بالفساد, ولا يخلق أفعال العباد، وصل الله على خاتم النبيين، الصادق الأمين، محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين، سفينة النجاة وعترة الحبيب، عليهم سلام الله أجمعين، أمـــا بعد: أسأل الله التوفيق والسداد والهداية والرشاد، اعلم يا أخي أن الدين النصيحة لقوله عليه الصلاة والسلام (النصيحة لكل مسلم إنه من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) فإذا كان الهدف النصيحة فينبغي أن تكون النية هي الإصلاح {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، وأعلم أن انزال الناس منازلهم من الأدب والمرؤة والدين، فإن علمت هذا فاعلم أن التثبت في الكلام الذي يصلنا حول شخص واجب، وقد قال الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}، وقد كتب هذا الكتاب من أجل هذا والله على ما أقول شهيد، وهذا الكتاب الذي تطالعه الآن حول إمام من أئمة الهدى، من أعلام الأمة الكبار، عن شيخنا ابراهيم بن سيّار النظّام رضي الله عنه، وقد تعبت جدا في كتابته، وهذا الكتاب أخي/أختي في الله هو عصارة ما وصلت له يدي من اراء شيخنا النظّام، فجمعت ما قدرت على جمعه والثبت في نسبة المنقول له والانتصار لآراءه ، قد تجدوا أخطأ نحوية أو لغوية فأعتذر عن هذا مسبقا، قد تخالفونني والنظّام في بعض الآراء، وكلامي حول النظّام في هذا البحث (رأيي في النظّام وفي اقواله) هو كلام من منظوري فقط، وكل هذا يسير إن شاء الله، فالمهم هو اللب لا القشور، نسأل الله التوفيق والسداد، وأن يجعل في هذا الكتاب البركة، آمين.

جنّبك الله الشّبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذلّ اليأس، وعرّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة[1]، أما بعد يا أخي، قد تتسائل وتقول: لماذا النظّام؟ لماذا ليس امام آخر من أئمة العدلية؟ وان ان شاء الله سأجيبك فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أرشدك الله اني اخترت شيخنا النظّام رضوان الله عليه لأسباب، أولا لشدة اعجابي به لدرجة اعتباره أستاذي الأول دون منازع واحد ابناء المدرسة الاعتزالية، ثانيا لكثرة الكذب عليه وتكفيره وزندقته من قبل الحشوية الرعاع –خذلهم الله–، ثالثا لنشر اراءه وافكاره قدر المستطاع.

لم يكن اعجابي بشيخنا النظّام رضوان الله عليه واجلاله من فراغ، بل بعد الاطلاع على كلامه وشدة الاختاف حوله، فإذا رأيت اماما وقع فيه الاختلاف كثيرا، بين مريد له ومعجب يرفعه منزل الملاك، وبين مبغضا له مكفرا اياه وطاعنا فيه ومنزلهم منزلة ابليس، فاعلم انه والله عالم كبير ذو شأن عظيم، أما اراءه فقد تجعلك مندهشا لشدة بصيرته وعبقريته، فقد كان له من صحة العقل جلالة، ومن كرم الطبيعة جمالا، ومن حسن البيان ملاحة، ومن سعة المعرفة غزارة، ومن جودة الرأي بصيرة، ومن شدة الأنفة مرؤة ورجولة، فقد كان والله نسيج وحده وفريد عصره، سبق عقله زمانه، وويل لمن سبق عقله زمانه، وللأسف فإن هذه الأمة لم تعطي لهذا الامام العلم قدره ومكانته، فنهالوا عليه بالتكفير والتبديع ثم اتلاف كتبه والكذب عليه، ويل لهم ما قد جمعوا من بوائق، تكفير وطمس للعلم وقذف، وويل لهم من يوم عظيم، ومع هذا التكفير واتلاف الكتب والكذب بقي نور شيخنّا النظّام يشع ووصلنا قدر لابأس به من آراءه وأشعاره وكلامه، فهاهو من كبار المعتزلة وعلماء الأمة بشهادة الشرق والغرب، من العلماء المسلمين والمستشرقين، وهذا من فضل الله سبحانه، والحمد لله رب العالمين.

[1] الحيوان ج1 ص7، احببت مقدمة امامنا الجاحظ كثيرا فبدأت بها تبركا بدرره.

النـــــظّام

النظام أعظم مفكري زمانه تأثيراً بين أهل الإسلام.

هورتن

[ابراهيم النظام]

لا نعرف كثيرا عن حياة النظّام، ولا نعرف شيئا عن أبويه، فإنه لم ينل من عناية من المترجمين ما ناله غيره من المتكلمين والمفكرين في الاسلام ، فلا ندري أي سنة ولد فيها، اضافة الا الاضطراب في سنة وفاته، وكما قال ابو ريدة لا يظفر الباحث إلا بنبذ هزيلة متفرقة لا يستطيع منها كتابة ترجمة للنظام الا بعد استعمال الاستنباط والمقارنة.[2]

هو فريد عصره ونسيج وحده، شَيْخُ المُعْتَزِلَةِ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ[3] إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام هو ابن أخت أبي الهذيل، وعنه أخذ الاعتزال، وسمي بالنظّام إجادته نظم الكلام وبراعته فيه، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين[4]، قال ابن حزم وَكَانَ أكبر شُيُوخ الْمُعْتَزلَة ومقدمة عُلَمَائهمْ[5]، وكان متكلما شاعراً أديبا[6]، وكَانَ أحد فرسان أهل النظر وَالكلام عَلَى مذهب المعتزلة، وله فِي ذلك تصانيف عدة، وكَانَ أيضا متأدبا، وله شعر دقيق المعاني عَلَى طريقة المتكلمين[7]، قال ابو القاسم: هو من أهل البصرة، قال المرتضى: وهو مولى قال ابو عبيدة: ما ينبغي ان يكون في الدنيا مثله فاني امتحنته فقلت له: ما عيب الزجاج؟ فقال على البديهة: يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر وروى انه كان لا يكتب ولا يقرأ وقد حفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها مع كثرة حفظه الاشعار والاخبار واختلاف الناس في الفتيا[8]، قلت: وهذا وهم، بل كان يكتب ويقرأ وله عدة كتب في التوحيد والعدل والرد على المخالفين، وناظر أبا الهذيل في الجزء فألزمه ابو الهذيل مسئلة الذرّة والنمل وهو اوّل من استنبطها ، فتحيّر النظام فلما جنّ عليه الليل نظر إليه ابو الهذيل واذا النظام قائم ورجله في الماء يتفكّر فقال: يا ابراهيم هكذا حال من ناطح الكباش، فقال: يا أبا الهذيل جئتك بالقاطع: انه يطفر بعضا ويقطع بعضا، فقال ابو الهذيل: ما يقطع كيف يقطع ؟ وذكر جعفر بن يحي البرمكي ارسطاطاليس فقال النظام: قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن ان تقرأه؟ فقال: ايّما أحبّ أليك ان اقرأه من اوّله الى آخره أم من آخره الى أوّله؟ ثم اندفع

---

[2] ابراهيم بن سيار النظام واراؤه الفلسفية والكلامية ابو ريدة ص 1
[3] سير أعلام النبلاء ج10 ص 541
[4] الأعلام للزركلي ج1 43
[5] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج4 ص 147
[6] الفهرست لابن النديم ص 211
[7] تاريخ بغداد للخطيب ج6 ص 623
[8] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 50

يذكر شيئا فشيئا وينقض عليه فتعجّب منه جعفر، ويكفيك ان الجاحظ كان من تلامذته، قال الجاحظ: الاوائل يقولون: في كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحا فهو ابو اسحاق النظام قيل وله اشعار تأخذ بالقلب والسمع ملاحة ، وروي ان الخليل قال له وهو شابّ ممتحنا له وفي يد الخليل قدح زجاج: يا بنيّ صف لي هذا فقال: امدح أم اذمّ ؟ قال: بل امدح فقال:

نعم يريك القذى، ولا يقبل الأذا، ولا يستر ما ورا، قال: فذمّها قال: سريع كسرها، بطي ء جبرها، قال: فصف لي هذه النخلة فقال مادحا:

حلو مجتناها، باسق منتهاها، ناضر اعلاها، وقال في ذمّها: صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى، فقال الخليل: يا بنيّ نحن الى التعلّم منك احوج، الى غير ذلك من المحاسن[9] وقال الجاحظ: ما رأيت احدا اعلم بالكلام والفقه من النظام[10]، وقال: "إنّه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة. فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة"[11]

سند علمه وشيوخه:

يشتغل الحشوية وأشياعهم في الطعن فيه وتكفيره واستحقاره ليل نهار، وهم لم ولن يبلغوا ربع علمه، فقد كان فيلسوفا فقيها اماما شاعرا ومن علماء الطبيعة، وتفنن في كل باب من هذه الأبواب، هذا من جهة علمه، وكلام الجاحظ فيه يكفي، ومعظم علماء السوء الذين كتبوا حوله الاكاذيب تخرجوا من قصور السلاطين وتتلمذوا على شيوخ السلاطين وشيوخ الدرهم والدينار، أما شيخنا أبو اسحاق فقد تتلمذ على يد أبي الهذيل العلاّف، وأبو الهذيل أخذ العلم عن عثمان الطويل، وعثمان اخذه عن واصل وعمرو، وهما اخذاه عن عبد الله بن محمد، وعبد الله اخذه عن ابيه محمد بن علي ابن الحنفية، ومحمد اخذه عن ابيه عليّ عليه السّلام، وعليّ عليه السّلام اخذ عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم، شتان بين الثرى والثريا وهيهات أن يتساوى السفح مع القمة.

---

[9] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 52

[10] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 52

[11] الحيوان للجاحظ - ج4- ص 206

فتتلمذ شيخنا النظّام عند خاله أبو الهذيل العلاّف، فأخذ عنه الكلام والفن المناظرة والاعتزال، وتتلمد عند الخليل بن احمد البلاغة.

يقول شيخنا الخيّاط: لولا إبراهيم وأشباهه من علماء المسلمين الذين شأنهم حياطة التوحيد والذب عنه عند طعن الملحدين فيه، الذين شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم اذ شغل أل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها.[12]

شيطان القدرية، من الذم الي المدح:

لقب المخالفين شيخنا النظّام بشيطان القدرية (يريدون المعتزلة) كقول حسين بن غنام عن النظام في كتابه العقد الثمين: وهذا من شياطين القدرية[13]، فعندهم ذم وعندي مدح بصيغة الذم، يقول صاحب الأغاني أن أحدهم أنشد شعراً فأعجب به الحاضرون, فصاحوا: (أحسنت قاتلك الله), وقال بعضهم: (قاتلك الله ما أظرفك), فالمدح في صيغة الذم باب من أبواب البلاغة, كقول الشاعر في مدح قومه:

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهُم

بهنَّ فُلولٌ منْ قِراعِ الكتائِبِ[14]

ملامح من شخصيته:

[نعت النّظام]

قال الجاحظ: فخبّرني أبو إسحاق إبراهيم النّظام، وقد كان جالسه حينا- وكان إبراهيم مأمون اللّسان، قليل الزّلل والزّيغ في باب الصدق والكذب. ولم أزعم أنّه قليل الزّيغ والزّلل على أنّ ذلك قد كان يكون منه وإن كان قليلا، بل إنّما قلت على مثل قولك: فلان قليل الحياء، وأنت لست تريد هناك حياء البتة، وذلك أنّهم ربّما وضعوا القليل في موضع ليس. وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنّه، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله. فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنّه كان يظنّ ثمّ يقيس عليه وينسى أنّ بدء أمره كان ظنّا فإذا أتقن ذلك وأيقن، جزم عليه، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحّة معناه. ولكنّه كان

---

[12] الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص 41

[13] كتاب العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين لحسين بن غنام ص 225

[14] منقول للأمانة.

لا يقول سمعت، ولا رأيت. وكان كلامه إذا خرج مخرج الشّهادة القاطعة لم يشكّ السامع أنّه إنّما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينة قد بهرته.[15]، وكان أنفا شديد الشّكيمة أبّاء للهضيمة.[16]

[ضيق صدره بحمل السرّ]

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام. أضيق الناس صدرا بحمل سرّ وكان شرّ ما يكون إذا يؤكّد عليه صاحب السر وكان إذا لم يؤكّد عليه ربما نسي القصّة، فيسلم صاحب السرّ.

وقال له مرة قاسم التمّار: سبحان الله ما في الأرض أعجب منك، أودعتك سرّا فلم تصبر عن نشره يوما واحدا، والله لأشكونّك للناس! فقال: يا هؤلاء، سلوه نممت عليه مرة واحدة، أو مرتين، أو ثلاثا، أو أربعا، فلمن الذنب الآن؟

فلم يرض بأن يشاركه في الذّنب، حتى صيّر الذّنب كله لصاحب السرّ.[17]

[براعته في المناظرة]

قيل لأبي الهذيل: إنّك إذا راوغت واعتللت- وأنت تكلّم النظام وقمت- فأحسن حالاتك أن يشكّ النّاس فيك وفيه! قال: خمسون شكّا خير من يقين واحد.[18]، وروى أبو شمر عن معمّر أبي الأشعث، خلاف القول الأول في الإشارة والحركة عند الخطبة، وعند منازعة الرجال ومناقلة الأكفاء.

وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرّك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرّك يديه وحل حبوته، وحبا إليه حتى أخذ بيديه. وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم، وكان الذي غرّ أبا شمر وموّه له هذا الرأي، أن أصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلمون له ويميلون إليه، ويقبلون كل ما يورده عليهم، ويثبته عندهم، فلما طال عليه توقيرهم له، وترك مجاذبتهم إياه، وخفت مؤونة الكلام عليه- نسي حال منازعة الأكفاء.[19]

---

[15] الحيوان ج2 ص 371
[16] الحيوان ج1 ص 186
[17] الحيوان ج 5 ص 104
[18] الحيوان ج3 ص 27
[19] البيان والتبيين ج1 ص 94

[الحالة المادية لشيخنا النظّام]

لم يكن شيخنا النظّام رضي الله عنه من عبيد الدنيا بل كان فقيرا ذو حال ميسور شأنه شأن الموالي، وكان من زهادهم، فيقول نشوان عن النظّا: من رؤساء المعتزلة وعلمائها وأولي الزهد منها، أما النظّام فيحكي عن نفسه فيقول: جعت حتّى أكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتّى قلبت قلبي أتذّكر: هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان علي جبّة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدت إلى فرضة الأهواز، أريد قصبة الأهواز....إلى أن قال: لم أكن ملكت قبل ذلك ثلاثين دينارا في جميع دهري[20].

[نزعته العقلية]

ان للعقل مكانة مقدسة عند شيخنا النظّام، أكثر من أي شخصية اعتزالية، وأقول: ان النزعة العقلية في الاعتزال دفنت مع النظّام، فلم يأتي بعده عالم يقدس العقل مثله ويعتمد عليه بشكل رهيب،

فالنظّام أعطى للعقل سلطانا لدرجة أنه ينسخ الأخبار، ولا يقبل الاحاديث الا التي توافق العقل، يقول: لَا عَمَلَ إِلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ.[21]

فكان لا يؤمن بتلبس الجن بالانس والتواصل معهم، وكان يرفض التفسيرات السائدة في وقته للقرآن كونها في نظره لم تكن عقلانية ومليئة بالتكلف، لا يؤمن بالطيرة وهذا ما نقله عنه الجاحظ حيث قال: وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظّام قال: جعت حتّى أكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتّى قلبت قلبي أتذّكر: هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان علي جبّة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدت إلى فرضة الأهواز، أريد قصبة الأهواز، وما أعرف بها أحدا. وما كان ذلك إلّا شيئا أخرجه الضّجر وبعض التعرّض. فوافيت الفرضة فلم أصب فيها سفينة، فتطيّرت من ذلك. ثم إني رأيت سفينة في صدرها خرق وهشم فتطيرت من ذلك أيضا، وإذا فيها حمولة، فقلت للملاح: تحملني؟ قال: نعم. قلت: ما اسمك؟

قال: «داوداذ» وهو بالفارسية الشّيطان، فتطيرت من ذلك. ثم ركبت معه، تصكّ الشمال وجهي، وتثير بالليل الصّقيع على رأسي. فلما قربنا من الفرصة صحت: يا حمّال! معي لحاف لي سمل، ومضربة خلق،

---

[20] الحيوان للجاحظ 3 ص216

[21] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 262

وبعض ما لا بدّ لمثلي منه، فكان أول حمّال أجابني أعور فقلت لبقّار كان واقفا: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه من متاعي إذا الثّور أعضب القرن، فازددت طيرة إلى طيرة، فقلت في نفسي: الرّجوع أسلم لي. ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين فقلت: ومن لي بالموت؟! فلما صرت في الخان وأنا جالس فيه، ومتاعي بين يديّ وأنا أقول: إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه فشّ الباب وسرق، وإن جلست أحفظه لم يكن لمجيئي إلى الأهواز وجه. فبينا أنا جالس إذ سمعت قرع الباب، قلت: من هذا عافاك الله تعالى؟

قال: رجل يريدك، قلت: ومن أنا؟ قال: أنت إبراهيم. فقلت: ومن إبراهيم؟ قال:

إبراهيم النّظّام. قلت: هذا خنّاق، أو عدوّ، أو رسول سلطان! ثم إني تحاملت وفتحت الباب، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول:

نحن وإن كنّا اختلفنا في بعض المقالة، فإنّا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوق الإخلاق والحرّيّة. وقد رأيتك حين مررت بي على حال كرهتها منك، وما عرفتك حتى خبّرني عنك بعض من كان معي وقال: ينبغي أن يكون قد نزعت بك حاجة.

فإن شئت فأقم بمكانك شهرا أو شهرين، فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمنا من دهرك. وإن اشتهيت الرّجوع فهذه ثلاثون مثقالا، فخذها وانصرف، وأنت أحقّ من عذر.

قال: فهجم والله عليّ أمر كاد ينقضني. أما واحدة: فأنّي لم أكن ملكت قبل ذلك ثلاثين دينارا في جميع دهري. والثّانية: أنّه لم يطلع مقامي وغيبتي عن وطني، وعن أصحابي الذين هم على حال أشكل بي وأفهم عنّي. والثّالثة: ما بيّن لي من أنّ الطيرة باطل؛ وذلك أنّه قد تتابع عليّ منها ضروب، والواحدة منها كانت عندهم معطبة.

قال: وعلى مثل ذلك الاشتقاق يعمل الذين يعبّرون الرّؤيا.[22]، وكذلك يرفض خرافات عزيف الجنان وتغول الغيلان فيقول الجاحظ: وكان أبو إسحاق يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجنان، وتغوّل الغيلان: أصل هذا الأمر وابتداؤه، أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة. ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس- استوحش. ولا سيّما مع قلة الأشغال والمذاكرين.

[22] الحيوان ج 3 ص216

والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير. والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة. وقد ابتلى بذلك غير حاسب، كأبي يس ومثنّى ولد القنافر.[23] وكأنه قام بتحليل الحالة نفسيا.

[الشك، التجربة ثم الايمان]

لشيخنا النظّام طريق ومنهج عقلاني لقبول فكرة او نظرية، فلم يكن يؤمن بشيء أو يرفضه عن هوى وتقليد وجهل، ونزعته العقلية تعتمد على الشك ثم التجربة، حيث كان يقول: نازعت من الملحدين الشاك والجاحد فوجدت الشّكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود، وقال: الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حال شكّ.[24] ويظهر أن شيخنا النظّام سبق الامام الغزالي والفيلسوف ديكارت في منهجية الشك واليقين، أما عن تجاربه فنذكرها في فصل الاصول ونذكرها هنا، وينقل لنا تلميذه الجاحظ بعض تجاربه فيقول: فحدّثني إبراهيم قال: شهدت أكثر هذه التّجرية التي كانت منهم في إسكار البهائم وأصناف السباع، ولقد احتال لأسد مقلّم الأظفار ينادى عليه: العجب العجب، حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتمال، فزعم، أنّه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكرا من الظّبي. ولولا أنّه من الترفّه لكنت لا يزال عندي الظّبي حتّى أسكره وأرى طرائف ما يكون منه.[25]، ونقل لنا مشاركة النظّام محمد بن عبد الله تجارب أخرى على ظليم حيث قال: وأخبرني إبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظّام- وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان- أنّه شهد محمد بن عبد الله- يلقي الحجر في النّار، فإذا عاد كالجمر قذف به قدّامه، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر. كنت قلت له: إنّ الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقي الرّطوبات، ومتى أطبق عيه شيء يحول بينه وبين النّسيم خمد، والحجر أشدّ إمساكا لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلا، وألزق لزوقا وأبطأ انطفاء، فلو أحميت الحجارة! فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتبت به، فلما ثنى وثلّث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقيّ الحديد، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأوّل والثّاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرّف ذلك على الأيّام.

---

[23] الحيوان ج6 ص 445

[24] الحيوان ج6 ص 335

[25] الحيوان ج2 ص 372

وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته، فلعلّ الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائبا ولا خارجا فعمد بعض ندمائه إلى سكّين فأحمي، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السّكين من موضع مذبحه، ثمّ خرّ ميّتا. فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا.[26]

[الاتجاهات الغالبة على تفكير شيخنا النظّام]

يقول د. أبو ريدة: كان النظّام مفكرا غزير المادة شامل المعارف، ولو نظرنا في جملة ما وصل الينا عنه لوجدنا له اتجاهات أساسية أهمها: النزعة المادية الحسية، والاتجاه العلمي في منهج البحث والتعليل والنقد والأسلوب، والاتجاه الى المناظرة والدفاع والانتصار، والاتجاه الى التعمق والغوص والسير المنطقي مع المسائل الى آخر ما تؤدي اليه.[27]

يقول المرحوم محمد أمين أبو جوهر: أما الاتجاهات، فتتمثل بـــ:

النزعة المادية الحسية:

يقول النظام:"النار اسم للحر والضياء، فإذا قالوا: أحرقت أو سخّنت، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين، وهو الحر والضياء"، "وكان النظام يزعم: أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدهن ولم تشربه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب ولكن الدهنَ ينقصُ على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين، اللذين كانا فيه. وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه"، و"إن لكل نوع منها نوعاً من الاستخراج (الأشياء الكامنة)، وضرباً من العلاج، فالعيدان تخرج نيرانها بالاحتكاك، واللبن يخرج زبده بالمخض، وجبنه يجمع بإنفحة، وبضروب من علاجه.

ويقول أيضاً: "إن الأجسام أيضاً غير باقية، بل متجددة آناً فآناً مع أن الحس يحكم بخلافه".

كتب الجاحظ: "وزعم النظّام أن الحرَّ جوهرٌ صعّادٌ بمعنى أن الحر هو جوهر وجسم من الأجسام، لا عرض من الأعراض وإنما اختلفا، ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما، لأنّهما متى صارا من العالم العلوي إلى مكان صار أحدهما فوق صاحبه، وكان يجزم القول ويبرم الحكم بأن الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد، ولا يُعلى".

---

[26] الحيوان ج4 ص 416

[27] ابراهيم بن سيار النظام واراؤه الفلسفية والكلامية ابو ريدة ص 46

النزعة العلمية:

تتجلى هذه النزعة عنده بالعديد من الشواهد التي تنقل عنه، وبخاصة أنه لم يكن يصدق كل مايلقى إليه. يتحدث النظام عن التبخر وكيف يصبح مطراً فيقول:"ثم تعود تلك الأمواهُ سيولاً تطلب الحدور (الحدور كرسول: مكان ينحدر فيه)، وتطلب القرار، وتجري في أعماق الأرض، حتى تصير إلى ذلك الهواء، فليس يضيع من الماء شيء، ولا يبطل منه شيء. والأعيان قائمة، وكأنه منجنون (الدولاب يسقى عليها) غرف من بحر وصبَّ في جدول يفيض إلى ذلك النهر". وقوله:"لأمر ما حصر الهواءُ في جوفِ هذا الفلك. ولابد لكل محصورٍ من أن يكون تقلبه وضغطه على قدر الحصار، وكذلك الماء إذا اختنق."(27). ألا يعني هذا أن الضغط الداخلي يعادلُ الضغط الخارجي؟

الاتجاه الجدلي:

يذكر عن قوته في المناظرة وقدرته على إفحام الخصم أن أستاذه أبا الهذيل العلاف، مع علو كعبه في الجدل، كان يخشى النظام ويتمارض لئلا يظهر أمامه بمظهر المغلوب، ويروي الجاحظ:"إنه قيل لأبي الهذيل: إنّك إذا راوغت واعتللت وأنت تكلم النّظام (وقمت) فأحسن حالاتك أن يشك الناسُ فيك وفيه! فقال: خمسون شكاً خير من يقين واحد.".

النزعة النقدية:

النظّام ذو نزعة نقدية في تفكيره، فهو يتناول ما يصل إليه علمه ويزنه بميزان العقل، وعلى هذا الأساس يقبله أو يرفضه، يصحح الحديث أو يزيفه، ويتأول نصوص القرآن الكريم، وهو في كل أبحاثه يحكم العقل، فهو أداته، ولا يعتمد على النص بقدر مايعتمد على العقل. وتتجلى النزعة النقدية عنده، في العديد من المسائل.[28]

[تقديسه العلم والكتب والفكر]

يقول شيخنا النظّام: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك، فإذا اعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر، وقال: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر.

وأنشد قول ابن يسير: [من المتقارب]:

أما لو أعي كلّ ما أسمع ... وأحفظ من ذاك ما أجمع

[28] مقالة إبراهيم النظام : لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك لأبو جوهر، محمد أمين، مجلة فصلية محكمة بتاريخ 30-04-1999، بلد النشر: سوريا

ولم أستفد غير ما قد جمع ... ت لقيل هو العالم المصقع

ولكنّ نفسي إلى كلّ نو ... ع من العلم تسمعه تنزع

فلا أنا أحفظ ما قد جمع ... ت ولا أنا من جمعه أشبع

وأحصر بالعيّ في مجلسي ... وعلمي في الكتب مستودع

فمن يك في علمه هكذا ... يكن دهره القهقرى يرجع

إذا لم تكن حافظا واعيا ... فجمعك للكتب لا ينفع[29]

وقال أبو إسحاق: كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها. إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلا، ولا البليد ذكيّا، ولكنّ الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشحذ وتفتق، وترهف وتشفي. ومن أراد أن يعلم كلّ شيء، فينبغي لأهله أن يداووه! فإنّ ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه!! فمن كان دكيّا حافظا فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالما بخواصّ. ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئا، إلّا نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.[30]، وقال أبو إسحاق: إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم، وفي أيّ طبقة هو، وأردت أن تدخله الكور وتنفخ عليه، ليظهر لك فيه الصّحّة من الفساد، أو مقداره من الصّحّة والفساد، فكن عالما في صورة متعلّم، ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه.[31]

[أقوال وقصص لشيخنا النظام]

وقال أبو إسحاق: نازعت من الملحدين الشاك والجاحد فوجدت الشّكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود، وقال: الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حال شكّ.[32]، وما قاله عن العلم أعلاه كي نقلل من التكرار، وقيل لإبراهيم النظّام: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: الرّوح.[33]

---

[29] الحيوان ج 1 ص 43

[30] الحيوان ج 1 ص 43

[31] الحيوان ج6 ص 336

[32] الحيوان ج6 ص 335

[33] الحيوان ج 7 ص 121

وكان إبراهيم بن سيّار النّظام شديد التعجّب من الفيل.[34]

قيل لإبراهيم النظام: ما حد الحمق؟ فقال: سألتني عما ليس له حد.[35]

قلت: وقوله شبيه بقول اينشتاين: شيئان ليس لهما حدود، الكون وغباء الإنسان، مع أني لست متأكداً بخصوص الكون.

النظّام وشيخ الشام:

قال الجاحظ: أخبرني النظام قال: مررت بناحية باب الشام فرأيت شيخاً قاعداً على باب داره وبين يديه حصى ونوى، وهو يسبح ويعد بهما ويقول: حسبي الله حسبي الله، فقلت: يا عم ليس هذا هو التسبيح، قال: كيف هو التسبيح عندك؟ قلت: سبحان الله، قال: يا أحمق هذا تسبيح تعلمته بعبادان منذ ستين سنة أسبح به، فاتركه لقولك يا جهل.[36]

النظّام والخرساني:

وقال الجاحظ: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام قال: قلت مرة لجار كان لي، من أهل خراسان: «أعرني مقلاكم، فإني أحتاج إليه» قال: «قد كان لنا مقلى، ولكنه سرق»، فاستعرت من جار لي آخر. فلم يلبث الخراساني أن سمع نشيش اللحم في المقلى، وشمّ الطباهج، فقال لي: كالمغضب: «ما في الأرض أعجب منك، لو كنت أخبرتني أنك تريده للحم أو لشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنما خشيتك تريده للباقلّي، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم.

وكيف لا أعيرك إذا أردت الطّباهج، والمقلى، بعد الرّد من الطباهج، أحسن حالا منه، وهو في البيت؟.[37]

النظّام والمروزي:

حكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام، عن جاره المروزي: أنه كان لا يلبس خفا ولا نعلا إلى أن يذهب النبق اليابس، لكثرة النوى في الطريق والأسواق. قال: ورآني مرة. مصصت قصب سكر، فجمعت ما مصصت ماءه، لأرمي به، فقال: «إن كنت لا تنوّر لك، ولا عيال عليك، فهبه لمن له تنّور وعليه عيال. وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفّة ظهرك، فانك لا تدري متى تأتيك العيال» .[38]

---

[34] الحيوان ج 7 ص 122
[35] اخبار الحمقى والمغفلين ص 26
[36] اخبار الحمقى والمغفلين ص 146
[37] البخلاء للجاحظ ص 45
[38] البخلاء للجاحظ ص 51

النظام وألم عضة البرغوث والقملة والبعوض:

قال الجاحظ: وحدّثني إبراهيم النّظام قال: وردنا فم زقاق الهفة، في أجمة البصرة، فأردنا النفوذ فمنعنا صاحب المسلحة، فأردنا التأخّر إلى الهور الذي خرجنا منه، فأبى علينا. ووردنا عليه وهو سكران وأصحابه سكارى، فغضب على ملّاح نبطيّ، فشدّه قماطا، ثم رمى به في الأجمة، على موضع أرض تتصل بموضع أكواخ صاحب المسلحة. فصاح الملاح: اقتلني أيّ قتلة شئت وأرحني! فأبى وطرحه، فصاح، ثم عاد صياحه إلى الأنين، ثم خفت وناموا في كللهم وهم سكارى. فجئت إلى المقموط، وما جاوز وقت عتمة، فإذا هو ميت، وإذا هو أشد سوادا من الزنجي. وأشد انتفاخا من الزقّ المنفوخ، وذلك كله بقدر ما بين العشاء والمغرب. فقلت: إنها لمّا لسبته ولسعته من كلّ جانب لسعا على لسع إن اجتماع سمومها فيه أربت على نهشة أفعى بعيدا. فهي ضرر ومحنة، ليس فيها شيء من المرافق.[39]

النظام وزواج الأجناس المتباينة من الناس

قال الجاحظ: وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس- وأبو العباس هذا كان ختن إبراهيم على أخته، وكان رجلا يدين بالنجوم، ولا يقرّ بشيء من الحوادث إلّا بما يجري على الطباع. قال أبو إسحاق: وقال أبو إسحاق: وقال لي مرّة: أتعرف موضع الحظوة من خلوة النساء؟.

قلت: لا والله لا أعرفه. قال: بل اعلم أن لا يكون الحظّ إلّا في نتاج شكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدّي إلى الخلاص: وهو أن تزاوج بين هنديّة وخراسانيّ، فإنها لا تلد إلّا الذهب الإبريز. ولكن احرس ولدها، إن كان الولد أنثى فاحذر عليها من شدّة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلم أن شهوتها للرجال على قدر حظوتها عندهم، واعلم أنّها ستساحق النساء على أعراق الخراسانيّة، وتزني بالرجال على أعراق الهند، واعلم أنّه ممّا يزيد في زناها ومساحقتها معرفتها بالحظوة عند الزّناة، وبالحظّ عند السحاقات.[40]

[39] الحيوان ج 5 ص 213

[40] الحيوان ج1 ص 98

[مؤلفاته]

ليس بين أيدينا اليوم ولا كتاب لشيخنا النظّام للأسف، فكلها احرقت واتلفت، وكل ما تبقى هو بعض كلامه واراءه واشعاره متناثرة بين كتب العدلية والمخالفين، يقول ارنولد: ان ثورة اهل السنة على المعتزلة بلغت من النجاح في اتلاف كل مؤلفات هذه الفرقة حدّا يجعل المؤرخ مضطرا حتى الآن الى الرجوع في معرفة تاريخهم ومذاهبهم الى مؤلفات قوم نظروا اليهم كما ينظرون الى الزنادقة، وكتبوا لذلك عنهم بروح التعصب، وكتبه التي ذكرها العدلية والمخالفين:

- كتاب الجزء يذكره الأشعري ويقتبس منه آراء بعض المتكلمين في الجزء.
- كتاب في الحركة يذكره الأشعري.
- كتاب في الرد على الثنوية يذكره البغدادي.
- كتاب العالم يذكره ابن الراوندي في تشنيعه على النظام.
- كتابان في التوحيد، يذكرهما الخياط، ويقول الخياط: إن النظام ردّ في كتاب
- كتاب التوحيد على أبي الهذيل العلاف.
- كتاب النكت ذكره ابن أبي حديد.
- كتاب الطفرة ذكره الذهبي
- كتاب الجواهر والأعراض ذكره الذهبي
- كتاب حركات أهل الجنة ذكره الذهبي
- كتاب الوعيد ذكره الذهبي
- كتاب النبوة ذكره الذهبي

[وفاته]

روي انه كان يقول وهو يجود بنفسه: اللّٰهُمَّ ان كنت تعلم انّي لم اقصّر في نصرة توحيدك اللّٰهُمَّ ولم اعتقد مذهبا الا سنده التوحيد اللّٰهُمَّ ان كنت تعلم ذلك منّي فاغفر لي ذنوبي وسهّل عليّ سكرة الموت، قالوا: فمات من ساعته.[41]

[41] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 52

رحم الله امامنا وشيخنا أبو اسحاق وجعله من اهل الجنة المرضيين، فقد كان والله نسيج وحده وفريد عصره وبديع زمانه، سبق عقله زمانه.

الأدب والشعر

كان متكلما شاعراً أديبا[42]

ابن النديم

[42] الفهرست لابن النديم ص 211

يقول ابن المرتضى: فأما أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام؛ فإنه كان مقدّما فى العلم بالكلام، حسن الخاطر، شديد التدقيق والغوص على المعانى[43]، وقال الامام يحي بن المرتضى: وله اشعار تأخذ بالقلب والسمع ملاحة[44]، وقال ابن النديم كان متكلما شاعراً أديبا[45]، و قال أبو عبيدة: «ما ينبغى أن يكون فى الدنيا مثله، فإني امتحنته، فقلت له: «ما عيب الزجاج؟» فقال- على البديهة-: «يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر»[46]، وروى أن الخليل قال له- وهو شاب ممتحنا له، وفي يد الخليل قدح زجاج- «يا بنى صف لى هذا»، فقال: «أمدح أم أذم»، قال: «بل امدح». فقال: «نعيم يريك القذى، لا يقبل الأذى ويستر ما روى». قال: «فذمها» قال «سريع كسرها، بطيء جبرها»، قال: «فصف لى هذه النخلة». فقال مادحا: «حلو مجتناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها». وقال فى ذمها: «صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى محفوفة بالأذى». فقال الخليل: «يا بنى! نحن الى التعلم منك أحوج، الى غير ذلك من المحاسن».[47] وقال الخطيب البغدادي وكَانَ أحد فرسان أهل النظر وَالكلام عَلَى مذهب المعتزلة، وله فِي ذلك تصانيف عدة، وكَانَ أيضا متأدبا، وله شعر دقيق المعاني عَلَى طريقة المتكلمين، وقال أَخْبَرَنِي الصيمري، قَالَ: قَالَ لنا أَبُو عبيد اللَّه المرزباني: كَانَ لإبراهيم مذهب فِي ترقيق الشعر وتدقيق المعاني، لم يسبق إليه، ذهب فِيهِ مذاهب أصحاب الكلام المدققين[48]، فيتفق المخالفين له والمؤيدين بأنه كان صاحب أدب وبلاغة وشاعرا من الطراز العالي، وأنقل هنا ما وصلني من كلام النظّام من البلاغة والشعر:

فضل التعلم

قال الجاحظ: قال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر.

وأنشد قول ابن يسير : [من المتقارب]

أما لو أعي كلّ ما أسمع ... وأحفظ من ذاك ما أجمع

ولم أستفد غير ما قد جمع ... ت لقيل هو العالم المصقع

ولكنّ نفسي إلى كلّ نو ... ع من العلم تسمعه تنزع

---

[43] امالي المرتضى ج1 ص 187

[44] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص51

[45] الفهرست لابن النديم ص 211

[46] المنية والأمل للقاضي عبد الجبار ص 48

[47] المنية والأمل للقاضي عبد الجبار ص 49/48

[48] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج6 ص 623

فلا أنا أحفظ ما قد جمع ... ت ولا أنا من جمعه أشبع

وأحصر بالعيّ في مجلسي ... وعلمي في الكتب مستودع

فمن يك في علمه هكذا ... يكن دهره القهقرى يرجع

إذا لم تكن حافظا واعيا ... فجمعك للكتب لا ينفع[49]

وكان النّظّام كثيرا ما ينشد: [من الطويل]

فلو كنت أرضى لا أبالك بالذي ... به الخامل الجثّام في الخفض قانع

قصرت على أدنى الهموم وأصبحت ... عليّ وعندي للرّجال صنائع[50]

[التخصص بضروب من العلم]

وقال أبو إسحاق: كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها. إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلا، ولا البليد ذكيّا، ولكنّ الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشحذ وتفتق، وترهف وتشفي. ومن أراد أن يعلم كلّ شيء، فينبغي لأهله أن يداووه! فإنّ ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه!! فمن كان ذكيّا حافظا فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالما بخواصّ. ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئا، إلّا نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.[51]

[إبراهيم بن هانئ والشعر]

قال الجاحظ: وأنشدني إبراهيم بن هانئ، وعبد الرحمن بن منصور: [من الطويل]

جنونك مجنون ولست بواجد ... طبيبا يداوي من جنون جنون

[49] الحيوان 1 ص 43
[50] الحيوان 7 ص 100
[51] الحيوان 1 ص 43

وكان إبراهيم بن هانئ لا يقيم شعرا ولا أدري كيف أقام هذا البيت! وكان يدّعى بحضرة أبي إسحاق علم الحساب، والكلام، والهندسة، واللحون، وأنه يقول الشعر؛ فقال أبو إسحاق: نحن لم نمتحنك في هذه الأمور، فلك أن تدّعيها عندنا. كيف صرت تدّعي قول الشعر، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته؟! قال: فإنّي هكذا طبعت، أن أقيمه إذا قلت، وأكسره إذا أنشدت! قال أبو إسحاق: ما بعد هذا الكلام كلام[52]

[شياطين الشام والهند]

قال: وأصحاب الرّقى والأخذ والعزائم، والسّحر، والشّعبذة، يزعمون أنّ العدد والقوّة في الجنّ والشياطين لنازلة الشام والهند، وأنّ عظيم شياطين الهند يقال له: تنكوير ، وعظيم شياطين الشام يقال له: دركاذاب وقد ذكرهما أبو إسحاق في هجائه محمد بن يسير، حين ادّعى هذه الصناعة فقال: [من الخفيف]

قد لعمري جمعت مل آصفيّا ... ت ومن سفر آدم والجراب

وتفرّدت بالطوالق والهي ... كل والرّهنبات من كلّ باب

وعلمت الأسماء كيما تلاقي ... زحلا والمرّيخ فوق السّحاب

واستثرت الأرواح بالبحر يأتي ... ن لصرع الصّحيح بعد المصاب

جامعا من لطائف الدّنهشيّا ... ت كبوسا نمّقتها في كتاب

ثم أحكمت متقن الكرويّا ... ت وفعل الناريس والنجاب

ثمّ لم تعيك الشعابيذ والخد ... مة والإحتفاء بالطلاب

بالخواتيم والمناديل والسّع ... ي بتنكوير ودركاذاب[53]

[النظّام وقول ذي الرّمّة]

وقال أبو إسحاق: وأما قول ذي الرّمّة: [من الطويل]

إذا حثّهنّ الرّكب في مدلهمّة ... أحاديثها مثل اصطخاب الضّرائر

---

[52] الحيوان ج3 ص 56

[53] الحيوان ج6 ص 437

قال أبو إسحاق: يكون في النّهار ساعات ترى الشّخص الصّغير في تلك المهامه عظيما، ويوجد الصّوت الخافض رفيعا، ويسمع الصّوت الذي ليس بالرّفيع مع انبساط الشّمس غدوة من المكان البعيد؛ ويوجد لأوساط الفيافي والقفار والرّمال والحرار، في أنصاف النّهار، مثل الدّويّ من طبع ذلك الوقت وذلك المكان. عند ما يعرض له. ولذلك قال ذو الرّمّة : [من الطويل]

إذا قال حادينا لتشبيه نبأة ... صه لم يكن إلا دويّ المسامع

قالوا: وبالدّويّ سميّت دوّيّة وداوية، وبه سمّي الدوّ دوّا[54]

ويقول لانظّام أيضا من الشعر الرقيق:

فلا تبغ أمراً لست مضطلعاً به ... فينقَضّ منه أولَ الأمر آخرُه

ومن يتكلفْ ما يخالفُ طبعه ... يَبِنْ عجزه فيه وتعْمى بصائره[55]

ويقول ابن المعتز: ومما يستحسن من شعر النظام قوله:

ألا يا خير من رأت العيون ... نظيرك لا يحس ولا يكون

وفضلك لا يحد ولا يجاري ... ولا تحوي حيازته الظنون

خلقت بلا مشاكلة لشيءٍ ... وأنت الفوق والثقلان دون

كأن الملك لم يك قبل شيئاً ... إلى أن قام بالملك الأمين

وهذا إبراهيم النظام هو القائل:

ما زلت آخذ روح الدن في لطف ... وأستبيح دماً من غير مذبوح

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي ... والزق مطرح جسم بلا روح

وشعره قليل، وكان يستقي الشعر من الكلام والجدل.[56]

ويقول المرتضى: وللنظّام شعر كثير صالح، فمنه:

---

[54] الحيوان ج6 ص 445

[55] الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى محمد بن أحمد بن محمد العميدي ص 113

[56] طبقات الشعراء لابن المعتز ص 272

يا تاركى جسدا بغير فؤاد ... أسرفت فى الهجران والإبعاد

إن كان يمنعك الزّيارة أعين ... فادخل عليّ بعلّة العوّاد

كيما أراك وتلك أعظم نعمة ... ملكت يداك بها منيع قيادى

إنّ العيون على القلوب إذا جنت ... كانت بليّتها على الأجساد

وله:

توهّمه طرفى فآلم خدّه ... فكان مكان الوهم من نظرى أثر

وصافحه قلبى فآلم كفّه ... فمن صفح قلبى فى أنامله عقر

ومرّ بقلبى خاطرا فجرحته ... ولم أر خلقا قطّ يجرحه الفكر

يمرّ فمن لين وحسن تعطّف ... يقال به سكر وليس به سكر

ويقال إن أبا العتاهية، قال: أنشدت النظام شعرا:

إذا همّ النّديم له بلحظ ... تمشّت فى محاسنه الكلوم

فقال: ينبغى أن ينادم هذا أعمى.

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوّه: وأبيات النظام تتضمّن معنى بيت أبى العتاهية، ولسنا ندرى أيّهما أخذ من صاحبه، والنظّام يكرر هذا المعنى/ كثيرا فى شعره، فمن ذلك قوله:

رقّ فلو بزّت سرابيله ... علّقه الجوّ من اللّطف

يجرحه اللّحظ بتكراره ... ويشتكى الإيماء بالطّرف[57]

[نفي اللحن عن النظام]

قال الجاحظ: فأمّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيّار النظّام، فإنّا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبلّة، وتقدّمته شيئا، وألح عليه كلب من شكل كلاب الرّعاء، وكره أن يعدو فيغريه ويضرّيه ، وأنف أيضا من ذلك- وكان أنفا شديد الشّكيمة أبّاء للهضيمة- وكره أن يجلس مخافة أن يشغر عليه أو لعلّه أن يعضّه فيهرت ثوبه، وألحّ عليه فلم ينله بسوء. فلمّا جزنا حدّه وتخلّصنا منه، قال إبراهيم في كلام له

[57] امالي المرتضى ج1 ص 187

كثير، يعدّد خصاله المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سبع فاذهب مع السّباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنّا سكوت البهائم! ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقول ملحون. من قولي: «إن كنت سبع» ولم أقل «إن كنت سبعا»[58]

[النظّام وعداوته للعروضي]

قال الجاحظ: وإذا قالوا: فلان أخضر البطن، فإنما يريدون أنّه حائك، لأنّ الحائك بطنه لطول التزاقه بالخشبة التي يطوى عليها الثّوب يسودّ.

وكان سبب عداوة العروضي لإبراهيم النّظام، أنّه كان يسمّيه الأخضر البطن، والأسود البطن؛ فكان يكشف بطنه للناس- يريد بذلك تكذيب أبي إسحاق- حتى قال له إسماعيل بن غزوان: إنّما يريد أنّك من أبناء الحاكة، فعاداه لذلك.[59]

[النظّام والوصف]

وقال أبو إسحاق- وذكر إنسانا -: هو والله أترف من ربيب ملك ، وأخرق من امرأة ، وأظلم من صبي.

وقال لي أبو عبيدة: ما ينبغي أن يكون كان في الدنيا مثل هذا النّظام. قلت:

وكيف؟ قال: مرّ بي يوما فقلت: والله لأمتحننّه، ولأسمعنّ كلامه؛ فقلت له: ما عيب الزّجاج- قال: يسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبر- من غير أن يكون فكّر أو ارتدع.[60]

[النظّام والوعد]

وقال أبو إسحاق النّظام: «كنّا نلهو بالأماني، ونطيب أنفسا بالمواعيد، فذهب من يعد، وقطعتنا الهموم عن فضول الأماني»[61]

[النظّام والخليل]

وذكر النّظام الخليل بن أحمد فقال: «توحّد به العجب فأهلكه، وصوّر له الاستبداد صواب رأيه فتعاطى ما لا يحسنه، ورام ما لا يناله، وفتنته دوائره التي لا يحتاجه إليها غيره»، وكان أبو إسحاق إذا ذكر الوهم لم يشكّ في جنونه، وفي اختلاط عقله.

وهكذا كان الخليل، وإن كان قد أحسن في شيء.[62]

[58] الحيوان ج1 ص 186
[59] الحيوان 3 ص 121
[60] الحيوان 3 ص 225
[61] الحيوان 7 ص 91

[النظّام والجري (وهو نوع من السمك)]

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدّماغ، يلتهم العذرة ويأكل الجرذان صحاحا والفأر، وزهم لا يستطاع أكله إلّا محسيّا ولا يتصرّف تصرّف السمك، وقد وقع عليه اسم المسخ، لا يطيب مملوحا ولا ممقورا، ولا يؤكل كبابا، ولا يختار مطبوخا، ويرمى كلّه إلّا ذنبه.[63]

[النظّام ومجاهد]

قال الجاحظ في باب ما يكره من الكلام:

وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضان، فلعلّ رمضان اسم من أسماء الله تعالى.

قال أبو إسحاق: إنما أتى من قبل قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، فقد قال الناس يوم التّروية، ويوم عرفة ولم يقولوا عرفة.[64]

[النظّام ومثنى بن زهير]

وقال مثنّى بن زهير ذات يوم: ما تلهّى النّاس بشيء مثل الحمام، ولا وجدنا شيئا مما يتخذه النّاس ويلعب به ويلهى به، يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجدّ- كالحمام- وأبو إسحاق حاضر- فغاظه ذلك، وكظم على غيظه. فلمّا رأى مثنّى سكوته عن الردّ عليه طمع فيه فقال: يبلغ والله من كرم الحمام ووفائه، وثبات عهده، وحنينه إلى أهله، أنّي ربّما قصصت الطّائر وبعد أن طار عندي دهرا، فمتى نبت جناحه كنباته الأوّل، لم يدعه سوء صنعي إليه إلى الذّهاب عنّي. ولربّما بعته فيقصّه المبتاع حينا، فما هو إلّا أن يجد في جناحه قوّة على النّهوض حتّى أراه أتاني جادفا أو غير جادف. وربّما فعلت ذلك به مرارا كثيرة، كلّ ذلك لا يزداد إلّا وفاء.

قال أبو إسحاق: أمّا أنت فأراك دائبا تحمده وتذمّ نفسك. ولئن كان رجوعه إليك من الكرم إنّ إخراجك له من اللّؤم! وما يعجبني من الرّجال من يقطع نفسه لصلة طائر، وينسى ما عليه في جنب ما للبهيمة.

ثم قال: خبّرني عنك حين تقول: رجع إليّ مرّة بعد مرّة، وكلما زهدت فيه كان فيّ أرغب، وكلّما باعدته

---

[62] الحيوان 7 ص 100
[63] الحيوان ج1 ص 154
[64] الحيوان 1 ص 227

كان لي أطلب؛ إليك جاء، وإليك حنّ أم إلى عشّه الذي درج منه، وإلى وكره الذي ربّي فيه؟! أرأيت أن لو رجع إلى وكره وبيته ثمّ لم يجدك، وألفاك غائبا أو ميّتا، أكان يرجع إلى موضعه الذي خلّفه؟ وعلى أنّك تتعجّب من هدايته، وما لك فيه مقال غيره. فأمّا شكرك على إرادته لك، فقد تبيّن خطاؤك فيه، وإنما بقي الآن حسن الاهتداء، والحنين إلى الوطن.[65]

[النظّام وغضبه من اسماعيل لتعديه على جارية]

قال أبو إسحاق لإسماعيل بن غزوان: «أشهد بالله إنك لضبع» . لأن إسماعيل شدّ جارية له على سلّم وحلف ليضربنّها مائة سوط دون الإزار- ليلتزق جلد السّوط بجلدها، فيكون أوجع لها- فلما كشف عنها رطبة بضّة خدلة ، وقع عليها، فلما قضى حاجته منها وفرغ، ضربها مائة سوط. فعند ذلك قال أبو إسحاق ما قال.[66]

[أقوال فيما يضر من الأشياء]

قال الجاحظ: وأما ما يذكرون في الباب من الهمّ والوحدة والفكرة، فجميع الناس يعرفون ذلك. وأما الذي لا يعرفه إلا الخاصة فالكفاية التامة، والتعظيم الدائم، وإهمال الفكر، والأنف من التعلّم. هذا قول أبي إسحاق.

وقال أبو إسحاق : ثلاثة أشياء تخلق العقل، وتفسد الذهن: طول النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر إلى البحر.[67]

[أحاديث النظّام]

قال أبو إسحاق: استراح فلان من حيث تعب الكرام.[68]

وقال عمرو بن القاسم: إنما قويت على خصمي بأني لم أتستّر قطّ عن شيء من القبيح ، فقال أبو إسحاق: نلت اللذّة، وهتكت المروءة، وغلبتك النفس الدّنية، فأرتك مكروه عملك محبوبا وسيّء قولك حسنا. ومن كان على هذا السبيل لم يتلفت إلى خير يكون منه، ولم يكترث بشرّ يفعله.[69]

[65] الحيوان ج 3 ص 125
[66] الحيوان ج5 ص 64
[67] الحيوان 5 ص 303
[68] الحيوان ج5 ص 312
[69] الحيوان ج5 ص 313

وقال ابراهيم النظام: قلت لخنجير كون ممرور الزياديين: أقعدها هنا حتى أرجع إليك. قال: أما حتى ترجع إلي فإني لا أضمن لك ولكن أقعد لك إلى الليل. [70]

وسئل عن رجل، فقال: إن له شرفا وبيتا وقدما. فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة. فقيل له في ذلك، فقال: ما كذبت، شرفه أذناه، وقدمه التي يمشي عليها، ولا بد من أن يكون له بيت يأوي إليه.

قال أبو إسحاق: قد لعمري كذب، إنما هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمته عن رجل، فقال: «هو يبيع الدواب» . فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير، فلما سئل عن ذلك قال: ما كذبت، لأن السنور دابة.

قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب، هذا مثل قول القائل حين سئل عن رجل في تزويج امرأة فقال: «رزين المجلس، نافذ الطعنة» . فحسبوه سيدا فارسا، فنظروا فوجدوه خياطا! فسئل عن ذلك فقال: ما كذبت، لطويل الجلوس، جيد الطعن بالإبرة.

قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب، لأنه قد غرّهم منه.[71]

قال الجاحظ: قالوا: وقال عمر بن عبد العزيز، وقد سمعوا وقع الصواعق، ودويّ الريح، وصوت المطر، فقال وقد فزع الناس: هذه رحمته فكيف نقمته! وقال أبو اسحاق: اللّٰهُمَّ إن كان عذابا فاصرفه، وإن كان صلاحا فزد فيه، وهب لنا الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء. اللّٰهُمَّ إن كانت محنة فمنّ علينا بالعصمة، وإن كان عقابا فمنّ علينا بالمغفرة.[72]

[كلام النظّام في العشق]

قال المسعودي: وقال النظَّام إبراهيم بن يَسار المعتزلي وكان من نظار البصريين في عصره: أيها الوزير العشق أرق من السراب وأدبُّ من الشراب، وهو من طينة عَطِرة عجنت في إناء الجلالة، حلو المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خبلًا قاتلًا، وفساداً معضلًا، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب، فتعْشِب شعفاً، وتثمر كلفاً، وصريعهُ دائم اللوعة، ضيق المتنفس، مُشارف الزمن، طويل الفكر، إذا أجنحه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.[73]

---

[70] البيان والتبيين ج3 ص 147
[71] البيان والتبيين ج 1 ص 274
[72] البيان والتبيين ج3 ص 191
[73] مروج الذهب ومعادن الجوهرلا للمسعودي ج3 ص 372

الأدلـــــــــــة

باب القرآن

لا تسترسلوا إلى كثير من المفسّريــن، وإن نصبوا أنفسهم للعامّة.

إبراهيم بن سيّار النظّام

[القرآن، التفسير ووجه الاعجاز]

اعلم علّمك الله أن كلام الله الحكيم العليم فلا يجوز عليه الكذب ولا التناقض ولا النقصان ولا يجوز نسخه، {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} هو كتاب {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} فهو حجة الله على خلقه لقوله تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} وقال أيضا: {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} ، فيه أحكامه سبحانه، الحلال والحرام، العبادات، ولا يستدل في أصول الدين من الأدلة السمعية إلا بالكتاب، فهو الفصل، العمل به والرجوع إليه واجب لقوله {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ} ، فهو مبين لكل شيء، قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} وقال سبحانه: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} وقال أيضا: {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } وعن النبي: "اعْمَلُوا بِالْقُرْآنِ، أَحِلُّوا حَلَالَهُ وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ وَاقْتَدُوا بِهِ وَلَا تَكْفُرُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ...الى اخر الحديث" ولقوله: "عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا اتَّبَعْتُمُوهُ...." وعن وصي رسول الله الامام علي عن رسول الله أنه قال: " أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا { 1 } يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "

وهذا رأي واعتقاد شيخنا النظّام رضي الله عنه في كتاب الله، لهذا كان يقول: لَا عَمَلَ إِلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ.[74] ، فكلام الله عنده مقدم.

[74] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 262

تفسير النظّام:

كانت لشيخنا النظّام طريقة خاصة لتفسير القرآن وتأويل آياته رافضا جل التفسيرات الموجودة في عصره، وذلك لنزعته العقلية أولا ولمنهجه المستقيم المبني على الشك والتجربة ثم التسليم، لهذا يقول صاحب كتاب إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية: للنظّام في تفسير القرآن طريقته الخاصة أيضا، وهي تقوم على أصول يمكن استخلاصها من جملة ما وصل الينا عن النظّام في ذلك، ومن أهم هذه الأصول:

عدم البعد في التأويل عن المعنى الذي تدل عليه الألفاظ بحسب عادة العرب في تعبيرهم.

وترك التكلف وترك الجري وراء الغريب من التأويل.[75]

قلت: وهذا ثابت عن هذا الإمام المرضي، وقد نقل لنا شيخنا الجاحظ رضوان الله عليه رأي النظّام في المفسرين فقال: كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسّرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامّة، وأجابوا في كلّ مسألة؛ فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلّما كان المفسّر أغرب عندهم كان أحبّ إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبيّ، والسّدّي، والضّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، في سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ: وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ: إنّ الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلّي فيها، بل إنّما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه: من يد ورجل، وجبهة وأنف وثفنة.

وقالوا في قوله تعالى: أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ: إنّه ليس يعني الجمال والنّوق، وإنّما يعني السحاب.

وإذا سئلوا عن قوله: وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ

قالوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليل على أنّ شهر رمضان قد كان فرضا على جميع الأمم وأنّ الناس غيّروه، قوله تعالى كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

وقالوا في قوله تعالى: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً

[75] إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية لأبو ريدة ص 40

قالوا: يعني أنّه حشره بلا حجّة.

وقالوا في قوله تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ: الويل واد في جهنم. ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي. ومعنى الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهليّة قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم! وسئلوا عن قوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

قالوا: الفلق: واد في جهنم، ثمّ قعدوا يصفونه. وقال آخرون: الفلق: المقطرة بلغة اليمن.

وقال آخرون في قوله تعالى: عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا

قالوا: أخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا: وإنّما هي: سل سبيلا إليها يا محمد. فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمّى، وعلى أيّ شيء وقع قوله تسمّى فتسمّى ماذا، وما ذلك الشيء؟

وقالوا في قوله تعالى: وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا

قالوا الجلود كناية عن الفروج. كأنه كان لا يرى أنّ كلام الجلد من أعجب العجب! وقالوا في قوله تعالى: كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ: إنّ هذا إنّما كان كناية عن الغائط. كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينال أهله من الذّلّة والعجز والفاقة، وأنّه ليس في الحاجة إلى الغذاء- ما يكتفى به في الدّلالة على أنّهما مخلوقان، حتّى يدّعي على الكلام ويدّعي له شيئا قد أغناه الله تعالى عنه.

وقالوا في قوله تعالى: وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ: إنّه إنما عنى قلبه.

ومن أعجب التأويل قول اللّحياني: (الجبّار) من الرجال يكون على وجوه: يكون جبّارا في الضّخم والقوّة، فتأوّل قوله تعالى: إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ

قال: ويكون جبّارا على معنى قتّالا، وتأوّل في ذلك: وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، وقوله لموسى صلى الله عليه وسلم: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ أي قتّالا بغير حقّ.

والجبار: المتكبّر عن عبادة الله تعالى، وتأوّل قوله عزّ وجلّ: وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا، وتأوّل في ذلك قول عيسى: وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا أي لم يجعلني متكبّرا عن عبادته، قال: الجبّار: المسلّط القاهر، وقال: وهو قوله: وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ

أي مسلّط فتقهرهم على الإسلام. والجبّار: الله.

وتأوّل أيضا (الخوف) على وجوه، ولو وجده في ألف مكان لقال: والخوف على ألف وجه، وكذلك الجبّار. وهذا كلّه يرجع إلى معنى واحد؛ إلّا أنّه لا يجوز أن يوصف به إلّا الله عزّ وجلّ.[76]

قلت: والله ما عدوت الحق يا ابراهيم! فها هي تفسيراتهم طافحة بالتفسيرات الساذجة ، فضلا عن الطعون في الله والأنبياء، ونقل لنا محمد بن محمد ابو شهبة وغيره كثير من أقوالهم الساذجة منها:

- الإسرائيليات في بناء الكعبة: قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ، عَنْ سَوَّارٍ ختن عطاء، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: " لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ كَانَ رِجْلاهُ فِي الأَرْضِ وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ، يَسْمَعُ كَلامَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَدُعَاءَهُمْ، يَأْنَسُ إِلَيْهِمْ، فَهَابَتِ الْمَلائِكَةُ حَتَّى شَكَتْ إِلَى اللَّهِ فِي دُعَائِهَا وَفِي صَلاتِهَا، فَخَفَضَهُ اللهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلَمَّا فَقَدَ مَا كَانَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ، اسْتَوْحَشَ حَتَّى شَكَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ فِي دُعَائِهِ وَفِي صَلاتِهِ، فَوُجِّهَ إِلَى مَكَّةَ، فَكَانَ مَوْضِعُ قَدَمِهِ قَرْيَةً وَخَطْوُهُ مَفَازَةً، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَّةَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ يَاقُوتَةً مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، فَكَانَتْ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ الآنَ، فَلَمْ يَزَلْ يَطُوفُ بِهِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ الطُّوفَانَ، فَرُفِعَتْ تِلْكَ الْيَاقُوتَةُ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ فَبَنَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } "

2- الإسرائيليات في قصة التابوت: قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

وكانت قصة التابوت أَن اللَّه تَعَالَى أنزل تابوتا عَلَى آدم فِيهِ صورة الأنبياء عَلَيْهِم السَّلام، وَكَانَ من عود الشمشاذ نحوا من ثلاثة أذرع فِي ذراعين، فكان عِنْدَ آدم إِلَى أَن مَات، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ عِنْدَ شيث، ثُمَّ توارثها أولاد آدم إِلَى أَن بلغ إِبْرَاهِيم، ثُمَّ كَانَ عِنْدَ إِسْمَاعِيل، لأنه كَانَ أكبر ولده، ثُمَّ عِنْدَ يعقوب، ثُمَّ كَانَ فِي بَنِي إسرائيل إِلَى أَن وصل إِلَى مُوسَى، فكان مُوسَى يضع فِيهِ التَّوْرَاة ومتاعا من متاعه، فكان عنده إِلَى أَن مَات مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، ثُمَّ تداولته أنبياء بَنِي إسرائيل إِلَى وقت إشمويل.

---

[76] الحيوان ج1 ص 228

و اختلفوا فِي السكينة مَا هِيَ { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } فروي عن علي عليه السلام (وحاشاه أن يصدر منه هذا الهراء وهو من أبلغ بلغاء قريش) : ريح خجوج هفافة، لَهَا رأسان ووجه كوجه الإِنْسَان.

وعن مجاهد: شَيْء يشبه الهرة، لَهُ رأس كرأس الهرة، وذنب كذنب الهرة، وَلَهُ جناحان.

وقيل: لَهُ عينان لهما شعاع، وجناحان من زمرد وزبرجد، فكانوا إِذَا سمعوا صوته تيقنوا بالنصرة، وكانوا إِذَا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم، فَإِذَا سار ساروا، وإذا وقف وقفوا.

وعن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: هِيَ طست من ذهب من الْجَنَّة، كَانَ يغسل فِيهِ قلوب الأنبياء، وعن وهب بْن منبه، قَالَ: هِيَ روح من اللَّه يتكلم، إِذَا اختلفوا فِي شَيْء تخبرهم ببيان مَا يريدون. و التفسير الحقيقي كما جاء في نفس المصدر: السكينة فعيلة من السكون، أي: طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كَانَ التابوت اطمأنوا إِلَيْهِ وسكنوا.

3- قصة آدم: قال تعالى {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}

أرنا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ دُرِّيَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ، يَقُولُ: " لَمَّا أَسْكَنَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ الْجَنَّةَ وَزَوْجَتَهُ نَهَاهُ عَنِ الشَّجَرَةِ، وَكَانَتِ الشَّجَرَةُ غُصُونُهَا يَتَشَعَّبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَكَانَ لَهَا ثَمَرٌ تَأْكُلُهَا الْمَلائِكَةُ لِخُلُودِهِمْ، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي نَهَى اللَّهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ إِبْلِيسُ أَنْ يَسْتَزِلَّهُمَا دَخَلَ فِي جَوْفِ الْحَيَّةِ، وَكَانَتِ الْحَيَّةُ لَهَا أَرْبَعُ قَوَائِمَ كَأَنَّهَا بُخْتِيَّةٌ مِنْ أَحْسَنِ دَابَّةٍ خَلَقَهَا اللَّهُ، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْحَيَّةُ الْجَنَّةَ خَرَجَ مِنْ جَوْفِهَا إِبْلِيسُ، فَأَخَذَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ، فَجَاءَ بِهَا إِلَى حَوَّاءَ، فَقَالَ: انْظُرِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا أَطْيَبَ رِيحَهَا، وَأَطْيَبَ طَعْمَهَا، وَأَحْسَنَ لَوْنَهَا فَأَخَذَتْهَا حَوَّاءُ، فَأَكَلَتْ مِنْهَا، ثُمَّ ذَهَبَتْ بِهَا إِلَى آدَمَ، فَقَالَتِ: انْظُرْ إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا أَطْيَبَ رِيحَهَا، وَأَطْيَبَ طَعْمَهَا، وَأَحْسَنَ لَوْنَهَا، فَأَكَلَ مِنْهَا آدَمُ، فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا، فَدَخَلَ آدَمُ فِي جَوْفِ الشَّجَرَةِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا آدَمُ أَيْنَ أَنْتَ؟، قَالَ: أَنَا هَأَنَذَا يَا رَبِّ، قَالَ: أَلا تَخْرُجُ؟، قَالَ: أَسْتَحْيِي مِنْكَ يَا رَبِّ، قَالَ: مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ الَّتِي خُلِقْتَ مِنْهَا لَعْنَةً تَتَحَوَّلُ ثِمَارُهَا شَوْكًا، قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ، وَلا فِي الأَرْضِ شَجَرَتَانِ أَفْضَلَ مِنَ الطَّلْحِ، وَالسِّدْرِ، ثُمَّ قَالَ: يَا حَوَّاءُ أَنْتِ الَّتِي غَرَّرْتِ عَبْدِي، فَإِنَّكِ لا تَحْمِلِينَ حَمْلا إِلا حَمَلْتِهِ كُرْهًا، فَإِذَا أَرَدْتِ أَنْ تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ أَشْرَفْتِ عَلَى الْمَوْتِ مِرَارًا، وَقَالَ لِلْحَيَّةِ: أَنْتِ الَّتِي دَخَلَ الْمَلْعُونُ فِي جَوْفِكِ، حَتَّى غَرَّ عَبْدِي،

مَلْعُونَةٌ أَنْتِ لَعْنَةً تَتَحَوَّلُ قَوَائِمُكِ فِي بَطْنِكِ، وَلا يَكُونُ لَكِ رِزْقٌ إِلا التُّرَابَ، أَنْتِ عَدُوَّةُ بَنِي آدَمَ، وَهُمْ أَعْدَاؤُكِ، حَيْثُ لَقِيتِ أَحَدًا مِنْهُمْ أَخَذْتِ بِعَقِبِهِ، وَحَيْثُمَا لَقِيَكَ شَدَخَ رَأْسَكِ "، قَالَ عُمَرُ: فَقِيلَ لِوَهْبٍ: فَهَلْ كَانَتِ الْمَلائِكَةُ تَأْكُلُ؟ "، قَالَ: " يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ "

وقوله يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ تهرب من الجواب، وعجز عن تصحيح هذا الكذب الظاهر كما قال الإمام محمد أبو شهبه.

قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ}

حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ الْعَدْلُ، ثنا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، ثنا أَبُو الْحَارِثِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ الْفِهْرِيُّ، ثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مَسْلَمَةَ، أَنْبَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ، وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لأُحِبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ ادْعُنِي بِحَقِّهِ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَلَوْلا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ "

4- المائدة التي طلبها الحواريون: قال تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)}

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ قَزَعَةَ الْبَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ خِلَاسِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " أُنْزِلَتْ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا، وَأُمِرُوا أَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا لِغَدٍ فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ "

وينسب هذا الكلام الفارغ كله إلى النبي عليه السلام، تركوا آيات العقل و التدبر في الخلق ة البلاغة في الكتاب و ذهبوا إلى نوع الأكل الذي نزل في المائدة.

5- الإسرائيليات في سؤال موسى ربه الرؤية: قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}

قال وهب، وابن إسحاق: لما سأل موسى ربه الرؤية، أرسل الله الضباب، والصواعق، والظلمة، والرعد، والبرق، وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السماء أن يعترضوا على موسى، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر، تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى، فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه أمثال الأسود، لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع، واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى، اصبر لم سألت، فقليل من كثير ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى، فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور، لهم قصف، ورجف شديد، وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس، كجلب الجيش العظيم، ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى، واشتد نفسه، وأيس من الحياة، فقال له خير الملائكة: مكانك يابن عمران، حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا، فاعترضوا على موسى بن عمران، فهبطوا عليه، فكان لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح، لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم،

فاصطكت ركبتاه، وأرعد قلبه، واشتد بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يابن عمران، اصبر لما سألت، فقليل من كثير ما رأيت، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا، فاعترضوا على موسى، فهبطوا عليه، لهم سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره، لم ير مثلهم، ولم يسمع مثل

أصواتهم، فامتلأ جوفه خوفا، واشتد حزنه، وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يابن عمران، مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني، فهبطوا عليه في يد كل ملك منهم مثل النخلة الطويلة نار، أشد ضوءا من الشمس، ولباسهم كلهب النار، إذا سبحوا، وقدسوا، جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات، كلهم يقولون بشدة أصواتهم: سبوح قدوس، رب العزة أبدا لا يموت، وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى، رفع صوته يسبح معهم حين سبحوا، وهو يبكي، ويقول: رب، اذكرني، ولا تنس عبدك، لا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا؟ إن خرجت احترقت، وإن مكثت مت.

فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يابن عمران، أن يشتد خوفك، وينخلع قلبك، فاصبر للذي سألت.

ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة، فلما بدا نور العرش، انفرج الجبل من عظمة الرب جل جلاله، ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا، يقولون: سبحان القدوس، رب العزة أبدا لا يموت بشدة أصواتهم، فارتج الجبل، واندكت كل شجرة كانت فيه، وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه، ليس معه روحه، فأرسل الله برحمته الروح، فتغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى، وجعله كهيئة القبة، لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل اللامة، فقام موسى يسبح الله تعالى، ويقول: آمنت بك ربي، وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا، من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه، فما أعظمك، وأعظم ملائكتك، أنت رب الأرباب، وإله الآلهة، وملك الملوك، ولا يعدلك شيء، ولا يقوم لك شيء، رب تبت إليك، الحمد لله، لا شريك لك، ما أعظمك، وما أجلك رب العالمين.

6- سبب رمي موسى الألواح: قال تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانُوا مَنْ قَبْلَهَا يُقَرِّبُونَ صَدَقَاتِهِمْ، فَإِنْ تُقُبِّلَتْ مِنْهُمْ جَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُمْ تُرِكَتْ حَتَّى جَاءَتِ السِّبَاعُ فَأَكَلَتْهَا، فَقَالَ " يَا رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الشَّافِعُونَ

الْمَشْفُوعُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي "، قَالَ: " تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ "، قَالَ: " رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْمُسْتَجِيبُونَ الْمُسْتَجَابُ لَهُمْ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي "، قَالَ: " تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ "، قَالَ: " يَا رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الضَّلالَةِ حَتَّى يُقَاتِلُوا الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي "، قَالَ: " تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ "، قَالَ: " فَأَلْقَى مُوسَى الْأَلْوَاحَ "، قَالَ: " يَا رَبِّي اجْعَلْنِي مِنْهُمْ "، قَالَ: " إِنَّكَ لَنْ تُدْرِكَهُمْ "، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، قَالَ: " فَرَضِيَ نَبِيُّ اللَّهِ " وَزِيدَ { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}

و جاء في تفسير: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}

حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: ثنا الْحُسَيْنُ، قَالَ: ثني حَجَّاجٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَوْلَهُ:ف وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَق، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَكَفَرُوا، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا، تَبَرَّأَ سِبْطٌ مِنْهُمْ مِمَّا صَنَعُوا، وَاعْتَذَرُوا، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ، فَسَارُوا فِيهِ حَتَّى خَرَجُوا مِنْ وَرَاءِ الصِّينِ، فَهُمْ هُنَالِكَ حُنَفَاءَ مُسْلِمُونَ، يَسْتَقْبِلُونَ قِبْلَتَنَا

7- نسبة الشرك إلى آدم و حواء: قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)}

حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: " لَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّوْهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ، وَأَمْرِهِ "

والآية لا علاقة لها بآدم وحواء، و إنما الآية تتحدث عن حدث و إشراك البشر بعد نعمة الله عليهم، فالله تعالى يخبر و يذكرنا بأصلنا بأننا من نفس واحدة، ثم يخبرنا بقصة شخص من المشركين حملت زوجته ولما آتاهما صالحا أي ليس به عيب جعلا لله شركا فيما آتاهما أي الفضل و الرزق (الولد) و أبدلا شكر الله بشكر الأوثان أو الكواكب مع الله.

8- سفينة نوح: وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت سفينة نوح عليه السلام لها أجنحة و تحت الأجنة إيوان" أقول: قبح الله من نسب مثل هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

- طول السفينة: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثَنَا يَزِيدُ، قَالَ: ثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: " ذُكِرَ لَنَا أَنَّ طُولَ السَّفِينَةِ ثَلاثُ مِائَةِ ذِرَاعٍ، وَعَرْضَهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا، وَطُولَهَا فِي السَّمَاءِ ثَلاثُونَ ذِرَاعًا، وَبَابَهَا فِي عَرْضِهَا "

- يا رب و أين الخشب؟: جاء في قصة صناعة الفلك، عندما أمر الله نوحا صناعتها: قَالَ: "يَا رَبِّ وَأَيْنَ الْخَشَبُ ؟ قَالَ: اغْرِسْ الْشَجَرَ، قال: فَغَرَسَ السَّاجَ عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَفَّ عَنِ الدُّعَاءِ، وكفوا عن الاستهزاء وَكَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَ الشَّجَرَ أَمَرَهُ رَبُّهُ فَقَطَعَهَا وَجَفَّفَهَا وَلَقَّفَهَا، فَقَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَتَّخِذُ هَذَا الْبَيْتَ؟ قَالَ: اجْعَلْهُ عَلَى ثَلاثَةِ صُوَرٍ رَأْسُهُ كَرَأْسِ الدِّيكِ، وَجُؤْجُؤُهُ كَجُؤْجُؤِ الطَّيْرِ، وَذَنَبُهُ كَذَنَبِ الدِّيكِ. وَاجْعَلْهَا مُطْبَقَةً، وَاجْعَلْ لَهَا أَبْوَابًا فِي جَنْبَيْهَا، وَشُدَّهَا بِدُسِرٍ يَعْنِي مَسَامِيرِ الْحَدِيدَ، وَبَعَثَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلا جِبْرِيلَ فَعَلَّمَهُ وَجَعَلَ يَدَهُ لا تُخْطِئ.."

و انْطَلَقَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَاسْتَأْجَرَ نَجَّارَيْنِ يَعْمَلُونَ مَعَهُ وَسَامُ وَيَافِثُ وَحَامُ مَعَهُ يَنْحِتُونَ السَّفِينَةَ، فَجَعَلَ السَّفِينَةَ سِتَّ مِائَةِ ذِرَاعٍ طُولُهَا وَسِتِّينَ ذِرَاعًا فِي الأَرْضِ، وَعَرْضُهَا ثَلاثُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَثَلاثَةٌ وَثَلاثُونَ ذِرَاعًا، وَطُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلاثَةٌ وَثَلاثُونَ ذِرَاعًا، وَأَنَّ يُطْلِيَهُ بِالْقَارِ مِنْ دَاخِلِهِ وَخَارِجِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ قَارٌ، فَفَجَّرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لَهُ عَيْنَ الْقَارِ، حَيْثُ يَنْحِتُ السَّفِينَةَ تَغْلِي غَلَيَانًا حَتَّى طَلاهُ، وَأَبْوَابٌ وَجَعَلَ يَعْنِي أَبْوَابَهَا فِي جَنْبِهَا وَأَطْبَقَهَا، وَالدَّوَابُّ فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَى الأَسَدِ الْحُمَّى، وَشَغَلَهُ بِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ فِي الْبَابِ الثَّانِي، ثُمَّ أَطْبَقَ عليهم، وجعل أولاد آدم أربعين رَجُلا وَأَرْبَعِينَ امْرَأَةً فِي الْبَابِ الأَعْلَى، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ الذَّرُ مَعَهُ فِي الْبَابِ الأَعْلَى لِضَعْفِهَا، لأَنْ لا تَطَأَهَا الدواب..."

- سفينة نوح طافت بالبيت سبعا: أَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ، قَالَ: حُدِّثْتُ عَنْ هَارُونَ بْنِ سَعِيدٍ الأَيْلِيِّ، قَالَ: سُئِلَ الشَّافِعِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَضَعَّفَهُ، وَقَالَ: إِنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ: " أَحَدَّثَكَ أَبُوكَ أَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ طَافَتْ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّتْ خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ؟ ! فَقَالَ: نَعَمْ "

9- قصة يوسف:

- الكواكب التي رآها يوسف: قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}

أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرِ بْنُ قَتَادَةَ، أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ الْبَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ نَجْدَةَ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ الْمَكِّيُّ، حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ ظُهَيْرٍ، عَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: بُسْتَانِيُّ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! أَخْبِرْنِي عَنِ النُّجُومِ الَّتِي رَآهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهَا سَاجِدَةً لَهُ، مَا أَسْمَاؤُهَا؟، قَالَ: فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ بِشَيْءٍ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَأَخْبَرَهُ، فَبَعَثَ نَبِيُّ اللَّهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فَلَمَّا جَاءَهُ، قَالَ: " وَأَنْتَ لَتُسْلِمْ إِنْ أَخْبَرْتُكَ "، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ: " حَرَثَانُ، أَوْ قَالَ: حَرَثَالٌ، وَطَارِقٌ، وَالذَّيَّالُ، وَذُو الْكَنَفَاتِ، وَذُو الْقَرْعِ، وَوَثَّابٌ، وَعَمُودَانُ، وَقَابِسُ، وَالضَّرُوحُ، وَالْمُصَبِّحُ، وَالْفَيْلَقُ، وَالضِّيَاءُ، وَالنُّورُ، رَآهَا فِي أُفُقِ السَّمَاءِ أَنَّهَا سَاجِدَةٌ لَهُ، فَلَمَّا قَصَّ يُوسُفُ رُؤْيَاهُ عَلَى يَعْقُوبَ، قَالَ لَهُ: هَذَا أَمْرٌ مُتَشَتَّتٌ يَجْمَعُهُ اللَّهُ مِنْ بَعْدُ "، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: هَذِهِ وَاللَّهِ أَسْمَاؤُهَا"

يلصقون الخرافات بالنبي و يقولونه ما لم يقله فقط لتفسير ما أنزل عليه، قبح الله من نسب هذه الأساطير للنبي و ليتبوءا مقعده في النار إن شاء الله.

- النبي يوسف عفيف في القرآن، خائن في التفسير: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}

عنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: شَهِدْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ هَمِّ يُوسُفَ مَا بَلَغَ؟، قَالَ: " حَلَّ الْهِمْيَانَ، وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْخَاتِنِ، فَنُودِيَ يَا ابْنَ يَعْقُوبَ أَتَزْنِي فَتَكُونَ كَالطَّائِرِ وَقَعَ رِيشُهُ، فَذَهَبَ يَطِيرُ فَلا رِيشَ لَهُ؟ " (حل الهميان يعني حل السراويل).

حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: " نُودِيَ يُوسُفُ، فَقِيلَ: أَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي الأَنْبِيَاءِ تَعْمَلُ عَمَلَ السُّفَهَاءِ "

وقيل لم يكترث لنداء الله حتى رأى صورة أباه في سقف البيت: قِيلَ لابْنِ عَبَّاسٍ: " مَا بَلَغَ مِنْ هَمِّ يُوسُفَ؟ قَالَ: أَطْلَقَ تِكَّةَ سَرَاوِيلِهِ، وَقَعَدَ مِنْهَا ذَلِكَ الْمَقْعَدَ، فَمَثُلَ لَهُ يَعْقُوبُ فِي سَقْفِ الْبَيْتِ عَاضًّا عَلَى إِبْهَامِهِ، فَانْتَزَعَ اللَّهُ كُلَّ شَهْوَةٍ كَانَتْ فِي جَسَدِهِ فَخَرَجَ يَسْعَى إِلَى بَابِ الْبَيْتِ "

وفي رواية أخرى فَأَدْبَرَ هَارِبًا، قَالَ: وَحَقِّكَ يَا أَبِي، لا أَعُودُ أَبَدًا " والله يخجل المرء وهو يكتب هذا التفسير الخبيث، و الأعجب من هذا زعموا أنه رأى آيات من القرآن الكريم في السقف؟؟

عَنْ أَبِي صَخْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْقُرَظِيَّ، يَقُولُ: " فِي الْبُرْهَانِ الَّذِي رَأَى يُوسُفُ: ثَلاثُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ }، وَقَوْلُهُ: { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ }، وَقَوْلُهُ: { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ }"، قَالَ نَافِعٌ: سَمِعْتُ أَبَا هِلالٍ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِ الْقُرَظِيِّ، وَزَادَ آيَةً رَابِعَةً: { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى }.

فماذا بقي من العصمة بعد أن جلس بين فخذيها، وخلع سرواله؟

ولم تكن هناك حاجة أصلا لهذا التفسير الوقح الطاعن في عصمة النبي أو غيره من التفاسير لأن الآيات واضحة أصلا، فهي راودته عن نفسه: {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}

وماذا فعل وقال لها يوسف: { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}

وقال أيضا: { {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}

- استمرار الطعن في النبي يوسف: عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: " لَمَّا جَمَعَ الْمَلِكُ النِّسْوَةَ فَسَأَلَهُنَّ: هَلْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟فقُلْنَ {حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} الآية، قَالَ يُوسُفُ: { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}، قَالَ: فَقَالَ لَهُ جِبريلُ: وَلا يَوْمَ هَمَمْتَ بِمَا هَمَمْتَ؟ فَقَالَ:{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}" و في رواية أخرى فَغَمَزَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: وَلا حين هَمَمْتَ بِمَا ؟ فَقَالَ يوسف:{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}"

10- قصة يأجوج و مأجوج: قال تعالى: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}

أخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ طَاهِرٍ، نا أَبُو عَمْرِو بْنُ مَطَرٍ، أنا جَعْفَرُ بْنُ الْمُسْتَفَاضِ، نا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُصَفَّى، نا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، قَالَ: يَأْجُوجُ أُمَّةٌ، وَمَأْجُوجُ أُمَّةٌ، كُلُّ أُمَّةٍ أَرْبَعُ مِائَةِ أُمَّةٍ، لا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى أَلْفِ ذَكَرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ صُلْبِهِ، كُلٌّ قَدْ حَمَلَ السِّلاحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: هُمْ ثَلاثُ أَصْنَافٍ، صِنْفٌ مِنْهُمْ أَمْثَالُ الأَرُزِّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الأَرُزُّ؟ قَالَ: شَجَرٌ بِالشَّامِ، طُولُ الشَّجَرَةِ عِشْرُونَ وَمِائَةِ ذِرَاعٍ فِي السَّمَاءِ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ طُولُهُ وَعَرْضُهُ سَوَاءٌ ؛ عِشْرُونَ وَمِائَةِ ذِرَاعٍ،

وَهَؤُلاءِ الَّذِينَ لا يَقُومُ لَهُمْ جَبَلٌ، وَلا حَدِيدٌ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ يَفْتَرِشُ أَحَدُهُمْ أُذُنَهُ وَيَلْتَحِفُ بِالأُخْرَى، وَلا يَمُرُّونَ بِفِيلٍ وَلا وَحْشٍ وَلا جَمَلٍ وَلا خِنْزِيرٍ إِلا أَكَلُوهُ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَكَلُوهُ، مُقَدَّمِتَهُمْ بِالشَّامِ، وَسَاقَتُهُمْ بِخُرَاسَانَ، يَشْرَبُونَ أَنْهَارَ الْمَشْرِقِ، وَبُحَيرة طَبَرِيَّةَ" لا يمكن لعاقل أن يصدق هذه الأساطير أو يقبلها، ولو كانت منسوبة لتابعي أو أحد مفسري العصر لخفت المصيبة، لكن أن ينسب هذا إلى النبي عليه السلام، أرجح الناس عقلا و فكرا وواقعية و تنسب إليه الخرافات والأساطير؟؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

11- قصة بلقيس ملكة سبأ: قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

"قال بعضهم إِنَّهَا لَمَّا أَقْبَلَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ، خَافَتِ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَقَالُوا: قَدْ كُنَّا نَلْقَى مِنْ سُلَيْمَانَ مِنَ السُّخْرَةِ مَا نَلْقَى، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَقْلُ هَذِهِ وَتَدْبِيرُهَا مَعَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَنُبُوَّتِهِ؟ مَعَ أَنَّ أُمَّهَا كَانَتْ مِنَ الْجِنِّ، الآنَ حِينَ هَلَكْتُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَنَا أَصْرِفُ سُلَيْمَانَ عَنْهَا حَتَّى لا يَتَزَوَّجَهَا، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ تَلِدْ جِنِّيَّةٌ قَطُّ مِنْ إِنْسِيٍّ إِلا كَانَ أَحَدُ رِجْلَيْهَا رِجْلَ حِمَارٍ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي نَفْسِ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ يُحِبُّ كُلَّ مَا وَافَقَ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَنَا أَعْمَلُ لَكَ شَيْئًا تَرَى ذَلِكَ مِنْهَا، فَعَمِلَ الصَّرْحَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةَ مَاءٍ فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، فَرَأَى سُلَيْمَانُ قَدَمَيْهَا قَدَمَيْ إِنْسَانٍ، وَرَأَى عَلَى سَاقَيْهَا شَعْرًا كَثِيرًا، فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْجِنِّيُّ الَّذِي كَانَ يُحِبُّ كُلَّ مَا يُوَافِقُ سُلَيْمَانَ: أَنَا أَعْمَلُ لَكَ مَا يَذْهَبُ بِهِ ذَلِكَ الشَّعْرُ، فَعَمِلَ النَّوْرَةَ وَالْحَمَّامَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا عَمِلَ الْحَمَّامُ وَالنَّوْرَةُ"

وهذا كذب ظاهر، كأن النورة والحمام لم يكونا إلا لها، وكأن سليمان عليه السلام لم يكن له هم إلا إزالة شعر ساقيها.

12- قصة داود: قال تعالى {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) }

- قَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ: وَحَدَّثَنِي خَلِيفَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ دَاوُدَ حَدَّثَ نَفْسَهُ إِنِ ابْتُلِيَ أَنْ يَعْتَصِمَ، فَقِيلَ لَهُ: " إِنَّكَ سَتُبْتَلَى وَتَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي تُبْتَلَى فِيهِ فَخُذْ حِذْرَكَ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تُبْتَلَى فِيهِ، فَأَخَذَ الزَّبُورَ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ وَأَغْلَقَ بَابَ الْمِحْرَابِ وَأَقْعَدَ مَنْصَفًا عَلَى الْبَابِ وَقَالَ: لَا تَأْذَنْ لِأَحَدٍ عَلَيَّ الْيَوْمَ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ الزَّبُورَ إِذْ جَاءَ طَائِرٌ مُذَهَّبٌ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ الطَّيْرُ، فِيهِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، فَجَعَلَ يَدْرُجُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَنَا مِنْهُ، فَأَمْكَنَ أَنْ يَأْخُذَهُ، فَتَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ لِيَأْخُذَهُ، فَاسْتَوْفَزَهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَأَطْبَقَ الزَّبُورَ وَقَامَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَطَارَ فَوَقَعَ عَلَى كُوَّةِ الْمِحْرَابِ، فَدَنَا مِنْهُ أَيْضًا لِيَأْخُذَهُ فَوَقَعَ عَلَى خُصٍّ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ لِيَنْظُرَ أَيْنَ وَقَعَ، فَإِذَا هُوَ بِالْمَرْأَةِ عِنْدَ بِرْكَتِهَا تَغْتَسِلُ مِنَ الْمَحِيضِ، فَلَمَّا رَأَتْ ظِلَّهُ حَرَّكَتْ رَأْسَهَا فَغَطَّتْ جَسَدَهَا بِشَعْرِهَا، فَقَالَ دَاوُدُ لِلْمَنْصَفِ: اذْهَبْ فَقُلْ لِفُلَانَةَ، تَجِيءُ، فَأَتَاهَا فَقَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يَدْعُوكِ، فَقَالَتْ: مَا لِي وَلِنَبِيِّ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فَلْيَأْتِنِي، أَمَّا أَنَا فَلَا آتِيهِ، فَأَتَاهُ الْمَنْصَفُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِهَا، فَأَتَاهَا: وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ دُونَهُ، فَقَالَتْ: مَا لَكَ يَا دَاوُدُ؟ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا رَجَمْتُمُوهَا وَوَعَظَتْهُ فَرَجَعَ، وَكَانَ زَوْجُهَا غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَتَبَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَمِيرِ الْمَغْزَى: انْظُرْ أُورِيَّا فَاجْعَلْهُ فِي حَمَلَةِ التَّابُوتِ، وَكَانَ حَمَلَةُ التَّابُوتِ إِمَّا أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِمْ وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلُوا فَقَدَّمَهُ فِي حَمَلَةِ التَّابُوتِ، فَقُتِلَ..."

- عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: " إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ قَطَعَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَوْصَى صَاحِبَ الْجَيْشِ، فَقَالَ: إِذَا حَضَرَ الْعَدُوُّ تَضْرِبُ فُلَانًا بَيْنَ يَدَيِ التَّابُوتِ، وَكَانَ التَّابُوتُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يُسْتَنْصَرُ بِهِ مِنْ قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ التَّابُوتِ لَمْ يَرْجِعْ حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يَنْهَزِمَ مِنْهُ الْجَيْشُ فَقُتِلَ، وَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ، وَنَزَلَ الْمَلَكَانِ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَجَدَ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا، حَتَّى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُمُوعِهِ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَكَلَتِ الْأَرْضُ جَبِينَهُ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: رَبِّ، زَلَّ دَاوُدُ زَلَّةً أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، رَبِّ، إِنْ لَمْ تَرْحَمْ ضَعْفَ دَاوُدَ وَتَغْفِرْ ذُنُوبَهُ جُعِلَتْ ذَنْبُهُ حَدِيثًا فِي الْمَخْلُوقِ مِنْ بَعْدِهِ."

13- قصة فتنة النبي سليمان: قال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}

وَبِسَنَدٍ قَوِيٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " أَرَادَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ فَأَعْطَى الْجَرَادَةَ خَاتَمَهُ وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ، وَكَانَتْ أَحَبَّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ لَهَا: هَاتِي خَاتَمِي فَأَعْطَتْهُ، فَلَمَّا لَبِسَهُ دَانَتْ لَهُ الْجِنُّ، وَالْإِنْسُ، وَالشَّيَاطِينُ، فَلَمَّا خَرَجَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْخَلَاءِ، قَالَ: هَاتِي خَاتَمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَعْطَيْتُهُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: أَنَا سُلَيْمَانُ، قَالَتْ: كَذَبْتَ، لَسْتَ سُلَيْمَانَ فَجَعَلَ لَا يَأْتِي أَحَدًا، يَقُولُ: أَنَا سُلَيْمَانُ إِلَّا كَذَّبَهُ حَتَّى جَعَلَ الصِّبْيَانُ يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَقَامَ الشَّيْطَانُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْقَى فِي قُلُوبِ النَّاسِ إِنْكَارَ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى نِسَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالُوا لَهُنَّ: أَيَكُونُ مِنْ سُلَيْمَانَ شَيْءٌ؟ قُلْنَ: نَعَمْ، إِنَّهُ يَأْتِينَا وَنَحْنُ حُيَّضٌ، وَمَا كَانَ يَأْتِينَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ فُطِنَ لَهُ، ظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ قَدِ انْقَطَعَ، فَكَتَبُوا كُتُبًا فِيهَا سِحْرٌ وَمَكْرٌ فَدَفَنُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ، ثُمَّ أَثَارُوهَا وَقَرَءُوهَا عَلَى النَّاسِ، قَالُوا: بِهَذَا كَانَ يَظْهَرُ سُلَيْمَانُ عَلَى النَّاسِ، وَيَغْلِبُهُمْ فَأَكْفَرَ النَّاسُ سُلَيْمَانَ، فَلَمْ يَزَالُوا يُكَفِّرُونَهُ وَبَعَثَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ بِالْخَاتَمِ فطرحه في البحر، فتلقته سمكة فأخذته، وكان سليمان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فَدَعَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: تَحْمِلُ لِي هَذِهِ السَّمَكَةَ؟ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ إِلَى بَابِ دَارِهِ، أَعْطَاهُ تِلْكَ السَّمَكَةَ الَّتِي فِي بَطْنِهَا الْخَاتَمُ فَأَخَذَهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَشَقَّ بَطْنَهَا فَإِذَا الْخَاتَمُ فِي جَوْفِهَا، فَأَخَذَهُ فَلَبِسَهُ فَلَمَّا لَبِسَهُ دَانَتْ لَهُ الْإِنْسُ، وَالْجِنُّ، وَالشَّيَاطِينُ، وَعَادَ إِلَى حَالِهِ، وَهَرَبَ الشَّيْطَانُ حَتَّى لَحِقَ جَزِيرَةً مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي طَلَبِهِ، وَكَانَ شَيْطَانًا مَرِيدًا يَطْلُبُونَهُ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَجَدُوهُ يَوْمًا نَائِمًا، فَجَاءُوا فَنَقَبُوا عَلَيْهِ بُنْيَانًا مِنْ رُصَاصٍ فَاسْتَيْقَظَ، فَوَثَبَ فَجَعَلَ لَا يَثْبُتُ فِي مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا أَنْ دَارَ مَعَهُ الرُّصَاصُ، فَأَخَذُوهُ وَأَوْثَقُوهُ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَمَرَ بِهِ فَنُقِرَ لَهُ فِي رُخَامٍ، ثُمَّ أُدْخِلَ فِي جَوْفِهِ، ثُمَّ سَدَّ بِالنُّحَاسِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:ف وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًاق يَعْنِي الشَّيْطَانَ الَّذِي كَانَ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ "

14- قصة ابتلاء النبي أيوب: قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا

وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)}

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، " أَنَّ الشَّيْطَانَ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: يَا رَبِّ، سَلِّطْنِي عَلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ: " قَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى مَالِهِ وَوَلَدِهِ، وَلَمْ أُسَلِّطْكَ عَلَى جَسَدِهِ "، فَنَزَلَ فَجَمَعَ جُنُودَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ سُلِّطْتُ عَلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَرُونِي سُلْطَانَكُمْ، فَصَارُوا نِيرَانًا، ثُمَّ صَارُوا مَاءً، فَبَيْنَمَا هُمْ بِالْمَشْرِقِ إِذَا هُمْ بِالْمَغْرِبِ، وَبَيْنَمَا هُمْ بِالْمَغْرِبِ إِذَا هُمْ بِالْمَشْرِقِ، فَأَرْسَلَ طَائِفَةً مِنْهُمْ إِلَى زَرْعِهِ، وَطَائِفَةً إِلَى أَهْلِهِ، وَطَائِفَةً إِلَى بَقَرِهِ، وَطَائِفَةً إِلَى غَنَمِهِ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَعْتَصِمُ مِنْكُمْ إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ، فَأْتُوهُ بِالْمَصَائِبِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَجَاءَ صَاحِبُ الزَّرْعِ، فَقَالَ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ أَرْسَلَ عَلَى زَرْعِكَ عَدُوًّا فَذَهَبَ بِهِ؟ وَجَاءَ صَاحِبُ الْإِبِلِ فَقَالَ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ أَرْسَلَ عَلَى بَقَرِكَ عَدُوًّا فَذَهَبَ بِهِ؟ وَتَفَرَّدَ هُوَ بِبَنِيهِ جَمْعَهُمْ فِي أَكْبَرِهِمْ، فبينما هُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ فَأَخَذَتْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ، فَأَلْقَتْهُ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ إِلَى أَيُّوبَ بِصُورَةِ غُلَامٍ، فَقَالَ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ جَمَعَ بَنِيكَ فِي بَيْتِ أَكْبَرِهِمْ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ فَأَخَذَتْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ فَأَلْقَتْهُ عَلَيْهِمْ، فَلَو رَأَيْتَهُمْ حِينَ اخْتَلَطَتْ دِمَاؤُهُمْ وَلُحُومُهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، فقال لَهُ أَيُّوبُ: أَنْتَ الشَّيْطَانُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنَا الْيَوْمَ كَيُومِ وَلَدَتْنِي أُمِّي، فَقَامَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ وَقَامَ يُصَلِّي، فَرَنَّ إِبْلِيسُ رَنَّةً سَمِعَ بِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، إِنَّهُ قَدِ اعْتَصَمَ فَسَلِّطْنِي عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُهُ إِلَّا بِسُلْطَانِكَ، قَالَ: " قَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى جَسَدِهِ، وَلَمْ أُسَلِّطْكَ عَلَى قَلْبِهِ "، فَنَزَلَ فَنَفَخَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ نَفْخَةً قَرَحَ مَا بَيْنَ قَدَمَيْهِ إِلَى قَرْنِهِ فَصَارَ قَرْحَةً وَاحِدَةً، وَأُلْقِيَ عَلَى الرَّمَادِ حَتَّى بَدَا حِجَابُ قَلْبِهِ، فَكَانَتِ امْرَأَتُهُ تَسْعَى إِلَيْهِ حَتَّى قَالَتْ لَهُ: أَمَا تَرَى يَا أَيُّوبُ؟ نَزَلَ بِي وَاللَّهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْفَاقَةِ مَا إِنْ بِعَتُ قُرُونِي بِرَغِيفٍ فَأُطْعِمُكَ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكَ وَيُرِيحَكَ، قَالَ: وَيْحَكِ ! كُنَّا فِي النَّعِيمِ سَبْعِينَ عَامًا فَاصْبِرِي حَتَّى نَكُونَ فِي الضُّرِّ سَبْعِينَ عَامًا، فَكَانَ فِي الْبَلَاءِ سَبْعَ سِنِينَ وَدَعَا، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمًا فَأَخَذَ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: قُمْ، فَقَامَ فَنَحَّاهُ عَنْ مَكَانِهِ، وَقَالَ:{ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ }، فَرَكَضَ بِرِجْلِهِ فَنَبَعَتْ عَيْنٌ، فَقَالَ: اغْتَسِلْ مِنْهَا، ثُمَّ جَاءَ أَيْضًا، فَقَالَ: { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ } فَنَبَعَتْ عَيْنٌ أُخْرَى، فَقَالَ لَهُ: اشْرَبْ مِنْهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ:{ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} وَأَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى حُلَّةً مِنَ الْجَنَّةِ، فَتَنَحَّى أَيُّوبُ فَجَلَسَ فِي نَاحِيَةٍ

وَجَاءَتُ امْرَأَتُهُ فَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَيْنَ الْمُبْتَلَى الَّذِي كَانَ هَاهُنَا؟ لَعَلَّ الْكِلَابَ ذَهَبَتْ بِهِ وَالذِّئَابَ، وَجَعَلَتْ تُكَلِّمُهُ سَاعَةً فَقَالَ: وَيْحَكِ ! أَنَا أَيُّوبُ قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ جَسَدِي، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَالَهُ وَوَلَدَهُ عَيَانًا{ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَأْخُذُ الْجَرَادَ بِيَدِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ فِي ثَوْبِهِ وَيَنْشُرُ كِسَاءَهُ فَيُجَعَلُ فِيهِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: " يَا أَيُّوبُ، أَمَا شَبِعْتَ؟ "، قَالَ: يَا رَبِّ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْبَعُ مِنْ فَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ "

15- تفسير آية وما يتعلق بخلق الشمس والقمر: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}

عن ابن عباس قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَبْرَمَ خَلْقَهُ إِحْكَامًا فَلَمْ يَبْقَ مِنْ خَلْقِهِ غَيْرُ آدَمَ، خَلَقَ شَمْسَيْنِ مِنْ نُورِ عَرْشِهِ، فَأَمَّا مَا كَانَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ أَنَّهُ يَدَعُهَا شَمْسًا، فَإِنَّهُ خَلَقَهَا مِثْلَ الدُّنْيَا مَا بَيْنَ مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا، وَأَمَّا مَا كَانَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ أَنَّهُ يَطْمِسُهَا وَيُحَوِّلُهَا قَمَرًا فَإِنَّهُ دُونَ الشَّمْسِ فِي الْعِظَمِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يُرَى صِغَرُهُمَا مِنْ شِدَّةِ ارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَبُعْدِهَا مِنَ الأَرْضِ. قَالَ: فَلَوْ تَرَكَ اللَّهُ الشَّمْسَيْنِ كَمَا كَانَ خَلَقَهُمَا فِي بَدْءِ الأَمْرِ، لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ وَلا النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، وَكَانَ لا يَدْرِي الأَجِيرُ إِلَى مَتَى يَعْمَلُ وَمَتَى يَأْخُذُ أَجْرَهُ وَلا يَدْرِي الصَّائِمُ إِلَى مَتَى يَصُومُ، وَلا تَدْرِي الْمَرْأَةُ كَيْفَ تَعْتَدُّ، وَلا يَدْرِي الْمُسْلِمُونَ مَتَى وَقْتُ الْحَجِّ، وَلا يَدْرِي الدُّيَّانُ مَتَى تَحِلُّ دُيُونُهُمْ، وَلا يَدْرِي النَّاسُ مَتَى يَنْصَرِفُونَ لِمَعَايِشِهِمْ، وَمَتَى يَسْكُنُونَ لِرَاحَةِ أَجْسَادِهِمْ، وَكَانَ الرَّبُّ أَنْظَرَ لِعِبَادِهِ وَأَرْحَمَ بِهِمْ، فَأَرْسَلَ جِبرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَأَمَرَّ جِنَاحه على وجه القمر وهو يومئذ شمس ثلاث مرات، فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله:{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، قال: فالسواد الذي ترونه في القمر شبه الخطوط فيه فهو أثر المحو."

16- ذرية إبليس: قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}

قال مجاهد: إن كيفية وجود النسب منه أنه أدخل فرجه في فرج نفسه فباض خمس بيضات: قال: فهذا أصل ذريته، وقال بعض أهل العلم: إن الله تعالى خلق له في فخده اليمنى ذكرا، وفي اليسرى فرجا ، فهو ينكح هذا بهذا فيخرج له كل يوم عشر بيضات، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة.

وهذا غيض من فيض، لم تكتفي هذه التفسيرات من انتقاص الأنبياء و نحر العقل فقط، بل فرغت القرآن من جوهره وقزمته، فلا أعرف حقا كيف لم يتفطن المفسرون لهذه الخرافات التي يستطيع أي شخص ليس باحثا أو متخصصا في الدين أن يعرف أن هذه التفسيرات الخرافية مجرد هراء و يستحيل أن تصدر إنسان مشهور بالثقافة و الرزانة أو فيلسوفا كبيرا فما بالك من أن تصدر من رسول الله أو مفسر كابن عباس؟

فنصف هذه التفسيرات بشهادة شيوخهم كلام فارغ، أحمد: ثلاث كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير، وقال السيوطي حول هذه التفاسير: الذي صح من ذلك قليل جدا، وقد ورد عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى، وقد قال الشافعي: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث، وقال أحمد: تفسير الكلبي من أوله إلى آخره كذب، وسئل وكيع عن تفسير مقاتل، فقال لا تنظر فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه، فإن كان هذا كلام شيوخهم فلا أدري لما يستغربون هذا من شيخنا النظّام؟ وهو عندي أعلم من كل علمائهم، بينه وبينهم سنوات ضوئية.

بعض تفسيرات النظّام وتأويله :

قصة الفيل:

قال الجاحظ: كان منكه المتطبّب الهنديّ صحيح الإسلام، وكان إسلامه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبّت، قالوا: فسمع مرّة من رجل وهو يقرأ: أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وسمع بعض الجهال يقول: فكيف لو رأى الفيل؟ فعذله قوم، فقال منكه: لا تعذلوه فإنّه لا شكّ أنّ خلق الفيل أعجب، فقيل له: فكيف لم يضرب به الله تعالى المثل دون البعير؟ فقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام، فقلت له: ليس الفيل بأعجب من البعير. واجعله يعجّب من البعير. وهو إنما خاطب العرب، وهم الحجة على جميع أهل اللغات، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الأمم بعد الترجمة على ألسنة هؤلاء العرب، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الأمم. وكيف يجوز أن يعجّب جماعة الأمم من شيء لم يروه قطّ، ولا كان على ظهرها يوم

نزلت هذه السورة رجل واحد كان قد شهد الفيل والحبشة. وعلى أنّ الفيل وافى مكّة وما بها أحد إلّا عبد المطلب في نفير من بقيّة النّاس، ولا كانوا حيث يتأمّلون الفيل.[77]

تأويل النظّام لآيات الأعراف وتحريم قتل الكلب:

لما قال معبد في قتل الكلب، وتلا قول الله عزّ وجلّ: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ، قال أبو إسحاق: وإن كنت إنّما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلّة، فقد قال على نسق هذا الكلام: وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام.

وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الذمّ فإنّك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبّعت ما عليها.[78]

النبي سليمان والنملة:

وقرأ أبو إسحاق قوله عز وجلّ: وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ، فقال : كان ذلك الوادي معروفا بوادي النمل، فكأنّه كان حمى. وكيف ننكر أن يكون حمى؟! والنّمل ربّما أجلت أمّة من الأمم عن بلادهم.

ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شعيركم عجب، وأرزكم عجب، وسمككم عجب، وجداؤكم عجب، وبطّكم عجب، ودجاجكم عجب، فلو كانت لكم أعناب! فقالوا: كلّ أرض كثيرة النّمل لا تصلح فيها الأعناب. ثمّ قرأ: قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ فجعل تلك الجحرة مساكن. والعرب تسميها كذلك ثمّ قال: لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ فجمعت من اسمه وعينه، وعرفت الجند من قائد الجند، ثم قالت: وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فكانوا معذورين، وكنتم ملومين، وكان أشدّ عليكم. فلذلك قال: فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها لما رأى من بعد غورها وتسديدها، ومعرفتها. فعند ذلك قال: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ

[77] حيوان 7 ص 127
[78] الحيوان ج1 ص 238

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ[79]

قول أبي إسحاق في آية الضفادع:

وقرأ بعض أصحابنا بحضرة أبي إسحاق: وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ

فقال رجل لأبي إسحاق: انظر كيف قرن الضفادع مع ضعفها إلى الطوفان، مع قوة الطوفان وغلبته.
قال أبو إسحاق: الضفادع أعجب في هذا الموضع من الطوفان، وإذا أراد الله تعالى أن يصيّر الضفادع أضرّ من الطوفان فعل.[80]

إعجاز القرآن عند شيخنا النظّام:

يتفق اكثر اهل القبلة أن وجه اعجاز القرآن الفصاحة والنظم، وقد خالف هذا عدة من العلماء، كابن المرتضى وغيره، وعلى رأسهم النظّام، وهذا الأخير هو أولهم، إذن الثابت أنهم اختلفوا في وجه الاعجاز لكن هم متفقين على انه معجز، وهذا الاختلاف بسيط لا يفسد للود قضية كونهم متفقين ان هذا القرآن معجز، وننقل كلام جميل قاله الامام ابن المرتضى عليه اسلام ونتبرّك بدرره حيث قال: الحمد لله الذي جعل اختلاف مذاهب المختلفين في وجه الإعجاز (وإن تفرعت وتنوعت) فالقرآن غير خارج عن بينها أن يكون معجزا للبرية، وعلما على النبوة، وجعل ما يتردد بينهم فيه من المسائل والجوابات (وإن قدحت في صحة بعض مذاهبهم في تفصيل الاعجاز) فإنها غير قادحة في أصل الاعجاز وجملة الدلالة، لأنه لا فرق بين أن يكون خارقا للعادة بفصاحته دون طريقة نظمه، أو بنظمه دون فصاحته، أو يكون متضمنا للإخبار عن الغيوب، أو بأن يكون الله صرف عنه العرب وسلبهم العلم به، في أنه على الوجوه كلها معجز دال على النبوة وصدق الدعوة، وان اختلف وجه دلالته بحسب اختلاف الطرق.[81]
وأقول وبالله التوفيق: بعد الاطلاع على ما نقل عن شيخنا النظّام من عدة مصادر أقول: إن شيخنا ابراهيم النظّام رضي الله عنه يرى أن القرآن حجة للنبي عليه الصلاة والسلام لنبوته، ووجه اعجازه من ثلاثة أوجه: الوجه الأول هو الصرفة، والثاني اخباره بالغيوب، والثالث اخباره بما في نفوس القوم وبما

[79] الحيوان ج4 ص 267
[80] الحيوان ج5 ص 300
[81] الموضح عن جهة اعجاز القرآن (الصرفة) لشيخنا ابن المرتضى عليه السلام ص 45

سيقولونه (ويمكن دمج الوجه الثالث مع الثاني)، وهذا الذي ثبت عندي، فهناك من يقول ان النظّام يرى وجه اعجازه من وجه واحد، من الصرفة كما نقل هذا عنه جل المعتزلة والزيدية، وهناك من يقول الوجهان الثاني والثالث فقط كما نقل لنا الخياط في الانتصار، وقال صاحب البحر الزخار أن النظّام يقول بالصرفة وقيل بإخباره بالغيب، وهذا مما يثبت لنا أن النظام كان يقول أن وجه اعجازه عدة أوجه، وهذا كلام سليم، أي اعجاز القرآن ليس من وجه واحد فقط وانما من عدة أوجه، وفي الحديث عن آراء شيخنا النظّام حول الاعجاز ننقل ما نقل عنه، ونبدأ بقول الإمام أحمد بن يحي المرتضى(عليه السلام) حيث قال: قال النَّظَّامُ : بَلْ صَرْفُهُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَقِيلَ الْإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ.[82] ، وقال الخياط في الانتصار: اعلم –علّمك الله الخير- أن القرآن حجة للنبي عليه السلام على نبوته عند ابراهيم من غير وجه فأحدها الاخبار عن الغيوب ثم استدلّ بآيات الى أن قال: ومثل اخباره بما في نفوس القوم وبما سيقولونه وهذا وما أشبهه في القرآن كثير.[83]، وقال أبو القاسم البلخي في كتاب المقالات في حديثه عن النظّام ومما تفرد به: وأن الحجة في القرآن إنما هو ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا النظم والتأليف، لأن النظم عنده مقدور عليه لولا أن الله منع منه.[84]

الصرفة:

يقول شيخنا أبو الحسن الرماني المعتزلي: وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة , وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة , وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول.[85]

إن الصرفة هنا عند شيخنا النظّام هي "أن الله تعالى أراد أن يثبت أن القرآن منزّل من عنده وليس من اصطناع البشر، فصدّ العرب عن معارضته ودفعهم عن مجاراته، أي أنه منعهم منعا قهريا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وصرفهم عنه صرفا مقصودا يدركون معه أنهم معجزون أمامه، على الرغم من وفرة قدراتهم البيانية وبراعتهم في القول"[86]، لأن النظم عنده مقدور عليه لولا أن الله منع منه، وهنا نرى

---

[82] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج1 ص 122
[83] الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد للخياط ص 28
[84] فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 14
[85] النكت في إعجاز القرآن ص 110
[86] الموضح عن جهة اعجاز القرآن (الصرفة) لشيخنا ابن المرتضى عليه السلام ص 12

جانبا اخر اسيء فهمه وهو أن شيخنا النظّام لا ينكر بلاغة القرآن، فهو يقول أنه ذو بلاغة لكن البشر يقدرون على قول مثله لولا أن الله منع منه، فالذي يقول عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه محنة للمتكلم ، إن وفى حقه غلى ، و إن بخسه حقه أساء ، و المنزلة الوسطى دقيقة الوزن ، حادة اللسان ، صعبة الترقي إلا على الحاذق الذكي[87] ويقول يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة[88]، قطعا يقول ببلاغة القرآن الا انه يقول انها مقدور عليها لولا منع الله وهنا نقطة خلافه مع اصحاب الاعجاز البلاغي، فحتى شيخنا الجاحظ مع نصرته لمذهب تفوق النظم القرآني وبلاغته وردّه على أصحاب النظّام إلا أن له رأي أخر، حيث قال: فكتبت لك كتاباً، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة.[89]، إلا أننا نجد أن الجاحظ يميل للقول بالصرفة أحيانا كما صرح في كتابه الحيوان حيث قال في ردّه على الدهرية:

وكذلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التّيه، فقد كانوا أمّة من الأمم يتكسّعون أربعين عاما، في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى المخرج. وما كانت بلاد التّيه إلّا من ملاعبهم ومنتزهاتهم. ولا يعدم مثل ذلك العسكر الأدلّاء والجمّالين، والمكارين، والفيوج، والرّسل، والتّجار. ولكنّ الله صرف أوهامهم، ورفع ذلك الفصل من صدورهم ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه. ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه. ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصّة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنّساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال.[90]

---

[87] سفينة البحار للشيخ عباس القمي ج1 ص146

[88] فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي ج2 ص 226

[89] رسائل الجاحظ ج3 ص 287

[90] حيوان ج4 ص 307/303

وقوله: فإنّا نقول بالصّرفة في عامّة هذه الأصول. وفي هذه الأبواب، كنحو ما ألقي على قلوب بني إسرائيل وهم يجولون في التّيه، وهم في العدد وفي كثرة الأدلّاء والتجّار وأصحاب الأسفار، والحمّارين والمكارين، من الكثرة على ما قد سمعتم به وعرفتموه؛ وهم مع هذا يمشون حتّى يصبحوا، مع شدّة الاجتهاد في الدّهر الطويل، ومع قرب ما بين طرفي التّيه. وقد كان طريقا مسلوكا. وإنّما سمّوه التّيه حين تاهوا فيه، لأنّ الله تعالى حين أراد أن يمتحنهم ويبتليهم صرف أوهامهم.

ومثل ذلك صنيعه في أوهام الأمة التي كان سليمان ملكها ونبيّها، مع تسخير الريح والأعاجيب التي أعطيها. وليس بينهم وبين ملكهم ومملكتهم وبين ملك سبأ ومملكة بلقيس ملكتهم بحار لا تركب، وجبال لا ترام. ولم يتسامع أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكان هذه الملكة.

وقد قلنا في باب القول في الهدهد ما قلنا ، حين ذكرنا الصّرفة، وذكرنا حال يعقوب ويوسف وحال سليمان وهو معتمد على عصاه، وهو ميّت والجنّ مطيفة به وهم لا يشعرون بموته، وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا ولا ملفّقا ولا مستكرها؛ إذا كان في ذلك لأهل الشّغب متعلّق، مع غير ذلك، ممّا يخالف فيه طريق الدّهريّة، لأنّ الدّهريّ لا يقر إلّا بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب.[91]

إذن الصرفة عند شيخنا النظّام: أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، أو عن القدرة على الإتيان بمثله، فانصرفوا عن ذلك، وتعذرت عليهم المعارضة، رغم وفرة قدراتهم البيانية وبراعتهم في القول، وصرف الله دواعيهم قهرا، والمراد من نظرية النظّام هنا هو أن الله صرفهم لكي يدركوا أنهم معجزون أمامه، كونهم كانوا يقولون أنه من كيس محمد صلوات الله وسلامه عليه، كأن الله يقول لهم: أنتم تقولون أن هذا الكلام مصدره محمد بن عبد الله، سأصرف عنكم معارضته والاتيان بمثله رغم بلاغتكم وفصاحتكم، فلو قدرتم اثبتم رأيكم وإن لم تقدروا ولن تقدروا فثبت أنه كلام منزل من رب العالمين.

[91] حيوان ج6 ص 455

أدلة القول بالصرفة:

أ- مملكة سبأ وملك سليمان: كان لسليمان ملك عظيم من تسخير الرياح والجن والمخلوقات ومع هذا لم يتفطن لمملكة كانت قريبة من ملكه، وقد أشار إلى هذا شيخنا الجاحظ حيث قال: ثمّ طعن في ملك سليمان ومملكة سبإ، ناس من الدّهريّة، وقالوا: زعمتم أنّ سليمان سأل ربّه فقال: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي

وأنّ الله تعالى أعطاه ذلك، فملّكه على الجنّ فضلا عن الإنس، وعلّمه منطق الطّير، وسخّر له الرّيح، فكانت الجنّ له خولا، والرّياح له مسخرة ثمّ زعمتم- وهو إمّا بالشّام وإمّا بسواد العراق- أنّه لا يعرف باليمن ملكة هذه صفتها. وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة، لا يخفى عليهم صاحب الخزر، ولا صاحب الروم، ولا صاحب الترك، ولا صاحب النّوبة، وكيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة، مع قرب دارها واتّصال بلادها! وليس دونها بحار ولا أوعار؛ والطريق نهج للخفّ والحافر والقدم.

فكيف والجنّ والإنس طوع يمينه. ولو كان، حين خبّره الهدهد بمكانها، أضرب عنها صفحا، لكان لقائل أن يقول: ما أتاه الهدهد إلّا بأمر يعرفه. فهذا وما أشبهه دليل على فساد أخباركم.

قلنا: إنّ الدّنيا إذا خلّاها الله وتدبير أهلها، ومجاري أمورها وعاداتها كان لعمري كما تقولون. ونحن نزعم أنّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان أنبه أهل زمانه؛ لأنّه نبيّ ابن نبيّ، وكان يوسف وزير ملك مصر من التّباهة بالموضع الذي لا يدفع، وله البرد، وإليه يرجع جواب الأخبار، ثمّ لم يعرف يعقوب مكان يوسف، ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام- دهرا من الدّهور، مع التّباهة، والقدرة، واتّصال الدار.[92]

ب- موسى بن عمران ومن كان معه: وكذلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التّيه، فقد كانوا أمّة من الأمم يتكسّعون أربعين عاما، في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى المخرج. وما كانت بلاد التّيه إلّا من ملاعبهم ومنتزهاتهم. ولا يعدم مثل ذلك العسكر الأدلّاء والجمّالين، والمكارين، والفيوج ، والرّسل، والتّجار. ولكنّ الله صرف أوهامهم، ورفع ذلك الفصل من صدورهم.[93]

---

[92] حيوان ج4 ص 304
[93] حيوان ج4 ص 304

ج- الشياطين واستراقهم السمع: وكذلك القول في الشّياطين الذين يسترقون السّمع في كلّ ليلة، فنقول: إنّهم لو كان كلما أراد مريد منهم أن يصعد ذكر أنّه قد رجم صاحبه، وأنّه كذلك منذ كان لم يصل معه أحد إلى استراق السّمع، كان محالا أن يروم ذلك أحد منهم مع الذّكر والعيان.

ومثل ذلك أنّا قد علمنا أنّ إبليس لا يزال عاصيا إلى يوم البعث. ولو كان إبليس في حال المعصية ذاكرا لإخبار الله تعالى أنّه لا يزال عاصيا وهو يعلم أنّ خبره صدق، كان محالا أن تدعوه نفسه إلى الإيمان، ويطمع في ذلك، مع تصديقه بأنّه لا يختار الإيمان أبدا.

ومن المحال أن يجمع بين وجود الاستطاعة وعدم الدّواعي وجواز الفعل.

ولو أنّ رجلا علم يقينا أنّه لا يخرج من بيته يومه ذلك، كان محالا أن تدعوه نفسه إلى الخروج، مع علمه بأنّه لا يفعل. ولكنّ إبليس لما كان مصروف القلب عن ذكر ذلك الخبر، دخل في حدّ المستطيعين.[94]

د- صرف الله الصحابة لتحمل مشقة القتال:

ومثل ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا بشره الله بالظّفر وتمام الأمر بشرّ أصحابه بالنّصر، ونزول الملائكة. ولو كانوا لذلك ذاكرين في كلّ حال، لم يكن عليهم من المحاربة مؤونة. وإذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجروا. ولكنّ الله تعالى بنظره إليهم رفع ذلك في كثير من الحالات عن أوهامهم؛ ليحتملوا مشقّة القتال، وهم لا يعلمون:

أيغلبون أم يغلبون؛ أو يقتلون أم يقتلون.[95]

هـ - صرف الله الجن في قصة موت سليمان: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}، ونحن دون الشّياطين والجنّ في صدق الحسّ، ونفوذ البصر. ولو كنّا من بعض الموتى بهذا المكان، لما خفي علينا أمره وكان أدنى ذلك أن نظنّ ونرتاب.

ومتى ارتاب قوم وظنّوا وماجوا وتكلموا وشاوروا، لقنوا وثبّتوا. ولا سيّما إذا كانوا في العذاب ورأوا تباشير الفرج.

---

[94] حيوان ج4 ص 304

[95] حيوان ج4 ص 305

ولولا الصّرفة. التي يلقيها الله تعالى على قلب من أحبّ، ولولا أنّ الله يقدر على أن يشغل الأوهام كيف شاء، ويذكّر بما يشاء، وينسّي ما يشاء، لما اجتمع أهل داره وقصره، وسوره وربضه، وخاصّته، ومن يخدمه من الجنّ والإنس والشّياطين، على الإطباق بأنّه حيّ.[96]

فصل

وقد انتصر لهذا الرأي إمام الأشاعرة الجويني فقال: وقد أكثر الناس في وجه اعجاز القرآن ، وتقطعوا فيه أيادي سبأ ، وصار معظم الناس الى أن القرآن تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة ، خارج عن المعتاد في ذلك ، ثم زعم زاعمون : أن اعجازه في شرف جزالته ... وذهب آخرون :الى أن اعجازه في الجزالة الفائقة ، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر ، والخطب ، والأراجيز، وهذا الموقف تاه في الأولون والأخرون، وأنا بعون الله تعالى وبحسن توفيقه أبين آتي فيه بمسلك الحق وأبين عن واضح الوجوه اندفاع تمويهات الزائغين وانتفاض مطاعن المبطلين، فليعلم المشتهى الى ذلك: من رام أن يثبت اعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات ، مجاوز لفصاحة اللدد البلغاء ، واللسن الفصحاء ، فقد حاد عن مدرك الحق ، فان من تأمل كلام العرب في نظمها ونثرها ، لم يتحقق عنده انتهاء جزالة القرآن الى حد الخروج عن العادة في الزيادة على كلام الفصحاء ، ومن تكلف اثبات ذلك ، فقد تكلف شططا ، وظن غلطا ، وتهدف للكلام الطويل من غير تحصيل ، ومن أنصف وانتصف ولم يتعسف ، لم يلح له أن شعر امرىء القيس ، والذبياني ، والجعدي ، وزهير ، وأعشى باهلة ، والمعلقات السبع ، وغيرها من أشعار المفلقين ، تقصر في الجزالة عن القرآن ثم من بديع ما أنبه عليه سامي رأي مولانا: أنه لو ظهرت زيادة في ترقي القرآن عن مراتب الكلام فليس فيه مقنع. فإنه قد يتفق في بعض الأعصار رجل قد فرد في شعر أو نثر لا يد رك شأوه، و لا يلحق منصبه في

الفصاحة. و قل ما يخلو عصر عن مبرز لا يوازى في فنه و لا يبارى فيما اختص به و لا يثبت الإعجاز بمثل ذلك. و قد قدمنا أنا نشترط في المعجزة أن يجاوز في خرق العادة حدود الظنون، و يبلغ مبلغا لا يتوقع الانتهاء إليه بمزية علم، و جودة قريحة، و نفاذ طبع. و ثقابة رأي، و إصابة فكر، و بعد غور، و إذا

[96] حيوان ج4 ص 306

تقرر ذلك. فالوجه أن لا يدعي جزالة القرآن مبلغ خرق العادة، بل نقول: تحدى الرسول صلى الله عليه و سلم فصحاء العرب بأن يأتوا بمثل القرآن كما أنبأ عنه قوله تبارك و تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.

و تمادى على تحديه نيفا و عشرين سنة. و القرآن بلغتهم و ليس بعيدا عن مبلغ اقتدارهم في جزالته و أسلوبه، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، ثم استأثر الله تبارك و تعالى لرسوله صلى الله عليه و سلم، و كرت الدهور، و مرت العصور، و أقطار الأرض تطفح بجميع الكفار، ذوي الفطن النافذة، و شوقهم أن يتمكنوا من مطعن في الإسلام.

و في كل قطر منهم طائفة مشتغلون بالنظم و النثر على لغة العرب، فقصرت قدر الخلق عن المعارضة في أربعمائة و ستين سنة و نيف، فتبين قطعا:

أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم و ذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها، و من هدي لهذا المسلك: فقد رشد إلى الحق المنير، و انعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا فإنهم تارة يدعون سقوط القرآن عن رتبة الجزالة و ولوجه في الركيك، و تارة يسلمون شرف الجزالة. ويدعون أنه غير خارق للمادة. و كيف تصرفت أسئلتهم فصرف الله الخلق عن الإتيان بمثله أوقع و أبجع.

إذ الكلام كل ما كان أقرب مأخذا، و أبعد عن الغاية القصوى، كان أحرى أن يبتدر إلى معارضته، فإذا لم تجر المعارضة، لم يبق لامتناعها، مع توفر الدواعي عليها، محمل إلا صرف الله الخلق. و هذا يشابه ما لو قام النبي وقال: آيتي أنه يمتنع القيام الآن على الخلق مع اقتدارهم عليه من غير زمانه و عجز. فكيف يهتدي حرس الله –

مولانا إلى إعجاز القرآن، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة، و شفاء الصدور في الحكم فإن – مثله من مقدورات الخلق: و لكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم.

و هذا الفصل من أنفس ما يجري به خاطر. و هو خاتمة العقيدة في المآخذ العقلية. فهذا بالغ جدا، و هو عندي

أبلغ من قلب العصا حية و نحوه. فإنه قد يسبق مبادر إلى أنه من اختصاص صاحبه، بمزايا في العلوم إلى أن يرده. سداد الفكر، و إنما يجري الخلائق خمسمائة سنة، كلام مماثل لكلامهم، قد بلغه رجل أمي لم يعان العلوم و لم يدارس أهلها. و لا محمل له إلا صرف الله تبارك و تعالى و منعه الخلق فهذا وجه من ذكر معجزة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.[97]

الأدلة على وجه اعجاز اخر (اخباره بأمور غيبية) :

1- انتصار الروم على الفرس: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّه الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّه يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} حين لاقت امبراطورية الروم هزيمة ساحقة على يد الفرس 613م حزن المسلمين لأن الروم أهل كتاب و فرح و شمت فيهم مشركين قريش و اعتبروا ذلك انتصارا لهم لأن الفرس المجوس وثنيون، ثم قال الله وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ، و انتصرت الإمبراطورية الرومية النصرانية على الفرس المجوس فعلا سنة 622 م و فرح المؤمنون بهذا النصر و كان بين هزيمتهم سنة 613 م وانتصارهم سنة 622 م 9 سنوات أي بضع سنين كما قال تعالى والبِضع : " كناية عن عدد قليل لا يتجاوز العشرة " كما جاء في التحرير والتنوير.

2- انتصار المسلمين المستضعفين: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} لما نزلت هذه الآية قال عمر: أى جمع يهزم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع» عرف تأويلها «1» وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ أى الأدبار كما قال:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا وقرئ: الأدبار أَدْهى أشدّ وأفظع. والداهية: الأمر المنكر لذي لا يهتدى لدوائه وَأَمَرُّ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرئ: سنهزم الجمع.[98]

وغيرها من الآيات الدلة على وجه الاعجاز من هذا الوجه، ونختم رأي شيخنا النظّام وأنصار مذهب الصرفة بقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين}.

[97] العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية للجويني ص64/61

[98] الكشاف للزمخشري ج4 ص 440

شيخنا النظّام والحديث

لَا عَمَلَ إلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ.[99]

[إبراهيم بن سيّار النظّام]

[99] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 262

النظّام والحديث

كان شيخنا إبراهيم رضي الله عنه ذو نزعة عقلية ظاهرة جدا، كان أكثر علماء المعتزلة تقديسا للعقل على مر العصور، وفي نظري فإن شيخنا ابراهيم النظّام هو الذي يُرى فيه كل ملامح الاعتزال بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة أكثر من أي عالم في هذه المدرسة، وتظهر هذه النزعة في ل اجتهاداته ومن بينها تعامله من السنة، قد وضع ضوابط لقبول الأحاديث خاصة به لما سمعه من خرافات المحدثين من أخبار متناقضة وغريبة، واعتمد النظّام على العقل والقرآن لقبول الخبر، لكن قبل أن نفصل دعونا أولا نسأل نفسنا، هل حقا شيخنا النظّام ينكر السنة كما يدّعي بعض المستشرقين والمتنورين؟ أم أنه له قواعد خاصة في قبول الحديث؟

قلت: اعلم - أرشد الله أمرك – أن شيوخ العدلية تعرضوا للتكفير والتفسيق والاضطهاد من واصل الى آخر امام معتزلي في عصرنا، من تشويه السمعة الى حرق الكتب والقتل والتعذيب والاعتقالات، فشيخنا الحاكم الجشمي أنموذجا، تم قتله في مكة من طرف أهل الحديث المجبرة، ويكفيك بأن العلامة النحوي المفسر الزمخشري من تلامذته، وشيخنا النظّام رضي الله عنه كان أكثر علماء العدلية من تم الطعن فيهم وتكفيرهم والكذب عليهم قديما وحديثا، فأما قديما فالكتب الصفراء فيها من الكذب على هذا الإمام العلم الجهبذ ما الله به عليم، وأما حديثا فهو ما نقرأه ونسمعه من قبل المستشرقين وبعض المحسوبين على التيّار التنويري، قولهم أن شيخنا النظّام قدّس الله سره لم يكن يقيم لسنة النبي وزنا، فلو اطلعنا على كتب أهل العدل والتوحيد من السادة الزيدية الكرام وفرسان الاسلام المعتزلة لوجدنا خلاف ما يتداول عنه، والثابت عن النظّام أنه كان يرى أن السنة المتواترة حجة، والحديث الواحد المقترن بقرائن يفيد العلم، يقول عالم العترة الشريفة الإمام الحجة أحمد بن يحي المرتضى(عليه السلام) قال النظّام: لَا عَمَلَ إلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ[100] فوضع أسس أدلته التي يعتمد عليها وهي الكتاب والسنة المتواترة والعقل، فالسنة المتواترة عنده حجة كباقي علماء الأمة من كل المذاهب، وينقل لنا شيخنا الأديب الجاحظ رضي الله عنه أن أبو إسحاق النظّام

[100] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 262

قال: بلغني وأنا حدث، أن النبي صلى الله عليه وسلم «نهى عن اختناث فم القربة، والشرب منه» قال: فكنت أقول إنّ لهذا الحديث لشأنا، وما في الشرب من فم قربة حتّى يجيء فيها هذا النهي؟! حتّى قيل: إنّ رجلا شرب من فم قربة، فوكعته حيّة فمات، وإنّ الحيّات تدخل في أفواه القرب، فعلمت أنّ كلّ شيء لا أعرف تأويله من الحديث، أنّ له مذهبا وإن جهلته.[101] وكلام شيخنا النظّام هنا يفند كل ادعاء يقول أنه ينكر السنة جملة وتفصيلا.

الكلام في خبر الواحد

إن الثابت عن شيخنا النظّام رضي الله عنه أن الخبر الواحد لا يفيد العلم الا اذا اقترن بقرائن، وهذا الكلام طافح في كتب العدلية وغيرهم، يقول أبو الحسين البصري: قَالَ أَكثر النَّاس إِنَّه لَا يَقْتَضِي الْعلم وَقَالَ آخَرُونَ يَقْتَضِيهِ وَاخْتلف هَؤُلَاءِ فَلم يشرط قوم من أهل الظَّاهِر اقتران قرينَة بالْخَبَر وَشرط أَبُو إِسْحَاق النظام فِي اقْتِضَاء الْخَبَر الْعلم اقتران قَرَائِن بِهِ وَقيل إِنَّه شَرط ذَلِك فِي التَّوَاتُر أَيْضا وَمثل ذَلِك بِأَن نخبر بِمَوْت زيد ونسمع فِي دَاره الواعية ونرى الْجِنَازَة على بَابه مَعَ علمنَا بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي دَاره مَرِيض سواهُ.[102] وقال الإمام الحجة أحمد بن يحي المرتضى(عليه السلام) قال النَّظَّامُ : الخبر الواحد لا يفيد العلم الا إنْ قَارَنَهُ سَبَبٌ[103]، قلت: فلو كان ينكر النظام ينكر السنة كما يتوهم البعض لما جعل في قبول الخبر الواحد شرط، ولما قال ان العمل اما بالكتاب أو خبر متواتر أو العقل، وهذا يثبت أنه كان يقول بالسنة، وقد انتصر الإمام الثقة العلاّمة الرازي الأشعري رضي الله عنه لرأي النظّام في الخبر الواحد فقال: والإنسان إذا أخبر عن كونه عطشانا فقد يظهر على وجهه ولسانه من أمارات العطش ما يفيد العلم بكونه صادقا والمريض إذا أخبر عن ألم في بعض أعضائه مع أنه يصيح وترى عليه علامات ذلك الألم ثم إن الطبيب يعالجه بعلاج لو لم يكن المريض صادقا في قوله لكان ذلك العلاج قاتلا له فها هنا يحصل العلم بصدقه وبالجملة فكل من استقرأ العرف عرف أن مستند اليقين في الأخبار ليس إلا القرائن فثبت إن الذي قاله النظام حق.[104]

[101] الحيوان ج4 ص 390
[102] المعتمد ج2 ص 92
[103] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 198
[104] المحصول للرازي ج4 ص 284

وروى الجاحظ في كتاب الأخبار أيضاً، عن أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، أنه قال - في الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -: وكيف يجيز السامع صدق المبخر، إذا كان لا يضطره خبره، ولم يكن معه علم يدل على صدق غيبه، ولا شاهد قياس يصدقه، وكون الكذب غير مستحيل منه مع كثرة العلل التي يكذب الناس لها ودقة حيلهم فيها، ولو كان الصادق عند الناس لا يكذب، والأمين لا يخون، والثقة لا ينسى، والوفي لا يغدر، لطابت المعيشة، ولسلموا من سوء العاقبة.[105]

ويمكن أن نستنتج أيضا من كلام شيخنا النظّام أنه لم يكن يعترف بالنساخ والمنسوخ كنسخ حديث الرجم للجلد، حيث اشار الى هذا القاضي عياض فقال: ولم يختلف علماء الامصار فى جلد الزانى البكر ورجم الزانى الثيب، إلا ما ذهب إليه الخوارج وبعض المعتزلة – النظام وأصحابه – من إبطال حكم الرجم[106]

شيخنا النظّام وأهل الحديث

اعلم أرشدك الله أن شيخنا النظّام كباقي شيوخنا العدلية، بينهم وبين أهل الحديث خصومة طويلة عريضة، وحسب اطلاعي فإن المعتزلة هم أول من أطلقوا على أهل الحديث اسم الحشوية، ويذكر لنا أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي دَاوُدَ تداول المعتزلة لفظ الحشوية واستصغارهم فقَالَ: أَتَيتُ الجَاحِظَ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَاطَّلَعَ عَلَيَّ مِنْ كُوَّةٍ فِي دَارِهِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟

فَقُلْتُ: رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الحَدِيْثِ.

فَقَالَ: أَوَ مَا عَلِمتَ أَنِّي لاَ أَقُوْلُ بِالحَشْوِيَّةِ؟

فَقُلْتُ: إِنِّي ابْنُ أَبِي دَاوُدَ.

فَقَالَ: مَرْحَباً بِكَ وَبِأَبِيكَ، ادْخُلْ...الخ الحديث.[107]، وقال فيهم بشر بن المعتمر :

تروون أحاديث وتروون نقضها، مخالف بعض الحديث بعضها ثم تصححون الجميع ولا تعرفون وتروون مالا تعلمون. مثلكم كما قال الله تعالى : {كمثل الحمار يحمل أسفارا}، ويقول شيخنا الحاكم الجشمي رضوان الله عليه: ثم العجب من جهلهم كيف يروون الخبر ويروون ضده ويقولون

[105] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 230

[106] شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم ج5 ص 504

[107] سير أعلام النبلاء ج11 ص 530

كلاهما صحيحان! وأكثر من كان يستصغر الحشوية ويرزيهم هو شيخنا النظّام رضي الله عنه، كان لا يقيم لهم وزنا، وبسبب هذا حمل عليه الحشوية فكذبوا عليه وشوهوا صورته أكثر من أي إمام معتزلي، قال أبو العباس بن العاص في كتاب الانتصار أن النظّام كان أشد الناس ازراء على أهل الحديث وهو القائل زوائل الأسفار لا علم عندهم بما يحتوي إلا كعلم الاباعر[108]

إن قول المعتزلة وفي مقدمتهم شيخنا النظّام أن أهل الحديث (الحشوية) لا يعتد بهم في الأخبار (في قبول الحديث ورده)، قال الجشمي في معرض ذمه لهؤلاء: فأما رواة الأخبار والمحدثون يشتغلون الليل والنهار برواية الحديث والأخبار ويجعلون أنفسهم حكام ويقولون: فلان مطعون ولا يصح قوله، وفلان لا يعتمد عليه، وفلان معتمد وهم يحتاجون إلى تزكيتهم، ولو سُئل واحد منهم عن علم التوحيد؟ لا يخبر عنه ولا يعرف، ويقول: الكلام في هذا بدعة! ولو سأله ملحد الرسول الذي الأخبار عنه ما الدليل على نبوته؟ لا يعرف كيف يجيب، ثم العجب من جهلهم كيف يروون الخبر ويروون ضده ويقولون كلاهما صحيحان!، وقال شيخنا في رسالة ابليس: ودخل بعض الفقهاء على يحي بن معين , فلما خرجا من عنده سُئلَ عنو فقال : دينه شك وفتياه وقف وكلامه طعن ! قيل : كيف ؟ قال : إذا قيل له أمؤمن أنت ؟ قال: إن شاء الله , وإذا سئل عن مسألة روى أقاويل الناس , فإذا قيل له بما تأخذ ؟ وقف , وإذا قيل له قتادة قال قدري , وإذا قيل جابر قال رافضي .

ثم أنشأ يقول :

ولابن معين في الرجال مقالة   سيسأل عنها والمليك شهيد

فإن كان صدقاَ فالمقالة غيبة   وإن كان كذباَ فالعذاب شديد

و قال شيخنا النظّام في ذم هؤلاء وشكّه في الرواة : وكيف نأمن كذب الصادق، وخيانة الأمين، وقد ترى الفقيه يكذب في الحديث، ويدلس في الإسناد، ويدعى لقاء من لم يبلغه، من غريب الخبر ما لم يسمعه، ثم لا يرى أن يرجع عن ذلك في مرضه بل أن تغرغر نفسه وقد أيقن بالموت، وأشفى على حفرته، بعد طول إصراره، والتمتع بالرياسة في حياته، وأكل أموال الناس به؟ ولولا أن الفقهاء والمحدثين، والرواة

[108] لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج1 ص 67

والصلحاء المرضيين، يكذبون في الأخبار، ويغلطون في الآثار، لما تناقضت آثارهم، ولا تدافعت أخبارهم.[109]

قلت: وصدق شيخنا في كلامه، فتدافع عدد الاخبار بأعداد خيالية تجعل النظّام وغيره يشكك في مصداقيتها، وكان قد مر الحديث بعدة مراحل، مرحلة التحفظ، ثم إباحة التدوين، ثم التفنن في التدوين، الموطأت ثم المسانيد ثم الصحاح، و كان الغرض من كتابة الحديث و تقصيه هو من أجل وضع حد للذين يكذبون على النبي، و يتضح من هذا الهدف أنه كان من المفترض أن تقل الأحاديث، لكن حدث العكس تماما بل كثر و تنامى بشكل حتى أن العلماء الذين كانوا يدونونه عجبوا من هذا، فبلغت الأحاديث أرقام خيالية بالألوف و حتى المليون، وكأن النبي كان طول حياته يجلس ويتحدث فقط، وجاء ان ابن حنبل قال وهو يخاطب جماعة من الحضور : إن هذا الكتاب (المسند) قد جمعته وانتقيته من اكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً ، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله (ص) فارجعوا إليه؛ فإن وجدتموه فيه وإلا فليس بحجة[110] قيل أن يحي بن معين قال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث، و علق أحمد بن عقبة على ذلك وقال: وإني أظن ان المحدثين قد كتبوا له بأيديهم ستمائة ألف وستمائة الف[111]، و سئل ابن معين: أيفتي الرجل من مائة ألف حديث؟ قال: لا، وتكرر السؤال: من مائتي الف من ثلاثمائة الف؟ قال لا، فسئل: من خمسمائة ألف؟ فقال : أرجو[112] و جاء عن علي بن المديني انه قال : تركت من حديثي مائة ألف حديث فيها ثلاثون ألفاً لعباد بن صهيب[113] (يعني أن عباد بن صهيب وحده روى ثلاثون ألفا؟؟) وقال ابن عقدة ان اقل شيخ سمعت منه له عندي مائة ألف حديث، فقال له بعض الحاضرين : أيها الشيخ نحن اخوة اربعة قد كتب كل واحد منا عنك مائة ألف حديث[114] وعن محمد بن الم سيب انه قال : كنت أمشي بمصر وفي كمي مائة جزء وفي كل جزء ألف حديث وقال: كتب في عصرنا جماعة بلغ المسند المصنف على تراجم الرجال لكل واحد منهم ألف جزء،

---

[109] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 231
[110] طبقات الحنابلة
[111] الجامع لأخلاق الراوي
[112] الجامع لأخلاق الراوي
[113] الجامع لأخلاق الراوي
[114] الجامع لأخلاق الراوي

منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمزة الأصفهاني وأبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الماسرجسي[115] وجاء عن إسحاق بن راهويه أنه قال : كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي، فقال له البخاري : أو تعجب من هذا القول لعل في هذا الزمان من ينظر إلى مائتي ألف ألف من كتابه. وعلق ابن حجر العسقلاني على ذلك بأنه عنى نفسه[116].

أما من جهة اشارة النظّام الى كذب البعض وتدليسهم وقد كثر وضع الأحاديث أي عكس ما كان يريد المحدثون، فعن سليمان بن حرب قال : دخلت على شيخ وهو يبكي، فقلت له ما يبكيك؟ قال : وضعت أربعمائة حديث في الناس فلا أدري كيف أصنع[117] وقال المهدي : أقر عندي رجل من الزنادقة انه وضع أربعمائة حديث فهي تجول في أيدي الناس[118] وجاء انه لما ايقن عبد الكريم بن أبي العوجاء بقتله لوضعه الأحاديث الكاذبة قال :والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام، ولقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطركم[119] ويقول العباس الضبي: سمعت سهل بن السري الحافظ، يقول: " قد وضع أحمد بن عبد الله الجويباري، ومحمد بن عكاشة الكرماني، ومحمد بن تميم الفارابي، على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرة آلاف حديث "[120] وقال مِسْعَرًا: " مَنْ أَبْغَضَنِي جَعَلَهُ اللَّهُ مُحَدِّثًا، وَوَدِدْتُ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ كَانَ حِمْلَ قَوَارِيرَ حَمَلْتُهُ عَلَى رَأْسِي فَوَقَعَ فَتَكَسَّرَ، فَاسْتَرَحْتُ مِنْ طُلابِهِ "[121] و كان سفيان بن عيينة ينظر إلى أصحاب الحديث ويقول: " أَنْتُمْ سُخْنَةُ عَيْنٍ لَوْ أَدْرَكَنَا وَإِيَّاكُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لأَوْجَعَنَا ضَرْبًا "[122]

شروط قبول الخبر عند شيخنا النظّام

اعلم علمّك الله وأطال عمرك أن لشيخنا النظّام رضي الله عنه منهجا آخر خاص في قبول الأخبار خلافا لمنهج الحشوية أو غيرهم، فالخبر عنده يمر على مجهرين لفحصه ثم قبوله أو رفضه، فأول مجهر هو مجهر كتاب الله، فإن وافقه قبله وإن عارضه معارضة واضحة لم يقبله وضعّفته، وإن لم يكن للخبر

[115] المدخل إلى الإكليل
[116] فتح الباري
[117] المدخل إلى الإكليل
[118] الكفاية في علم الرواية
[119] الموضوعات الكبرى لابن الجوزي
[120] الموضوعات الكبرى لابن الجوزي
[121] الموضوعات الكبرى لابن الجوزي
[122] الموضوعات الكبرى لابن الجوزي

أصل في الكتاب فإنه يمر على مجهر العقل فإن قبله العقل كان مقبولا وإن عارض العقل تعارضا صريحا أو ناقض حديثا آخر تم رفضه، فإن قيل: هذا تعسف، قلت: بل تثبت وقد علمنا أن المنافقون والزنادقة واصحاب الأهواء وضعوا الأخبار ما الله به عليم، إنما اشترط هذه الشروط للتدقيق كون المنسوب إليه الكلام ليس أميرا أو قاضيا أو مفتي وإنما رسول الله، وقال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم إلا من ثلاثة أوجه:

أ – من نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل.

ب – أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه.

ج – أو من جهة العقل وضرورته.

وبقوله: قال أكثر المعتزلة.[123]

وهذا فإن الأخبار عنده من جهة ثبوت صحتها متواترة وآحاد، أما المتواترة فيعمل بها و أما الآحاد فهي ظنية الثبوت لا يعمل بها فهي لا تفيد العلم، إلا اذا اقترن بقرائن.

النظّام وردّه أخبار قتل الكلاب وتفضيل السنور عليه:

قال إبراهيم النّظّام: قدّمتم السّنّور على الكلب، ورويتم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب واستحياء السنانير وتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: «إنّهنّ من الطّوّافات عليكم». وكلّ منفعة عند السّنّور إنّما هي أكل الفأر فقط، وعلى أنّكم قلّما تجدون سنّورا يطلب الفأر، فإن كان مما يطلب ويأكل الفأر، لم يعدمكم أن يأكل حمامكم وفراخكم والعصافير التي يتلهّى بها أولادكم، والطائر يتّخذ لحسنه وحسن صوته. والذي لابدّ منه الوثوب على صغار الفراريج. فإن هو عفّ عن أموالكم لم يعفّ عن أموال جيرانكم، ومنافع الكلب لا يحصيها الطّوامير، والسّنّور مع ذلك يأكل الأوزاغ والعقارب، والخنافيس، وبنات وردان ، والحيّات، ودخّالات الآذان والفأر والجرذان، وكلّ خبيثة وكلّ ذات سمّ، وكلّ شيء تعافه النفس. ثمّ قلتم في سؤر السّنّور وسؤر الكلب ما قلتم. ثمّ لم ترضوا به حتّى أضفتموه إلى نبيّكم صلى الله عليه وسلم!![124]

---

[123] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 273

[124] الحيوان ج2 ص 332

قلت: وقد أحسن وأجاد شيخنا النظّام في رد هذه الروايات الركيكة، ولا يستبعد أنها من كيس أبو هريرة، أو من دسيس الملاحدة، ولو كان نجس ولا تدخل الملائكة بيت فيه كلب لما اصطحب أصحاب الكهف كلبهم وحفظهم الله بل وعدّ الكلب كأحد أصحابهم، وأبدع شيخنا الجاحظ في تأويل آيات سورة الكهف حيث قال: ثم قال: فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ ثمّ قال بعد هذه الصّفة لحالهم، والتمكين لهم من قلوب السّامعين، والأعجوبة التي أتاهم بها: وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ، ثمّ قال: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً، فخبّر أنّهم لم يستصحبوا من جميع من يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئا غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئا غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرس والبعير والحمار والبغل، والثّور والشاة، والحمام والدّيكة، كلّ ذلك مما يرتفق به ويستصحب في الأسفار، وينقل من بلد إلى بلد.

والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبّر عنهم بعد أن جعلهم خيارا أبرارا، أنّهم لم يختاروا استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفّقين المعصومين المؤيّدين، إلّا بخاصّة في الكلب لا تكون في غيره.

ثمّ أعاد ذكر الكلب، ونبّأ عن حاله، بأن قال عزّ وجلّ: إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً. سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً وفي قولهم في الآية ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ دليل على أنّ الكلب رفيع الحال، نبيه الذكر، إذ جعل رابعهم، وعطف ذكره على ذكرهم، واشتقّ ذكره من أصل ذكرهم، حتّى كأنّه واحد منهم، ومن أكفائهم أو أشباههم أو ممّا يقاربهم. ولولا ذلك لقال: سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم. وبين قول القائل معهم كلب لهم، وبين قوله رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ فرق بيّن وطريق واضح.

فإن قلتم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنّما حكاه عن غيره، وحيث يقول: ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ وقد صدقتم، والصّفة على ما ذكرتم؛ لأنّ الكلام لو كان منكرا لأنكره الله تعالى، ولو كان معيبا لعابه الله، فإذ حكاه ولم يعبه، وجعله قرآنا وعظّمه بذلك المعنى، ممّا لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله؛ إذ كان الله عزّ وجلّ المنزل له.[125]

ومما يبين ركاكة هذه الأخبار حول الكلب أن في هذه الأخبار زيادات على حسب الأهواء، ومنها: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " أَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ، أَوْ كَلْبَ غَنَمٍ، أَوْ مَاشِيَةٍ "، فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: أَوْ كَلْبَ زَرْعٍ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ زَرْعًا.[126]

أي أن أبا هريرة وضع هذه الزيادة من عنده لمصلحته الخاصة لأن له زرعا، ومن سذاجة هذه الروايات أيضا ما رواه أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا، قَالَتْ: وَاعَدَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصًا، فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: " مَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَا رُسُلُهُ " ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ يَا عَائِشَةُ: " مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَاهُنَا؟ "، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ "، فَقَالَ: " مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ "[127]

فهل يعقل أن "أمين الوحي" و "سيد الملائكة" و مبلغ الوحي إلى الرسول يتأخر عن موعده و يعجز عن الدخول بسبب كلب؟ و ما هو السبب الذي يجعل الملائكة تعجز من الدخول في بيت فيه كلب؟ فهل يعجز ملك الموت عن قبض روح إنسان حانت ساعته بسبب وجود كلب في بيت الرجل الذي يحتضر؟؟.

ولما قال معبد في قتل الكلب، وتلا قول الله عزّ وجلّ: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ

[125] الحيوان ج2 ص 352/351
[126] صحيح مسلم
[127] صحيح مسلم

، قال أبو إسحاق: وإن كنت إنّما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلّة، فقد قال على نسق هذا الكلام: وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام، وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الذمّ فإنّك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبّعت ما عليها.[128]

النظّام وحديث إنـزاء الحمير على الخيل:

لما روى المدائنيّ والواقديّ وغيرهما، أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لمّا استأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إنزاء الحمير على الخيل، قال: " إنمّا يفعل ذلك اللّذين لا يعْلمون ". قال قوم: جاء الحديث عامّاً في ذكر الخيل، ولم يخُصّ العتاق دون البراذين؛ لأنّ اسم الخيل واقع عليهما جميعاً، قال الله سبحانه: {والخيْلَ والبغالَ والحْمير لترْكبُوها }، أفتظنُّون أنه ذكر إنعامه عليهم بما خوَّلهم من المراكب، فذكر البغال والحمير وترك البراذين؟ فأما أبو إسحاق فإنه قال: هذا الحديث مختلفٌ فيه، وله أسانيد طوال، ورجالٌ ليسوا بمشهورين من الفقهاء بحمل صحيح الحديث. ويجوز أن ينهى عن إنزاء الحمير على الحجور والرِّماك جميعاً، فإن جلب جالب ذلك النّتاج جاز بيعه وابتياعه، وملْكه وعتقه. وخصاؤه في الأصل حرام، وقد أهدى المُقوقس عظيم القبْط إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خصيًّاً؛ وكان هذا الخصيّ أخا مارية أمّ إبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقبل هديَّته، وأرسل إليه ببغلة من نتاج ما بين حجْر وعيْر، وليس في هذين الكلام، إنما الكلام في الإخصاء وحده، والإنزاء وحده في أصل العمل، فإما إذا ما تمّ الأمر بينهما، فإن بيعهما وابتياعهما حلال.

قال: ولا نترك قولاً عامّاً قاله الله تعالى في كتابه ونصَّه، لحديثٍ لا ندري كيف هو، وقد قال الله جلّ وعزّ، وهو يريد إذْكار الناس نعمهُ السابغة، وأياديه المجلِّلة حين عدَّد عليهم، فقال: " والخيل والبغال والحمير لترْكبوها "؛ فمن أين جاز لنا أن نخصَّ شيئاً دون شيء.[129]

[128] الحيوان ج1 ص 238

[129] رسائل الجاحظ ج2 ص 355

وأقد أحسن شيخنا النظّام كعادته في بيان ضعف هذا الخبر، فرده أولا لضعف الاسناد عنده، ولأنه غير مقبول عقلا أيضا، أولا كما قال شيخنا النظّام: ولا نترك قولاً عامّاً قاله الله تعالى في كتابه ونصَّه، لحديثٍ لا ندري كيف هو، وقد قال الله جلّ وعزّ، وهو يريد إذْكار الناس نعمةُ السابغة، وأياديه المجلِّلة حين عدَّد عليهم، فقال: " والخيل والبغال والحمير لتركبوها "؛ فمن أين جاز لنا أن نخصَّ شيئاً دون شيء؟، وما سبب كراهته؟ فإذا كان الانزاء مكروه لكان ركوب البغال مكروه وهذا عكس ما ذكره الله، وناقض الحديث نفسه حيث ركبها النبي، قال علي: أَهْدَيْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ بَغْلَةً، فَرَكِبَهَا..الحديث، ولولا رغبة الناس ذلك الوقت في ركوبها لما انزيت الحمر على الخيل، وفي أحاديث اخرى كانت للنبي الأكرم بغلة بيضاء، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ: يَا أَبَا عُمَارَةَ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ: لا وَاللَّهِ، مَا وَلَّى رَسُولُ اللَّهِ وَلَكِنْ وَلَّى سَرَعَانُ النَّاسِ، تَلَقَّتْهُمْ هَوَازِنُ بِالنَّبْلِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَهُوَ يَقُولُ: " أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ "، وغيرها من الروايات المشابهة لها.

النظّام وحديث الحجر الأسود:

يقول ابن عباس رضي الله عنهما الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتي سودته خطايا أهل الشرك فسئل ابن الحنفية عن الحجر وقيل ابن عباس يقول هو من الجنة فقال هو من بعض الأودية، قال النظّام لو كان كفر أهل الجاهلية يسود الحجر لكان إسلام المؤمنين يبيضه ولأن الحجارة قد تكون سوداء وبيضاء فلو كان ذلك السواد من الكفر لوجب أن يكون سوادها بخلاف سائر الأحجار ليحصل التمييز ولأنه لو كان كذلك لاشتهر ذلك لأنه من الوقائع العجيبة كالطير الأبابيل.[130]

النظّام وحديث انشقاق القمر:

- زعم (ابن مسعود رضي الله عنه) أنه رأى القمر انشق وهذا كذب ظاهر لأن الله تعالى ما شق القمر له وحده وإنما يشقه آية للعالمين فكيف لم يعرف ذلك غيره ولم يؤرخ الناس به ولم يذكره شاعر ولم يسلم عنده كافر ولم يحتج به مسلم على ملحد.[131]

---

[130] المحصول للرازي ج4 ص 332

[131] المحصول للرازي ج4 ص 334

النظّام والأحاديث المتناقضة:

قال إبراهيم: وكيف لا يغلطون، ولا يكذبون، ولا يجهلون، ولا يتناقضون؛ والذين رووا منهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا عدوى ولا طيرة، وأنه قال: فمن أعدى الأول؟ هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: فر من المجذوم فرارك من الأسد، وأتاه رجل مجذوم ليبايعه بيعة الأسلام، فأرسل إليه من بايعة مخافة أعدائه؛ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين توجه إلى بدر أراد أن ينزل الصفرا، وهي بين جبلين، فسأل عن اسميهما، وعن الحيين النازلين بهما، فقيل: ينزلهما بنو النار، وبنو حراق، بطنان من بني عفار، فتطير منهما، وتعداهما إلى غيرهما، واسم الجبلين الضيقين.

وأنه قال: الشؤم في المرأة والدار والدابة.

قال: والذين يروون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: خير أمتي القرن الذي بعثت فيه، هم الذين رووا أن النبي صل الله عليه وآله وسلم قال: (مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره) .

قال: والذين رووا منهم أن الصعب بن جثامة قال: يا رسول الله ذرارى المشركين تطأهم خيلنا في ظلم الليل عند الغارة؛ قال: اقتلوهم فإنهم مع آبائهم؛ وأنه حين أغزى أسامة بن زيد إلى ناحية الشام، أمر أن يحرق المشركين بالنار وذراريهم؛ هم الذين يروون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان، فأنكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك إنكاراً شديداً؛ فقالوا: يا رسول الله، إنهم ذراري المشركين؛ وإن خالد بن الوليد لما قتل بالغمصا الأطفال، رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يديه، حتى رأى المسلمون بياض أبطيه، وقال: اللّهُمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد، ثم بعث عليا عليه السلام فوداهم.

قال: والذين يروون أن خديجة قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله أرأيت أطفالي منك أين هم؟ قال: هم في الجنة، قالت: أفرأيت أطفالي من غيرك أين هم؟ قال: في النار، فأعادت عليه الكلام، فقال مثل ذلك، فلما أعادت عليه، قال: ن سكت وإلا أسمعتك ضغاءهم في النار.

وإن عقبة بن أبي معيط لما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتله قال: من للصبية؟ قال: النار. هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: المؤودة في الجنة والشهيد في الجنة وإن أولاد المشركين خدم أهل الجنة.

قال: والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله جل ذكره أوحى إلي إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين فاغتالتهم عن دينهم، وانه قال: كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه الذين يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فهو يعمل للسعادة، وإن كان من أهل الشقاء فهو يعمل للشقاء؛ وأن الله عز وجل مسح ظهر آدم فقبض قبضتين، فأما الذين في قبضته اليمنى فقال: إلى الجنة برحمتي، وقال للذين في اليسرى: إلى النار ولا أبالي، والسعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقى في بطن أمه، وإذا وقعت النطفة في الرحم أوحى الله إلى ملك الأرحام: اكتب فيقول: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب شقياً أو سعيداً.

والذين رووا أن القدرية مجوس هذه الأمة، وأنهم قد لعنوا على لسان سبعين نبياً؛ هم الذين رووا أن ميكائيل كان قدرياً حتى خصمه جبريل، وأن موسى كان قدرياً حتى خصمه عمر.

قال: وتلوا علينا قول الله عز وجل: (وإبراهيم الذي وفى، ألا تزر وازرةٌ وزر أخرى) .

ثم رووا أن ولد الزنا شر الثلاثة، وأن المعول عليه يعذب بعويل أهله، وأيما صبي مات ولم يعف عنه أبواه فهو محتبس عن الجنة حتى يعفا عنه.

قال: وتلوا علينا: (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقوله: (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما كفر نبيٌ قط) ، ثم رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على دين قومه أربعين سنة، وأنه قال: ما ذبحت للعزى إلا كبشاً واحداً؛ وأنه زوج ابنتيه: عتبة بن أبي لهب وأبا العاص بن الربيع، وأنه قال - قبل الوحي - لزيد بن عمرو ابن نفيل: يا زيد، إنك فارقت دين قومك وشتمت ألهتهم، فقال له زيد:

يا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لن تخفى من الله خافياً

والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا يفضلني أحدٌ على يونس بن متى، فقد كان يرفع له في اليوم الواحد مثل عمل جميع أهل الأرض؛ هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر، وإن كل نبي يقول في القيامة: نفسي نفسي!! وأنا أقول: أمتي أمتي، ومعي لواء الحمد) وهم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا

تفضلوا بعض الأنبياء على بعض، فإنهم بنو علات أمهاتهم واحدة، والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن روح الشهداء تكون في حواصل طير خضر تأوي الليل إلى قناديل في الجنة، وإن الأرواح في الهوا جنود مجندة، تتشام كما تتشام الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف على قليب بدر فقال: يا عتبة بن ربيعة، يا شبيبة بن ربيعة، يا أبا جهل، يا أمية بن خلف: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقيل له في ذلك، فقال: والذي نفسي بيده إنهم ليسمعون كما تسمعون، وإن منكراً ونكيراً ليأتيان الرجل في قبره فيسألانه: من ربك وما دينك؟ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: والذي نفسي بيده إنهم ليسمعون خفق نعالكم. هم الذين تلوا علينا: (وما أنت بمسمع من في القبور) وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: اللّهُمَّ رب الرواح الفانية والأجساد البالية.

وأن عبد الله بن عباس سئل عن الأرواح أين تكون إذا فارقت الأجساد وأين تذهب الأجساد إذا بليت؟

قال: أين يذهب السراج، إذا طفئ، وأين يذهب البصر إذا عمى، وأين يذهب لحم الصحيح إذا مرض؟

فقال السائل: لا أين!! قال: كذلك الأرواح، إذا فارقت الأجساد.

قال: والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: ليؤمكم خياركم فإنهم وفدكم إلى الجنة؛ وقال: صلاتكم قربانكم، فلا تقربوا بين أيديكم إلا خياركم، ولا صلاة لإمام قوم له كارهون. هم الذين رووا: صلوا خلف كل إمام، براً كان أو فاجراً، ولا بد من إمام بر أو فاجر.

قال: والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: وأذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة رجلاه في الأرض السفلى وعاتقه تحت العرش، ما بين عاتقة إلى شحمة أذنه سبعمائة عام، خفقان الطير المسرع؛ هم الذين رووا أن الله عز وجل ينزل عشية عرفة، ويوم النصف من شعبان على جمل أورق، وأنه ينزل في قفص من ذهب.

والذين رووا أن أربعة أملاك التقوا، واحداً من المشرق، والآخر من المغرب، وآخر من السماء السابعة، وآخر من الأرضيين السفلى، فقال كل واحد منهم للآخر: أين تركت ربك؟ فقال: من عند ربي جئت!! هم الذين رووا أن حمل العرش من فرق غضب الله يثقل العرش على كواهلهم، وأن القلوب بين أصبعين من

أصابع الرحمن عز وجل، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاني ربي في أحسن صورة فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثدي.

قال إبراهيم: ثم يتحدث فقيههم بمثل هذه الأحاديث، ويخبر بمثل هذه الأخبار، ويشهد على الله عز وجل بمثل هذه الشهادة، وهو غير محتفل بذلك ولا مستحٍ منه.[132]

مختصر رأي شيخنا النظّام في الأخبار

إن رأي شيخنا النظّام في الأخبار رأي منطقي وعقلاني متوافق مع طريقته المعروفة، فشيخنا النظّام يعتمد على الشك والتجربة لقبول أي فكرة أو اعتقاد، رأيه في الأخبار ترجع لعقلانيته المميزة، وكرأي شخصي فإن مكانة العقل الحقيقية في الفكر الإعتزالي دفنت مع النظّام تقريبا، عكس شيوخ المعتزلة بعده الذين تساهلوا في قبول بعض الروايات والاعتقادات، كشيخنا عماد الدين القاضي عبد الجبّار رضي الله عنه، ويمكن اختصار هذا المبحث في النقاط التالية:

1- إن الأخبار عند شيخنا النظّام حجة وتفيد العلم، لكنه شرط أن يكون الخبر متواتر أو له قرائن، وقوله: لَا عَمَلَ إلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ[133] دليل أول، فوضع أسس أدلته التي يعتمد عليها وهي الكتاب والسنة المتواترة والعقل، وقوله في حديث الشرب من القربة: فعلمت أنّ كلّ شيء لا أعرف تأويله من الحديث، أنّ له مذهبا وإن جهلته.[134]، ونقل لنا أبو الحسين البصري أن أَبُو إِسْحَاق النظام شرط فِي اقْتِضَاء الْخَبَر الْعلم اقتران قَرَائِن بِهِ وَقيل إِنَّه شَرط ذَلِك فِي التَّوَاتُر أَيْضا، وقال الإمام الحجة أحمد بن يحي المرتضى(عليه السلام) قال النَّظَّامُ : الخبر الواحد لا يفيد العلم الا إنْ قَارَنَهُ سَبَبٌ[135]، قلت: فلو كان ينكر النظام ينكر السنة كما يتوهم البعض لما جعل في قبول الخبر الواحد شرط، وقال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم إلا من ثلاثة أوجه:

أ – من نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل.

ب – أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه.

---

[132] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 230/ 235

[133] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 262

[134] الحيوان ج4 ص 390

[135] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج2 ص 198

ج - أو من جهة العقل وضرورته.

وبقوله: قال أكثر المعتزلة.[136]

إذا فالأخبار عنده حجة لكن وضع لها شروط كما بيّنا، فثبت أن شيخنا النظّام لم يكن ينكر السنة وإنما كان يتشدد في قبول الخبر وذلك لأنه وضع قواعد خاصة لقبوله.

2- كان شيخنا إبراهيم النظّام يرى أن أكثر الأخبار قد تلاعب بها المحدثون، من كذب وتدليس وغيرها، ولاحظ كثرتها وتدافعها وتناقضها، وهذا يرجع لعقليته التي تتسم بالشك ثم التسليم، فكان يسلم بأخبار قليلة، وحقّ له ذلك، ويظهر هذا جليّا في قوله: وكيف نأمن كذب الصادق، وخيانة الأمين، وقد ترى الفقيه يكذب في الحديث، ويدلس في الإسناد، ويدعى لقاء من لم يبلغه، من غريب الخبر ما لم يسمعه، ثم لا يرى أن يرجع عن ذلك في مرضه بل أن تغرغر نفسه وقد أيقن بالموت، وأشفى على حفرته، بعد طول إصراره، والتمتع بالرياسة في حياته، وأكل أموال الناس به؟ ولولا أن الفقهاء والمحدثين، والرواة والصلحاء المرضيين، يكذبون في الأخبار، ويغلطون في الآثار، لما تناقضت آثارهم، ولا تدافعت أخبارهم.[137]، وما قاله شيخنا النظّام قاله أهل الحديث عن نفسهم أيضا، حيث قال شُعَيْبُ بْنُ حَرْبٍ: كُنَّا عِنْدَ سُفْيَانَ يَوْمًا نَتَذَاكَرُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: " لَوْ كَانَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ خَيْرٌ لَنَقَصَ كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْرُ، وَلَكِنَّهُ شَرٌّ، فَأُرَاهُ يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ الشَّرُّ "[138] وجاء في نفس المصدر: قال حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قَالَ لِي سُفْيَانُ، " يَا أَبَا إِسْمَاعِيلَ، لَوْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ خَيْرًا لَنَقَصَ كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْرُ "[139] وهذ ما أشار إليه النظّام رضي الله عنه حين تكل عن تدافعها، وقال شعبة أيضا: إنك لا تكاد تجد أحدا فتّش هذا الحديث تفتيشي، ولا طلبه طلبي وقد نظرت فيه فوجدته لا يصح منه الثلث، وهذا ما كان يراه شيخنا النظّام ويقوله.

3- لقد كان شيخنا أبو اسحاق النظّام يهتم بالحديث ويعرف صحيحها من سقيمها ويعرف رجالهم أيضا، فلم يكن يرد الحديث أو يقبله بعبث واتباع هوى كما يقول الحشوية الجهلة، قال النظّام في حديث انزاء الحمر: هذا الحديث مختلفٌ فيه، وله أسانيد طوال، ورجالٌ ليسوا بمشهورين من الفقهاء بحمل صحيح الحديث، قلت: ولا يقول هذا الا عالم له باع في علم الرجال والأخبار.

---

[136] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 273

[137] الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 231

[138] جامع بيان العلم وفضله ص 403

[139] نفس المصدر

شيخنا النظّام والاجماع والقياس

فكان لا يؤمن بالإجماع وكان قليل الايمان بالقياس[140]

[أحمد أمين]

[140] أحمد أمين ضحى الإسلام126/3

[الاجماع]

قبل أن نتحدث عن كلام النظّام في الاجماع نُعرفه أولا فنقول:

و الإجماع لغة: هو العزم،يقال: أجمع فلان على كذا،إذا عزم عليه، وقد يتعدى بدون حرف الجر فيقال: أجمع فلان كذا، بمعنى عزم، ويأتي بمعنى الاتفاق،يقال: أجمع القوم على كذا،أي: اتفقوا عليه.

أما الإجماع شرعا: هو اتفاق مجتهدو هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي

والمقصود بالاتفاق : هو الاشتراك في الاعتقاد،أوالقول،أوالفعل.

والمقصود بالمجتهدون: قيد يخرج به اتفاق غيرهم من العوام، فلا عبرة به، ولا بوفاقهم ولا بخلافهم، والمجتهد من بلغ رتبة الاجتهاد، على ما سيأتي في مباحث الاجتهاد والتقليد، وسنفصل لاحقا الكلام في هذا انتصارا لقول شيخنا النظّام.

يقول شيخنا أبو الحسين البصري: اعْلَم أَن إِجْمَاع أهل كل عصر من الْأمة صَوَاب وَحجَّة وَقَالَ النظام لَيْسَ ذَلِك حجَّة وَقَالَت الإمامية ذَلِك صَوَاب لِأَن الإِمَام دَاخل فيهم.[141]

وقال امام العترة الطاهرة يحي بن المرتضى في كلامه عن الاجماع: الْأَكْثَرُ وَهُوَ حُجَّةُ النَّظَّامِ وَالرَّافِضَةِ وَبَعْضِ الْخَوَارِجِ : لَا[142]، وقال: قال النَّظَّامُ : لَا عَمَلَ إلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ.[143]

وقال الغزالي: وَذَهَبَ النَّظَّامُ إلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ قَامَتْ حُجَّتُهُ وَإِنْ كَانَ قَوْلَ وَاحِدٍ وَهُوَ عَلَى خِلَافِ اللُّغَةِ وَالْعُرْفِ، لَكِنَّهُ سَوَّاهُ عَلَى مَذْهَبِهِ إذْ لَمْ يَرَ الْإِجْمَاعَ حُجَّةً، وَتَوَاتَرَ إلَيْهِ بِالتَّسَامُعِ تَحْرِيمُ مُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ، فَقَالَ: هُوَ كُلُّ قَوْلٍ قَامَتْ حُجَّتُهُ.[144]

وللنظّام كتاب اسمه النكتة يرد فيه حجية الاجماع ولم يصلنا للأسف، والذي ظهر لي من الكلام النظّام عند العدلية وغيرهم أنه أسيء فهمه كثيرا، فشيخنا النظام لم ينكر الاجماع كما يتصور العوام والخواص، انما للنظّام تصور اخر للاجماع مخالف لما يذهب اليه الجميع، والا فكيف ينكر الاجماع بمفهومهم وهو يقول: لَا عَمَلَ إلَّا بِالْكِتَابِ أَوْ خَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ وَإِلَّا فَالْعَقْلُ فَقَطْ، والخبر المتواتر هو قطعا خبر اجمع الناس على صحته فكيف لا يقول بالاجماع؟ والقرآن مجمعون على أنه منزل من عند الله

---

[141] المعتمد ج2 ص4

[142] البحر الزخار للامام يحي بن المرتضى ج2 ص 238

[143] البحر الزخار للامام يحي بن المرتضى ج2 ص 262

[144] المستصفى للغزالي ص 137

فكيف ينكر الاجماع، ومن هنا أقول: ان النظّام لا يرى الاجماع بمفهومهم حجة فهو عنده بذلك الفهم غير مقبول عقلا ولا سمعا.

فإن قلت: أيقول إذا أن أمة محمد يجوز عليها الإجماع على ضلالة؟

قلت: معاذ الله، هذا فهم خاطئ، فلم يقل هذا، إنما كلامه على أن الاجماع يستحيل من جهة ولا أهمية له من جهة، أما وجه استحالته فيستحيل اجماع الأمة باختلاف عقائدها ومذاهبها على المسائل الفرعية، ألا ترى أن الخلاف باقي منذ قرون على مسألة رؤية الله و مفهوم الشفاعة وغيرها بين هذه الأمة إلى اليوم وإلى يوم القيامة سيبقى هذا الخلاف، فالإجماع هنا مستحيل عقلا وهذا ما يشهد له الواقع، أما الإجماع في المسائل الأصول أو المعلومة بالضرورة كالقول بأن الله واحد لا شريك له وأن القرآن كتاب الله و المسائل الغيبية التي ذكرها القرآن كالجنة والنار ويوم البعث وغيرها والتي كفر من أنكرها فهي لا تحتاج إجماع أصلا فهذه من المسلمات ومن المسائل المفروغ منها فما حجة الإجماع هنا والنص القرآني واضح وضوح الشمس في رابعة النهار في هذه المسائل، فنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة واضح حول توحيد الله ما فائدة الإجماع هنا؟

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنهم لم يتفقوا على شروطه والمقصود بالمجتهدين أصلا، وهذا ما ذكره صاحب المستصفى الإمام الغزالي رحمه الله، فقال: إذا خالف واحد من الأمة أو اثنان، لم ينعقد الإجماع دونهما، فلو مات لم تصر المسألة إجماعاً، خلافاً لبعضهم ، وقال أيضا أن الإجماع من الأكثر ليس بحجة مع مخالفة الأقل وقال أيضا: المبتدع إذا خالف لم ينعقد الإجماع دونه إذا لم يكفر، بل هو كمجتهدٍ فاسق، وخلاف المجتهد الفاسق معتبر ، أما الخلاف في تحديد المجمعين فالبعض يرى أنه خاص بأهل الحل والعقد من المجتهدين والبعض الآخر يجعله عاماً فيدخل فيه جميع الأمة من العوام وغيرهم فمن يخصه بالمجتهدين يعبر بقوله :(اتفاق المجتهدين) ومن يدخل العوام يعبر بقوله : (اتفاق الأمة).

أما الخلاف في زمن الإجماع فبعضهم يخصه بعصر الصحابة كابن حزم ومن وافقه وبعضهم يجعله عاماً في جميع العصور ، فمن يخصه بعصر الصحابة يعبر بقوله : (اتفاق أصحاب رسول الله) أو اتفاق (الصدر الأول) ومن يجعله عاماً يقول: (اتفاق المجتهدين في جميع العصور).

أما الخلاف في الأمور المجمع عليها فبعضهم يحصرها في الأمور الشرعية وبعضهم يعممها، فمن يحصرها بالأمور الشرعية يقول: (اتفاق على أمرٍ أو حكمٍ شرعي أو ديني) ومن يعممها يقول: (اتفاق على أمرٍ من الأمور).

و اشتراط انقراض العصر واشتراط بلوغ المجمعين عدد التواتر ونحوها فمن يشترط ذلك يجعله قيداً في التعريف ومن لا يشترطه لا يذكره في التعريف.

واتفاق مجتهدو عصرٍ من العصور من أمة محمد بعد وفاته على أمر ديني. و هذا رأي الأصوليين.

وقيل أنه غير ممكن عادة، لا عقلًا، وهو رأي النظام.

وأما الشيعة فإنهم يقولون: إن الإجماع حجة لا لكونه إجماعا بل لاشتماله على قولا لإمام المعصوم و قوله: بانفراده عندهم حجة ".

أما في تحديد المجتهدين فقد اختلفوا أيضا، فقد اختلف العلماء حول انعقاد الإجماع بمخالفة المجتهد المبتدع إذا كانت بدعته غير مكفرة على أقوال خمسة:

القول الأول: يعتبر قول المجتهد المبتدع، فلا ينعقد الإجماع بمخالفته، وذهب إلى هذا القول الآمدي والغزالي و الهندي وظاهر كلام ابن السمعاني أنه مذهب الشافعي كما قال الزركشي، وأهم حججهم التي استدلوا بها هي:

ـــ المجتهد صاحب البدعة غير المكفرة مسلم داخل في مفهوم الأمة المعصومة، وهو من أهل الحل والعقد، فلا ينعقد الإجماع مع مخالفته.

ـــ غاية الأمر في المجتهد المبتدع أنه فاسق، والفسق لا يؤثر في أهلية الاجتهاد.

ـــ إخبار المبتدع عن نفسه مقبول إذا كان يعتقد تحريم الكذب ولم تكن هناك قرائن تدل على كذبه فيما أخبر به عن نفسه.

ـــ صدق المجتهد المبتدع ممكن، والأصل عدم الإجماع، فلا ينعقد على تردد ينشأ من خلاف عالم بالشرع.

القول الثاني: لا يعتد بخلاف المجتهد المبتدع، وينعقد الإجماع مع مخالفته.

وإلى هذا القول ذهب الجصاص من الحنفية، وأبو منصور البغدادي الذي نسب هذا القول إلى عموم أهل السنة حيث قال : "أهل السنة لا يعتبر في الإجماع وفاق القدرية، والخوارج، والرافضة، ولا اعتبار بخلاف هؤلاء المبتدعة في الفقه، وإن اعتبر في الكلام، هكذا روى أشهب عن مالك، ورواه العباس بن الوليد عن الأوزاعي، وأبو سليمان الجوزجاني عن محمد بن الحسن،وذكر أبو ثور في منثوراته أن ذلك قول أئمة أهل الحديث." ،وممن اختار هذا القول ابوبكر الرازي، والقاضي أبويعلى.

ومن أهم الحجج التي اعتمدوا عليها:

ـــ إن اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ لِمَنْ أَلْزَمَنَا قَبُولَ شَهَادَتِهِمْ مِنْ الْأُمَّةِ بِالْعَدَالَةِ بِقَوْلِهِ عَزَّوَ جَلَّ (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) فَجَعَلَ الشُّهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ فِيمَا قَالُوهُ، وَشَهِدُوا بِهِ، الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَنَّهُمْ وَسَطٌ، وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ، وَقَدْ قِيلَ : الْوَسَطُ الْخِيَارُ.

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :(قَالَ أَوْسَطُهُمْ) يَعْنِي خَيْرُهُمْ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، لِأَنَّ الْعَدْلَ الْخِيَارُ، وَالْخِيَارَ الْعَدْلُ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلَا اعْتِبَارَ بِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ فِي الِاعْتِدَادِ بِإِجْمَاعِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)وَقَالَ تَعَالَى :(وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)

ـــ إن صيرورة إجماع الأمة حجة بطريق الكرامة و المبتدع ليس من أهلها.

ـــ إن من طوائف أهل البدعة من يخالف ونناقي أصول فقهية وأدلة إجمالية، فالخوارج مثلا يكفرون جماعة من خيرة الصحابة –رضوان الله عليهم–، والرافضة يكفرون مجمل الصحابة، ويرون أن قولة الأئمة الاثنى عشر حجة لا تجوز مخالفتها، وبالتالي فإن وقوعهم في مخالفة أهل السنة والجماعة في مسائل الفقه أمر متوقع لاختلاف الأصول، فكيف نعتد بمن خالفنا بأصول الاستنباط و مناهج الاستدلال؟ وكيف نتصور منهم الوقوف عند إجماع الصحابة وعدم تجاوزه و هم يكفرون مجمل الصحابة أو بعض خيرتهم؟

القول الثالث: الإجماع لا ينعقد عليه بل على غيره فيجوز له مخالفة إجماع من عداه ولا يجوز ذلك لغيره، أي لا يعتد الغير بمخالفته للإجماع، وبالنسبة له فإن الإجماع الذي خالفه ليس إجماعا تقوم به الحجة عليه.

وهذا القول ذكره الآمدي ولم يسم من قال به من العلماء، وقال الزركشي: " حكاه الآمدي وتابعه المتأخرون "،ونسبه صاحب تيسير التحرير إلى إمام الحرمين وأبي إسحاق الشيرازي.

ويستدل لهذا القول بمايلي:

ـــ عدم اعتداد عامة المسلمين بمخالفة المجتهد المبتدع لان حجية الإجماع جاءت بطريق الكرامة لهذه الأمة، وهو ليس من أهل الكرامة لبدعته، كما أن شهادته لا تقبل لان عدالته مجروحة.

ـــ أما بالنسبة لخاصة نفسه، فهو مجتهد يحرم عليه تقليد غيره، وهو لا يرى نفسه مبتدعا، وبالتالي فالإجماع المنعقد مع وجود مخالفته لا يعتبر حجة عليه، لأنه ليس إجماعا شرعيا متوافر الشروط بالنسبة له.

ـــ إقرار غير العدل في حق نفسه مقبول ومعتبر، فكذلك يعتبر قوله في حق نفسه، فلا ينعقد الإجماع عليه.

القول الرابع: التفريق بين الداعي لبدعته وغير الداعي، فالداعي لبدعته لا يعتد بخلافه ويعقد الإجماع مع خلافه وغير الداعي فيعتبر خلافه ولا ينعقد الإجماع دونه بشرط أن لا تكون مخالفته في بدعته.

ونسب هذا القول إلى الحنفية، ومما يستدل له:

ـــ إن دعوته إلى بدعته دليل على تعصبه، وبالتالي عدم قبول الحق عند ظهور الدليل لأنه سيميل إلى جانب الهوى، وفي ذلك خفة عقل وسفه، فيتهم في أمر دينه.

ـــ وإذا لم يكن داعية إلى بدعته فإن قوله في غير بدعته يكون معتبرا في انعقاد الإجماع لأن من أهل الشهادة، ولا يقبل قوله في بدعته لأنه يضلل فيه لمخالفته نصا موجبا للعلم.

القول الخامس: يعتد بالمجتهد المخالف مالم تقم عليه الحجة، فإن أقيمت عليه الحجة فلم يرتدع عن بدعته فلا يعتد بخلافه.

واختار هذا القول ابن حزم، وتتلخص حجته بالقول: إن المبتدع المجتهد معذور باجتهاده، وهو وإن ضل في رأيه فإنه مأجور، مالم تقم عليه الحجة، فإن قامت عليه الحجة ولم ينتفع بها فهو إما كافر إذا اعتقد خلاف صريح الشرع، وإما فاسق إن استمر بمخالفة الشرع بفعله لا باعتقاده، و الكافر والفاسق لا تقبل شهادتهما.

يقول المثل الشائع بين العوام: اتفق العرب على أن لا يتفقوا و أنا أقول: اتفق المجتهدين على أن لا يتفقوا و هذا الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه ووقع فيه إجماع ، اجمعوا على أن لا يجمعوا ، وهذا هو الواضح أمامنا، فلم يتفقوا على شروط الإجماع ولا على من يدخل في الإجماع أي مجتهدو الأمة، فكيف يدّعون الإجماع و هم يختلفون في شروطه؟ و كيف يجمعوا وهم يختلفون في من يدخل الإجماع؟؟

فحسب شرح شروط الإجماع و شرح مجتهدو الأمة، فإن الإجماع لم يقع أصلا ولم يطبق، الإجماع فقط في المسائل المعلومة من الدين بالضرورة أي أن مستند الإجماع هو قول الله تعالى، و بما أن "الإجماع" في مسائل حسمها كتاب الله إذن ما حاجته و قيمة الإجماع هنا كما قلنا سابقا؟؟

ثم اعلم – علمّك الله ووفّقك- أن أدلّتهم بعيدة عن الإجماع هذا، فقد استدلوا بآيات من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بأخبار في متنها وسندها مقال، و من أشهر الآيات التي استدلوا بها:

قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } :

لكن لو نرجع إلى سياق الآية كاملا سنرى أنها بمعزل عما ذهبوا إليه، قال تعالى: { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) }

وهذا سياق الآية كاملا، الواضح من سياق الآيةٌ الكامل و مناسبة نزولها أنها تتحدث عن القبلة وتغييرها:

{ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } و المقصود بالسفهاء هم اليهود و غيرهم الذين سخروا من النبي عند تغيير النبي بأمر الله القبلة.

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ }

إذا واضح حسب سياق الآيةٌ أنها نزلت بسبب تحويل القبلة و أما بالنسبة لآيةٌ: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } المقصود بها القبلة، ذلك لأن النصارى يستقبلون الشرق {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} واليهود يستقبلون الغرب {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} أما المسلمين فقبلته الكعبة وتحديد القبلة عن طريق الشمس و ذلك من خلال معرفة أماكن شروق الشمس و غروبها وبالتالي يصبح سهلا بالنسبة للمسلم معرفة اتجاه القبلة شرقا أو غربا أو جنوبا أو شمالا ، فعندما أمر الله المسلمين بتغيير القبلة سخروا منه { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا } جاء الرد من الله { قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

فإن قيل: قد انفردت بهذا التفسير و انفردت برد الاستدلال بهذه الآية على الاجماع.

قلت: قد اكون أول من فسرا بأن المقصود هي القبلة وقد لا أكون كذلك، أما قولك أنني انفردت برد الاستدلال بها على حجية الاجماع فهذا غير صحيح وقد سبقني صاحب التحرير والتنوير رحمه الله، وقد فسر بعض العلماء الأفاضل ومنهم صاحب التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور المفسر المشهور رحمه الله و غيره الوسطَ بالخيريةٌ فقال في تفسيره : الوسط في هذه الآيةٌ فُسِّرَ بالخيار لقوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} وفُسِّرَ بالعدول وقد نفى بهذا التفسير أيضا الاستدلال على الإجماع من هذه الآيةٌ فقال: والحق عندي أن الآيةٌ صريحة في أن الوصف المذكور فيها مد ح للأمة كلها لا لخصوص علمائها فلا معنى للاحتجاج بها من هاته الجهة على حجةٌ الإجماع الذي هو من أحوال بعض الأمة لا من أحوال جميعها، فالوجه أن الآيةٌ دالة على حجيةٌ إجماع جميع الأمة فيما طريقُه النقل للشريعة وهو المعبر عنه

بالتواتر وبما علم من الدين بالضرورة وهو اتفاق المسلمين على نسبة قول أو فعل أو صفة للنبي صلى الله عليه وسلم مما هو تشريع مؤصل أو بيان مجمل مثل أعداد الصلوات والركعات وصفة الصلاة والحج ومثل نقل القرآن، وهذا من أحوال إثبات الشريعة، به فسرت المجملات وأسست الشريعة ، وهذا هو الذي قالوا بكفر جاحد المجمع عليه منه ، وهو الذي اعتبر فيه أبو بكر الباقلاني وفاق العوام واعتبر فيه غيره عدد التواتر، وهو الذي يصفه كثير من قدماء الأصوليين بأنه مقدم على الأدلة كلها. انتهى.

الآية الثانية التي استدلوا بها فهي قوله: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } :

وكما قلت سابقا لفهم الآية علينا العودة لسياقها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)}

فحسب سياق الآية كاملا فالآية بعيدة على ما ذهبوا إليه، فلا علاقة بين الآية والإجماع الشرعي الذي يريدونه، فهذه الآية تتحدث بشكل عام على التآلف والترابط في المجتمع والحث عنه والتأكيد عليه أي وحدة المجتمع أن يكون أفراده كالبنيان المرصوص و أن هذه من نعم الله ان جعلهم اخوانا، وحتى سبب نزول الآية لا علاقة له بالإجماع الشرعي و إنما له علاقة بالترابط وعدم إحياء الفتن الجاهلية، قَالَ زَيْد بْن أسلم: إن شاس بْن قَيْس اليهودي، وَكَانَ شيخا عظيم الكفر، شديد الطعن عَلَى الْمُسْلِمِينَ، مر عَلَى نفر من الأوس والخزرج فِي مجلس جمعهم يتحدثون، فغاظه مَا رأى من ألفتهم وصلاح ذَات بينهم فِي الإِسْلام، بَعْد الَّذِي كَانَ بينهم فِي الجاهلية من العداوة، قَالَ: قَدِ اجتمع ملأ بَنِي قيلة بِهَذِهِ البلاد، لا والله مَا لنا معهم إِذَا اجتمعوا بِهَا من قرار، فأمر شابا من الْيَهُود كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ: اعمد إليهم واجلس معهم، ثُمَّ ذكرهم يَوْم بعاث وَمَا كَانَ قبله، وأنشدهم بَعْض مَا كَانُوا تقاولوا فِيهِ من الأشعار، وَكَانَ بعاث يوما اقتتلت

فِيهِ الأوس مَعَ الخزرج، وَكَانَ الظفر فِيهِ للأوس عَلَى الخزرج، ففعل وتكلم، فتكلم الْقَوْم عِنْدَ ذَلِكَ فتنازعوا وتفاخروا حَتَّى تواثب رجلان من الحيين عَلَى الركب، أوس بْن قبطي أحد بَنِي حارثة من الأوس، وجبار بْن صخر أحد بَنِي سلمة من الخزرج، فتقاولا ثُمَّ قَالَ أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددتها الآن جذعة.

وغضب الفريقان جميعا، وَقَالا: قَدْ فعلنا السَّلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، وَهِيَ حرة.

فخرجوا إِلَيْهَا، وانضمت الأوس والخزرج بَعْضها إِلَى بَعْض عَلَى دعواهم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجاهلية، فبلغ ذَلِكَ رَسُول اللَّهِ فخرج إليهم فيمن مَعَهُ من المهاجرين حَتَّى جاءهم، فَقَالَ: " يا معشر الْمُسْلِمِينَ، أبدعوى الجاهلية وأنا بَيْنَ أظهركم بَعْد إذ أكرمكم اللَّه بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟ تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كنتم عَلَيْهِ كفارا؟ اللَّه اللَّه ! "

فعرف الْقَوْم أَنَّهَا نزغة من الشَّيْطَان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بَعْضهم بَعْضًا، ثُمَّ انصرفوا مَعَ رَسُول اللَّهِ سامعين مطيعين، فأنزل اللَّه تَعَالَى فيهم هذه الآية، { يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } قَالَ جَابِر: فَمَا رأيت قط يوما أقبح أولا وأَحْسَن آخرا من ذَلِكَ اليوم، ثُمَّ قَالَ اللَّه تَعَالَى عَلَى وجه التعجب: { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ} يَعْنِي: وَلَمْ تكفرون؟ { وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ } الْقُرْآن، { وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، قال قَتَادَة: فِي هذه الآية علمان بينان: كتاب اللَّه ونبي اللَّه، أما نبي اللَّه فَقَدْ مضى، وَأَمَّا كتاب اللَّه فأبقاه بَيْنَ أظهركم رحمة من اللَّه ونعمة.

الآية الثالثة التي استدلوا بها فهي قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} :

والتي سنرى سياقها كاملا: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)} حتى هذه الآيةُ التي يستدلون بها هي بمعزل عما ذهبوا إليهُ ونزلت هذه الآيةُ بسبب سرقة طعمة بن أبيرق درع لعبادة بن النعمان : نزلت في رجل يقال له طعمة بن أبيرق، سرق درعا فاستودعها يهوديا، فوجدت عنده، فقال: استودعنيها طعمة بن أبيرق، فأنكر وقال: إنما سرقها اليهودي، فاجتمع قوم طعمة وقوم اليهودي، فانطلقوا إلى النبي وكان هوى رسول الله مع طعمة، فنزل قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ} القرآن، {بالحق}: لا بالتعدي في الحكم، {لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} بما علمك الله، {وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} الخصيم: الذي يخاصمك. أي: لا تكن مخاصما، ولا دافعا عن خائن، يعني: طعمة وقومه، {واستغفر الله}: قال السدي: مما أردت من الجدال عن طعمة، وقال ابن عباس: من همك بقطع اليهودي، {وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ} يعني: طعمة ومن عاونه من قومه وهم يعلمون أنه سارق.

وقد صرحت الآية بالنهي عن المجادلة عن الظالمين، ألا ترى أن رسول الله قد جادل عن طعمة على غير بصيرة فعاتبه الله بهذا، وأمره بالاستغفار، ونهاه عن المعاودة إلى مثله، فما ظنك بمن يعلم ظلم الظالم

ثم يستجيز معاونته؟ وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} أي: خائنا فاجرا، وذلك أن طعمة خان في الدرع، وأثم في رميه اليهودي.

قوله جل جلاله: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ} الاستخفاء: الاستتار، يقال: استخفيت من فلان.

أي: تواريت منه، والمعنى: يستترون من الناس، يعني: طعمة وقومه كيلا يطلعوا على كذبهم وخيانتهم، {ولا يستخفون}: ولا يستترون {مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ} أي: عالم بما يخفون وما يعلنون، قوله جل جلاله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ} الآية، قال ابن عباس: ثم حكم رسول الله على طعمة بالقطع، فهرب ولحق بالمشركين، فنزل قوله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ} أي: خالفه، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى} ظهر له أن دين الله الإسلام، وأن ما أتى به محمد حق وصدق، {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} غير دين الموحدين، وذلك أن طعمة ترك دين الإسلام، وخالف المسلمين، {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى} ندعه وما اختار لنفسه ، فاتّضح أن معنى آية {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} لا علاقة لها بالإجماع وإنما لها علاقة بالكفر والإيمان، أما قوله وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} وقوله نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا كقوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} والقرآن يفسر بعضه بعضا.

الآية الرابعة فهي قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} :

وسياقها الكامل: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)}

{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} المقصود بهذه الآية هو أن الرسول مشرع بأمر من الله و ما أنزل الله عليه من تبيان للناس من حلال و حرام و الرسالة عامة فمن أطاع الرسول صلى الله عليه و سلم فقد أطاع الله لأن الرسول يبلغ الرسالة الإلهية كقوله سبحانه في سورة النور الآية 54 : {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} من تولى أي اتبع غير هذا السبيل فما أرسلناك عليهم حفيظا أي أنك لست ملزم بهم فما على الرسول إلا البلاغ، وإذا احتجوا بها في الإجماع فأقول: إذا أرادوا تطبيق الآية في الأمور القطعية التي حسمها القران فلا مشكلة لدي ولا نحتاج للإجماع لتطبيقها أصلا، أما إذا أرادوا الاحتجاج بها في الأمور القابلة للاجتهاد و الذي لم يتفق عليها كل طوائف الأمة فاحتجاجهم بها باطل لأنهم يخرجوا الطوائف الذين لهم رأي مخالف من هذه الأمة و هذه طامة كبرى.

{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، أي المنافقين، عندما يكونون في حضرت المصطفى صلوات ربي و سلامه عليه يظهرون الطاعة و إذا برزوا من عندك أي إذا خرجوا من عندك و انفردوا قال البعض منهم غير الذي كانوا يقولون أي غير الذي يظهروه لك، والله يكتب ما يبيتون أي يعلمه و يكتبه الملائكة الحافظين، فأعرض عنهم أي اصْفَحْ عَنْهُمْ وَاحْلُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَلَا تَكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ أَيْضًا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا أي كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، قال الشافعي رضوان الله عليه: "أبى الله أن يتم إلا كتابه" وصدق! فقارن معي هذه الآيات: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، و هذه : {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} و هذه : {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} و مقولة

الشافعي مقارنة بقول أحدهم السنة قاضية على الكتاب وليس الكتب بقاض على السنة [كبرت كلمة تخرج من أفواههم].

{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} وهي بعيدة كل البعد عن الإجماع و لا علاقة لها أصلا بالعلماء ! الآية تخص أمر دنيوي أو حالة اجتماعية حتى لو استعملت في غير هذا الموضع قد تستعمل سياسي عند اكتمال السياق (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) إذا واضح الآية تخص حالة اجتماعية، و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به و الآية تصف حالة سكان المنطقة أو الشعب، و كما جاء في تفسير ابن كثير (إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحَقُّقِهَا، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُفْشِيهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ) {وَلَوْرَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ}، "لم يقل و لو ردوه إلى الله و رسوله لأنه قضية دنيوية سياسة في الحرب و السلم، و من الطبيعي في هذه الحالات أن القرار يرد لصاحب الأمر أو للقائد و هو الرسول و إلى أولي الأمر منهم أي إلى المختصين الموكلين من طرف القاضي كالقائد العسكري مثلا إذا كانت القضية عسكرية و اذا كانت القضية مدنية اسأل المسؤول (جامع الصدقات..الخ) ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم أي لعلمه الذين وكلهم القائد الأعلى وهو الرسول".

هذه الآيات التي استدلوا بها هي بعيدة كل البعد عن الإجماع الذي يريدونه والآيات نزلت لأسباب وأحداث وتتحدث عن أشياء أخرى غير الذي ذهبوا إليه وقد فرغنا منها.

أما استدلالهم بالأخبار فلا يكاد يصح واحد منهم سندا أما متنا ففيه مقال:

حديث لا تجتمع أمتي على ضلالة:

حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ عُثْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا مُعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ السَّلَامِيُّ، حَدَّثَنِي أَبُو خَلَفٍ الْأَعْمَى، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: " إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ"

وهذا الحديث ضعيف، لم يخرجاه البخاري و مسلم، و إجمالي أسانيد هذا الحديث 64 سند حسب ما توصلت له، معظم أسانيده فيها علل، فهذا الحديث في سنن ابن ماجة فيه معان بن رفاعة السلامي وهو ضعيف الحديث و حازم بن عطاء البصري متهم بالكذب، وجاء هذا الحديث في تاريخ دمشق لابن عساكر فيه محمد بن الحسن الأهوازي وهو كذاب وفيها معان بن رفاعة السلامي الذي ذكرناه سابقا وهو ضعيف الحديث وفيها حازم بن عطاء البصري أيضا ذكرناه سابقا وهو متهم بالكذب، وجاء هذا الحديث في أخبار أصبهان لأبي نعيم، فيه سنده محمد بن بكر بن عيسى وهو مجهول، و عثمان بن عبد الله الأموي هو كذاب وضاع، وجاء في حديث أبي نصر بن شاه، في سنده محمد بن الشاه وهو مجهول، و محمد بن أيوب بن بكر مجهول أيضا، وفيها عثمان بن عفان القرشي وهو وضاع يضح الحديث، و جاء في مسند عبد بن حميد و إتحاف الخيرة المهرة و السنة لأبي عاصم و الكنى و الأسماء للدولابي وتاريخ دمشق لابن عساكر وتهذيب الكمال للمزي و الإبانة الكبرى لابن بطة و الثالث من الحديث لأبي العباس الأصم و في كل طرقهم حازم بن عطاء البصري المتهم بالكذب و في الفقيه و المتفقه للخطيب البغدادي في حازم بن عطاء البصري المتهم بالكذب و معان بن رفاعة السلامي وهو ضعيف الحديث و في طريق آخر فيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب ذاهب الحديث و فيها أحمد بن الفضل البهراني وهو متروك الحديث، و الطرق السليمة نوعا ما من 64 هي ثلاث طرق أو أسانيد، الأول في المستدرك على الصحيحين وفيه عبد الرزاق بن همام الحميري وقيل أنه اختلط وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه ولا يحتج به وقال النسائي فيه نظر، لمن كتب عنه ووثقوه جماعة، والطريق الثاني و الثالث في حلية الأولياء لأبي نعيم الأول كل رجاله ثقات و الآخر فيه قبيصة بن عقبة السوائي (أبو عامر)، وروى هذا الحديث عن سفيان الثوري و تكل الحديث في حديثه عن سفيان الثوري فإنه سمع منه وهو صغير، فقال يحي بن معين ثقة في كل شيء إلا في حديث سفيان ليس بذاك القوي، فإنه سمع منه وهو صغير، فهذا الحديث لا يصح أن يستدل به في مسألة أصلا على أن يستدل به على مصدر تشريع، هذا من جهة السند أما من جهة المتن إن صح فإن معناه عندي أنه لا علاقة له بالإجماع في وانما معناه أنه مستحيل أن تجتمع كل الأمة على ضلالة فردا فردا ولو اتفقت كل الامة على ضلالة إلا رجل واحد لم يقل بها من هذه الأمة لبطل اجماعهم، وكذا الطائفة.

حديث من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة الجاهلية:

ـ حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنِ الْجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: " مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً "

وهذا الحديث أخرج البخاري وغيره واجمال أسانيد هذه الرواية حوالي 41 سند، وروى البخاري أيضا هذه الرواية بلفظ السلطان بدل الجماعة: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنِ الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: " مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً "

الحديثين في الصحيحين و غيرهما، لكن هل الحديث يتحدث عن الإجماع الشرعي في المسائل الفقهية أم في أمر سياسي؟، الواضح أنه أمر سياسي بحت لا علاقة للفقه والعقيدة فيه أصلا، ثم أن الحديث متنه منكر جدا، حديث استبدادي يستحيل أن يصدر من نبي ولا يقبله من له ذرة كرامة، و الحديث واضح جدا أنه غرضه سياسي بحت فهذا الحديث يعجب جدا العباسيين، يعجب جدا الخليفة العباسي المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد، و تعجب الخليفة العباسي الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم الذي كانت هناك ثورات في عهده و سائر الخلفاء في عهده، ولا ننسى أن الحديث ازدهر في بلاط العباسيين و كانت هناك عدة ثورات من الهاشميين و غيرهم فكان يجب وضع مثل هذا الحديث، فبهذا الحديث يعني أن الإمام الحسين مات ميتة جاهلية لأنه خرج على ذلك الدّعي ابن الدّعي يزيد بن معاوية لعنه الله، وأن الإمام زيد مات ميتة جاهلية أيضا، نعوذ بالله من قول كهذا، فهذا الخبر لا يصح عقلا وهو مخالف لسيرة النبي وأحفاده ومخالف للفطرة.

حديث من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ إِسْمَاعِيل أَبُو الْمُغِيرَةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ فِينَا، فَقَالَ: " أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ، حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ،

عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ "

الحديث أخرج الترمذي في جامعه و أحمد في مسنده و ابن حبان في صحيحه و الحاكم النيسابوري في مستدركه على الصحيحين و غيرهم، أولا الحديث كما سابقه لا علاقة له بالإجماع الفقهي و إنما السياسي و هو كغيره من الأحاديث التي نسبت إلى ابن عمر عن الانبطاح للسلطان و هو بريء منها، ثم أن الحديث مختلط ليس متزن، أي لا يتحدث عن موضوع واحد أو مواضيع عدة لكن تتفق عند نقطة الانتهاء، يوصي بالصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يقفز إلى الكذب ثم يقفز إلى الخلوة بالمرأة ثم يقفز إلى لزوم الجماعة ثم يقفز إلى تعريف المؤمن؟ حديث متخبط جدا، ثالثا من أراد بحبوحة الجنة فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بالله شيئا و يقيم صلاته و وينفق في سبيل الله وغيرها من الأعمال الصالحة، فهل سيدنا الحسين سيدخل النار لأنه لم يلزم الجماعة وخرج على يزيد؟ وهل رأس النواصب معاوية يدخل النار لأنه لم يلزم الجماعة وخرج على إمامه علي؟ الأحمق أو الساذج و من يعبد السلطان فقط من يصدق هذه الأحاديث الديكتاتورية، من قرأ التاريخ كيف تحولت خلافة الراشدين إلى ملك و كيف يورث والثورات التي حدثت و متى ازدهر الحديث، و كيف كان بعض المحدثين يتوددون للسلاطين، و من له ذرة حرية وكرامة يعرف حقيقة هذه الأحاديث الموضوعة.

حديث لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى قيام الساعة:

حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: " لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ "

- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَأَبُو الرَّبِيعِ الْعَتَكِيُّ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ وَهُوَ ابْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ "

أولا الحديث قال طائفة من أمتي، و في أحاديث أخرى قوم من أمتي، يعني ليس كل الأمة، و الإجماع الشرعي الذي يتحدثون عنه يدخل فيه كل الأمة لا طائفة واحدة، ولو قلنا أنه على الحق و لا يحتاج إذا

إجماع غيرهم من أمة محمد لأنهم على الباطل أو ضلال، فلا يحتاج إجماع هنا أصلا، ثم أنهم اختلفوا (كعادتهم) في تحديد هذه الطائفة، في شرح حديث الطائفة الظاهر في شرح النووي على مسلم بقوله : وَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَةُ فَقَالَ الْبُخَارِيُّ : هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْهُمْ؟ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَدُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، قُلْتُ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هذِهِ الطَّائِفَةَ مُفَرَّقَةٌ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ شُجْعَانٌ مُقَاتِلُونَ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاءُ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ، وَمِنْهُمْ زُهَّادٌ وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمَعِينَ بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أقطار الأرض، و الحقيقة أن هذا الحديث يناقض حديث صحيح آخر مناقضة صريحة، فهذا الحديث يقول أن الساعة تقوم على طائفة قائمة بالحق، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ أي حتى قيام الساعة كما في حديث آخر في مسلم لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ " إذن حسب هذا الحديث أن الساعة تقوم على طائفة على الحق أي تقوم على أناس صالحين، لكن هناك حديث آخر في صحيح مسلم أيضا يقول بعكس هذا، يقول أن الساعة تقوم لا تقوم إلا على شرار الخلق أي تقوم الساعة على أناس أشرار ليسوا صالحين، حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمِّي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيُّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ يَا عُقْبَةُ: اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَمُ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ "، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَجَلْ، " ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ " ، وهذا هو التناقض بعينه، وليس يقول بهذا إلا حشوية الناس ومن له غاية عند الحاكم.

حديث الجماعة رحمة و الفرقة عذاب:

- أَخْبَرَنَا أَبُو سَعْدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَالِينِيُّ، أنبا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِيٍّ الْحَافِظُ، ثنا الْحَسَنُ بْنُ حُبَابٍ هُوَ ابْنُ مَخْلَدٍ، ثنا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ، ثنا أَبُو وَكِيعٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ: " الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ "

الحديث فيه أبي وكيع وهو الجراح بن مليح الرؤاسي، هو صدوق يهم، قال أبو الفتح الأزدى يتكلمون فيه ، وليس بالمرضي عندهم وقال أبو حاتم بن حبان البستي: يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، قال الذهبي كان فيه ضعف وعسر الحديث، ووثقه الطياليسي و الفسوي و السجستاني، الأكثرية ضعفوه و قال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه ، ولا يحتج به و الحديث فيه أَبي عبد الرحمن وهو مجهول، وجاء الحديث في التلخيص المتشابه في الرسم للخطيب البغدادي و في سنده بشر بن يسار وهو مجهول وفيه الجراح بن مليح الرؤاسي و قد ذكرنا حاله، وجاء في الإبانة الكبرى لابن بطة، وفي سنده أبو عبد الرحمن التميمي وهو مجهول و الجراح بن مليح الرؤاسي أيضا ذكرناه، وجاء في السنة لأبي عاصم من طريقين و في اعتلال القلوب للخرائيطي من ثلاث طرق كلها فيها الجراح بن مليح الرؤاسي، فهذا الحديث لا يصح سندا أصلا، ومتنه لا علاقة له بالإجماع وإنما بتوحيد المسلمين واثبات الأخوة، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا }

وهذا وقد وضّحنا تهافت الأخبار التي أسسوا عليها الإجماع وأنها لا تصح سندا ومتنا، وقد بيّنا قبل هذا المغالطات في تأويل الآيات وأن تلك الآيات لا تدل على الإجماع، وقد بيّنا قبل هذا كله بطلان حدوث الإجماع عقلا واختلافهم في شروطه و من هم المجتهدين، ثم استغلوا لفظ الإجماع لتهويل بعض الاجتهادات وتقديس بعض المذاهب وهذا ما حدث، وقد ذكر إمام مسجد الشورى في النمسا، شيخنا عدنان إبراهيم حفظه الله هذا في أحد دروسه التي استمعت لها فقال أن بعضهم (وهو ابن هبيرة) يرى اجماع الأمة على المدارس الفقهية رغم اختلافهم فقال: يقول الإمام ابن هبيرة الوزير رحمه الله: أجمعت الأمة على أن الحق لا يعدوا المذاهب الأربعة، في نطاق أهل السنة وحده (بدون مذهب الإمام الصادق و الإمام زيد و الإمام عبد الله ابن اباض) في ذلك النطاق الزمني كان هناك الإمام سفيان الثوري و سفيان

ابن عيينة و الليث بن سعد و الاوزاعي و أبو ثورة و الأصفهاني الظاهري..الخ يعني علماء كثيرون (أكثر من 12 مذهبا سنيا) ثم يقولك أجمعت الأمة على أن الحق لا يعدوا المذاهب الأربعة؟؟ كيف أجمعت الأمة و أنت في المقابل لديك مذاهب سنية أخرى تختلف و لديك مذهب الإمام جعفر الصادق و مذهب زيد و مذهب ابن اباض، فهل يمكن أن ينسلك في ذهن أي إنسان عاقل أن الزيدية والامامية و الاباضية أجمعوا على أن الحق لا يعدوا المذاهب الأربعة؟؟ و هم خالفوها في مسائل كثيرة؟.

قلت: هذا من الخرف والتناقض واقصى درجات التعصب، فقد أخرج المذاهب الأخرى من الأمة المحمدية بجملة واحدة، ومن غرائب هذه الإجماعات أيضا إدعائهم بأن أصح كتاب بعد القرآن صحيح البخاري ثم صحيح مسلم وقد تلقتهم الأمة بالقبول وأن كل ما فيهم صحيح، وهذه كذبة صلعاء، وهذه الجملة تدور بين ألسن العامة أيضا وهذا هو التضليل، هذه العبارة أكبر كذبة في عصر المسلمين الحديث أيضا، هذا الإجماع لم يصح، الاباضية و الشيعة من الأمة ولم يتلقوه بالقبول ورد أعلام المعتزلة كثير من الروايات فمتى حدث هذا الإجماع؟ وقد نقض هذا الكلام بعض أعلام المذاهب السنية الأربعة، فقد نقض ابن برهان مقولة أن كل ما في الصحيحين صحيح في كتابه الوصول إلى الأصول الجزء 2 صفحة 172، 173، 174 فقال: "خبر الواحد لا يفيد العلم، خلافا لبعض أصحاب الحديث فإنهم زعموا أن ما رواه مسلم والبخاري مقطوع بصحته" وقال: "ولأن البخاري ليس معصوما عن الخطأ فلا نقطع بقوله، لأن أهل الحديث و أهل العلم غلطوا مسلما والبخاري وثبتوا أوهامهم، ولو كان قولهما مقطوعا به لاستحال عليهما ذلك" وقال: "ولا عمدة للخصم إلا أن الأمة أجمعت على تلقي هذين الكتابين بالقبول و اتفقوا على العمل بهما، وهذا لا يدل على أنهما مقطوع بصحتهما، فإن الأمة إنما عملت بهما لاعتقادهما الأمانة والثقة في الرواية، وليس كل ما يوجب العمل به كان مقطوعا بصحته"، وقال الكافيجي في كتابه المختصر في علم الأثر صفحة 167: إن ما اتفق عليه الشيخان من الصحيح يفيد الظن بصحته وبمضمونه مالم يتواتر خلافا للبعض لكونه من قبيل غير المتواتر فظهر ضعف قول من قال إنه يفيد القطع بصحته لاجتماع الأمة على تلقيه بالقبول، حتى أن إمام الحشوية ونوابت الحنابلة نقض بعض الروايات في الصحيحين وذم من تعصب لهم حيث قال في السلسلة الصحيحة الجزء السادس صفحة 93 بعد أن أنكر حديثا فقال: هذا الشذوذ في الحديث مثال من عشرات الأمثلة التي

تدل على جهل بعض الناشئين الذين يتعصبون لصحيح البخاري وكذا لصحيح مسلم تعصبا أعمى، ويقطعون أن كل ما فيهما صحيح، ويقال هؤلاء بعض الكتاب الذين ل يقيمون للصحيحين وزنا.."، و غيرهم من ضعفوا أحاديث في الصحيحين الكثير حتى من المعاصرين والمتأخرين، كالشيخ المحدث عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري قال: "فكم حديث صححه البخاري ومسلم فأخرجاه في الصحيحين وهو ضعيف أو باطل موضوع فعليك بالاجتهاد في كل شيء" و أحمد الصديق الغماري و الشيخ محمد زاهد الكوثري الحنفي. فليت شعري أين وقع الإجماع هنا؟ أم أن هؤلاء العلماء مارقين خرجوا عن الجماعة؟

ومن أشنع إجماعاهم وقبحها اجماعهم على أن عورة المرأة الأمة كعورة الرجل وليست كعورة المرأة الحرة وهذا اجماع المذاهب الأربعة الا المالكية الدي فيه بعش المنطق الذين يرونه حجة على الأمة، فذهب أتباع المذهب الحنفي أن الأمة (الرقيقة) كالرجل في العورة، مع ظهرها وبطنها وجنبها، لقول عمر رضي الله عنه: "ألق عنك الخمار يا دفار، أتتشبهين بالحرائر"، ولأنها تخرج لحاجة مولاها في ثياب مهنتها عادة، فاعتبرت كالمحارم في حق الأجانب عنهن دفعا للحرج، أما المالكية فعورة الأمة هي السوأتان مع الأليتين، فإذا انكشف منها شيء من ذلك أو كشفت فخذا كله أو بعضه، أعادت أبدا في الوقت، كالرجل، ووقت الإعادة في الظهر والعصر للاصفرار، وفي المغرب والعشاء: الليل كله، وفي الصبح لطلوع الشمس، وأما الشافعية فعورة الأمة كالرجل في الأصح، إلحاقا لها بالرجل بجامع أن رأس كل منهما ليس بعورة، ولأن الرأس والذراع مما تدعو الحاجة إلى كشفه، وأما الحنابلة فعورة الأمة كالرجل: ما بين السرة والركبة على الراجح، لحديث عمرو بن شعيب السابق مرفوعا: "إذا زوج أحدكم عبده –أمته أو أجيره– فلا ينظر إلى شيء من عورته، فإن ما تحت السرة إلى ركبته عورة" ، هذا الإجماع قد رده ابن حزم ونسفه، ومثل هذه الإجماعات الغير إنسانية العنصرية والباطلة مستحيل أن تأتي من عند الله والواجب البراءة منها.

بعد أن ذكرت رأيي شيخنا النظّام وبرهنت بحججي وأوضحت مقصده وأنتصرت لرأيه، فأقل أخيرا: لا يحل لأحد أن يدعي الإجماع في أي مسألة ليست من المسلمات ومما لا تثبت بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة التي لا تردد فيها، ومن يدّعي هذا سوى المجنون الذاهب عقله، فلو أن رجلا استظهر بالثقلين

فلن يقدر على طرح اجماع واحد لكل الأمة في مسألة من المسائل التي ادعوا فيها الإجماع والتي هي خلاف بين هذه الأمة، فقد صدق الإمام أحمد رحمه الله حين قال: من ادعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه لعل الناس قد اختلفوا، فاتفاق بعض العلماء أو المذاهب الأربعة أو الزيدية و الامامية على مسألة هذا لا يعد إجماعا، وملخص الإجماع كما ذكرنا سابقا أنه يستحيل من جهة ولا أهمية له من جهة، أما وجه استحالته فيستحيل اجماع الأمة باختلاف عقائدها ومذاهبها على المسائل الفرعية، ألا ترى أن الخلاف باقي منذ قرون على مسألة رؤية الله و مفهوم الشفاعة وغيرها بين هذه الأمة إلى اليوم وإلى يوم القيامة سيبقى هذا الخلاف، فالإجماع هنا مستحيل عقلا وهذا ما يشهد له الواقع، أما الإجماع في المسائل الأصول أو المعلومة بالضرورة كالقول بأن الله واحد لا شريك له وأن القرآن كتاب الله و المسائل الغيبية التي ذكرها القرآن كالجنة والنار ويوم البعث وغيرها والتي كفر من أنكرها فهي لا تحتاج إجماع أصلا فهذه من المسلمات ومن المسائل المفروغ منها فما حجة الإجماع هنا والنص القرآني واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، وبعدها أخذ الإجماع طريق آخر فغلّفوا بعض المسائل به، فكم من رجل مجتهد ذكر في كتب التاريخ قتل لأنه تحدث في مسألة أقلقت السلطة فقتل بسبب اجتهاده فإن ثارت العامة يقال لهم أنهم رأيه خالف الإجماع في هذه المسائل فمن خالف آراء الإجماع فهو و كافر! و التكفير بفكرهم يساوي الردة و الردة بفكرهم أيضا يعني ضرب رقبتك ! فأنت حلال الدم الآن، فمذ كثر التشدق بالإجماع توقف العقل المسلم عن الإبداع والاجتهاد، فأصبح العلماء والفقهاء حتى الآن مجرد مقلدين، يقلد عن شيخه و شيخه يقلد عن شيخه....الى أخره، و كل من يأتي برأي جديد يتهم بالزندقة أو انه مبتدع كما حدث لشيخنا النظّام.

[القياس]

أما القياس فإنه كان ينفي القياس في مسائل الفقه، لكن كثير ما كان يستعمله في أمور خارج الفقه كاستعماله في مناظراته مع في دقيق الكلام وجليله لاثبات التوحيد مثلا، فيقول شيخنا الجاحظ: وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنّه، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله. فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنّه كان يظنّ ثمّ يقيس عليه وينسى أنّ بدء أمره كان ظنّا فإذا أتقن ذلك وأيقن، جزم عليه، وحكاه عن صاحبه

حكاية المستبصر في صحّة معناه. ولكنّه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت. وكان كلامه إذا خرج مخرج الشّهادة القاطعة لم يشكّ السامع أنّه إنّما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينة قد بهرته.[145]

قال أبو إسحاق: فإذا كان المتكلم لا يعرف القياس ويعطيه حقه فرأى أنّ العود حين احتكّ بالعود أحدث النار فإنه يلزمه في الدخان مثل ذلك، ويلزمه في الماء السائل مثل ذلك. وإن قاس قال في الرّماد مثل قوله في الدخان والماء. وإلا فهو إما جاهل، وإمّا متحكم.[146]

يقول نشوان الحميري: واختلفوا في جواز القياس في الشرعيات، فأجازه الفقهاء وجمهور الأمة، ومنع منه النَّظّام وبعضُ الخوارج والرافضة وأصحاب الظاهر، فأما النظام: فلا يرى الأخذَ إلا بالكتاب والتواتر، وينفي ما عدا ذلك على حكم العقل.[147]

ويقول أبو الحسين: وَمِنْهَا مَا احْتج بِهِ النظام من أَن الله عز وَجل قد دلّ بِوَضْع الشَّرِيعَة على أَنه منعنَا من الْقيَاس لِأَنَّهُ فرق بَين المتفقين وَجمع بَين المفرقين فأباح النّظر الى شعر الْأمة الْحَسْنَاء وحظر النّظر إِلَى شعر الْحرَّة وَإِن كَانَت شوهاء وَأوجب الْغسْل من الْمَنِيّ دون الْبَوْل وَأوجب على الطَّاهِر من الْحيض قَضَاء الصّيام دون الصَّلَاة وَأجَاب قَاضِي الْقُضَاة رَحمَه الله عَن ذَلِك بأَشْيَاء مِنْهَا أَن الْقيَاس يَقْتَضِي الْجمع بَين الشَّيْئَيْنِ فِي الحكم واختلافهما فِيهِ إِذا اشْتَركَا أَو افْتَرقَا فِي علته لَا فِي الصُّورَة وَلم يبين النظام أَن شعر الْحرَّة وَالْأمة قد اشْتَركَا فِي عِلّة التَّحْرِيم أَو الْإِبَاحَة حَتَّى يكون وُرُود الشَّرْع بالتفرقة بَينهمَا ورودا بِمَا يمْنَع من الْقيَاس، وللنظام أَن يَقُول غرضي بِمَا ذكرته الْإِبَانَة عَن أَن الشَّرِيعَة قد شهِدت بابطال أماراتكم لِأَن الشَّرِيعَة لَو حظرت النّظر إِلَى شعر الْحرَّة وَلم تذكر الْأمة لقلتم إِنَّمَا حظرت ذَلِك خوف الْفِتْنَة وَذَلِكَ قَائِم فِي شعر الْأمة الْحَسْنَاء فَيحرم النّظر إِلَيْهِ ولكان ذَلِك من اقوى مَا تذكرونه من أماراتكم فِي الْقيَاس فاذا شهِدت الشَّرِيعَة بابطاله فقد صَحَّ قولي إِن وَضعهَا يمْنَع من الْقيَاس وَمِنْهَا أَن ذَلِك لَو منع من الْقيَاس الشَّرْعِيّ لمنع من الْقيَاس الْعقلِيّ لِأَن الْأَحْكَام الْعَقْلِيَّة قد تخْتَلف فِيهَا الْأَشْيَاء المتفقة وتشترك فِيهَا الْأَشْيَاء المتباينة وللنظام أَن يَقُول الاحكام الْعَقْلِيَّة لَا تشترك فِيهَا الْأَشْيَاء المتباينة فِي علل تِلْكَ الْأَحْكَام وَلَا تفترق فِيهَا الْأَشْيَاء المتفقة فِي عللها وَأَنا قد أريتكم أَشْيَاء متفقة فِي أَمْثَال

---

[145] الحيوان ج2 ص 371

[146] الحيوان ج5 ص 6

[147] شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ج8 ص 5697

عللكم وأماراتكم وَهِي متباينة فِي أَحْكَام تِلْكَ الامارات فَكَانَ فِي ذَلِك بطلَان قَوْلكُم وَلم توجدوني مثله فِي العقليات وَمِنْهَا أَن قَالَ أَكثر مَا يَقْتَضِيهِ وضع الشَّرِيعَة أَن تخْتَلف أَحْكَام الْأَشْيَاء فَيكون الْقيَاس عَلَيْهَا يثبت أحكاما متضادة فِي الْفُرُوع وَلَيْسَ ذَلِك يمْتَنع عندنَا إِذا كَانَ الْمُكَلف مخيرا فِيهَا وللنظام أَن يَقُول مَا التزمتموه خَارج عَمَّا رمته لِأَن الَّذِي رمته هُوَ وُرُود الشَّرِيعَة بِمَا يُخَالف مقايستكم فِي التَّسْوِيَة والتفرقة ليَصِح أَن وَضعهَا يمْنَع من الْقيَاس وَلَيْسَ غرضي أَن أبين أَن الْقيَاس يَقْتَضِي أحكاما متضادة فِي الْفَرْع فتجيبوني بِالْتِزَام ذَلِك.[148]

وقال أيضا فِي بَاب فِي النَّص على عِلّة الحكم هَل هُوَ تعبد بِالْقِيَاسِ بهَا أَو لَا بُد من تعبد زَائِد على النَّص على الْعلَّة - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

اخْتلف النَّاس فِي ذَلِك فَقَالَ الجعفران وَبَعض أهل الظَّاهِر لَيْسَ النَّص على الْعلَّة تعبدا بِالْقِيَاسِ بهَا وَقَالَ أَبُو اسحاق النظام وَهُوَ ظَاهر مَذْهَب الْفُقَهَاء وَقَول بعض أهل الظَّاهِر إِن النَّص عَلَيْهَا يَكْفِي فِي التَّعَبُّد بِالْقِيَاسِ بهَا وَالشَّيْخ أَبُو هَاشم أَبُو عبد الله رَحمَه الله إِن كَانَت الْعلَّة المنصوصة عِلّة فِي التَّحْرِيم كَانَ النَّص عَلَيْهَا تعبدا بِالْقِيَاسِ بهَا وَإِن كَانَت عِلّة فِي إِيجَاب الْفِعْل أَو كَونه ندبا لم يكن النَّص عَلَيْهَا تعبدا بِالْقِيَاسِ بهَا المعتمد وَاحْتج المانعون من الْقيَاس بهَا من غير هَذَا التَّفْصِيل فَقَالُوا إِن الْعِلَل الشَّرْعِيَّة إِمَّا أَن تكون وَجه الْمصلحَة وَإِمَّا أَن تكون أَمارَة فان كَانَت وَجه الْمصلحَة وَجب أَن يُوقع الْمُكَلف الْفِعْل لأَجلهَا وَلَيْسَ يجب إِذا فعل الْإِنْسَان فعلا لغَرَض من الْأَغْرَاض وَوجه من الْوُجُوه ان يفعل مَا ساواه فِي ذَلِك الْغَرَض لِأَن من اكل رمانة لِأَنَّهَا حامضة لَا يجب أَن يَأْكُل كل رمانة حامضة وَمن تصدق على فَقير بدرهم لِأَنَّهُ فَقير لَا يجب أَن يتَصَدَّق على كل فَقير فَلَو أوجب الله علينا أكل السكر لِأَنَّهُ حُلْو وَكَانَت حلاوته دَاعِيَة إِلَى اكله لم يجب أَن تَدعُوهُ حلاوة الْعَسَل إِلَى أكله فَلم يجب علينا أكله وَأكل كل حُلْو وَإِن كَانَت الْعلَّة أَمارَة فَمَعْنَى ذَلِك هُوَ أَن وَجه الْمصلحَة يقارنها وَلَا يَنْفَكّ مِنْهَا فاذا ثَبت بهَا ذكرنَا أَن وَجه الْمصلحَة لَا تتبعها الْمصلحَة فِي كل مَوضِع فَكَذَلِك مَا لَا يَنْفَكّ من وَجه الْمصلحَة فعلى هَذَا الْوَجْه ذكر قَاضِي الْقُضَاة رَحمَه الله هَذَا الدَّلِيل وَالْجَوَاب إِن السكر لَو وَجب أكله لِأَنَّهُ حُلْو وَقُلْنَا إِن حلاوته وَجه الْمصلحَة وَالْوُجُوب لم يلْزم أَن يَأْكُل الْمُكَلف السكر لِأَنَّهُ حُلْو فيوقع الْفِعْل لهَذَا الْوَجْه بل يَكْفِي

[148] المعتمد ج2 ص 230

أَن يَأْكُلهُ لِأَنَّهُ وَاجِب وَلَيْسَ من شَرط كَون حلاوة السكر وَجه الْمصلحَة أَن يكون دَاعِيَة إِلَى اكل السكر بل من شَرط كَونهَا وَجه الْمصلحَة أَن يكون أكل السكر يَدْعُو لأَجلهَا إِلَى فعل وَاجِب آخر أَو يصرف عَن قَبِيح وَهَذَا الْقدر كَاف فِي كَون الْحَلَاوَة وَجه الْمصلحَة وَلَو لزم الْمُكَلف أكل السكر لنه حُلْو لم يسْقط عَنهُ وجوب أكل كل حُلْو من حَيْثُ أمكنه أَن يَأْكُل السكر من حَيْثُ أَنه حُلْو وَلَا يَأْكُل مَا ساواه فِي الْحَلَاوَة على مَا ذكره الْمُسْتَدلّ فِي الرمانة لِأَن وجوب الْوَاجِب لَا يقف على كَونه لَا بُد من وُقُوعه من الْمُكَلف بل من شَرط وُجُوبه إِمْكَان وُقُوعه وَإِمْكَان تَركه.[149]

وقال: وَأما أَبُو إِسْحَاق النظام فَلهُ أَن يحْتَج فَيَقُول لَو قَالَ الله عز وَجل اوجبت أكل السكر فِي كل يَوْم لِأَنَّهُ حُلْو لَكَانَ ذَلِك تعليلا لوُجُوبه فِي كل يَوْم ولكانت الْحَلَاوَة فَقَط وَجه الْمصلحَة فِي وُجُوبه فِي كل يَوْم لِأَنَّهُ قصر التَّعْلِيل عَلَيْهَا مَعَ اخْتِلَاف أحوالنا وَلَا يجوز حُصُول وَجه الْوُجُوب أَو الْحسن أَو الْقبْح فَلَا يُؤثر أَلا ترى أَنه لَا يجوز حُصُول الْفِعْل ظلما وَلَا يكون قبيحا وَأَيْضًا فان قدرا من الرِّفْق لَا يجوز أَن يصلح الصَّبِي وَهُوَ على صفة مَخْصُوصَة وَلَا يصلحه مثله مَتى كَانَ الصَّبِي على تِلْكَ الصّفة وَإِذا ثَبت ذَلِك كَانَت الْحَلَاوَة مُؤثرَة فِي الْمصلحَة فِي كل مَوضِع فَوَجَبَ أكل الْعَسَل

وَقد احْتج لهَذِهِ الْمَقَالة أَيْضا بِأَنَّهُ لَو لم يجز الْقيَاس بِالْعِلَّةِ المنصوصة لم تكن للنَّص عَلَيْهَا فَائِدَة وَلقَائِل أَن يَقُول إِن الْفَائِدَة فِيهَا أَن يعلم كَونهَا عِلّة لِأَن الْعلم نَفسه فَائِدَة

وَقَالَ أَيْضا لَو لم يتعبد بِالْقِيَاسِ لعلم كل عَاقل تَحْرِيم ضرب الْوَالِدين من قَول الله تَعَالَى {فَلَا تقل لَهما أُفٍّ} لما نبه الله تَعَالَى على الْعلَّة فاذا نَص عَلَيْهَا فَالْقِيَاس بهَا أولى فَالْجَوَاب إِن كثيرا من النَّاس يَقُول إِن الْمَنْع من ضربهما مَعْلُوم بِاللَّفْظِ لَا من جِهَة الْقيَاس وَمن لم يقل إِن ذَلِك مَعْلُوم بِاللَّفْظِ يَقُول لَو لم يتعبد الله عز وَجل بِالْقِيَاسِ لم أعرف ذَلِك بِالْقِيَاسِ على التأفيف لَكِن أعرفهُ بِالْعقلِ من حَيْثُ أَن ضربهما كفر نعْمَة وَإِنَّمَا يثبت أَن الْمَنْع من التأفيف دَال على تَحْرِيم الضَّرْب إِذا ثَبت أَن الْعلم بِالْعِلَّةِ يَكْفِي فِي التَّعَبُّد بِالْقِيَاسِ فَأَما مَعَ الشَّك فِي ذَلِك فَلَا يُمكن الْمَنْع من ضربهما بِالْقِيَاسِ على التأفيف فأمأ إِذا نَص الله عز وَجل على الْعلَّة وَتعبد بِالْقِيَاسِ فَلَا شُبْهَة فِي جَوَاز الْقيَاس بهَا لأَنا قد بَينا أَن النَّص

[149] المعتمد ج2 ص 235

على الْعلَّة هُوَ تعبد بِالْقِيَاسِ فانضمام تعبد زَائِد يزِيد التَّعَبُّد تَأْكِيدًا وَلِأَنَّهُ لَو لم يجز الْقيَاس بهَا لم يجز الْقيَاس بالمستنبطة فَكَانَ لَا يجوز الْقيَاس أصلا وَفِي ذَلِك وُرُود التَّعَبُّد بِمَا لَا يجوز فعله.[150]

[150] المعتمد ج2 ص 238

باب الأصول

اللـهم ان كنت تعلم انّي لم اقصّر في نصرة توحيدك اللـهم ولم اعتقد مذهبا الا سنده التوحيد اللـهم ان كنت تعلم ذلك منّي فاغفر لي ذنوبي وسهّل عليّ سكرة الموت.

إبراهيم بن سيّار النظّام

اعلم أرشد الله أمرك أن الاعتزال يقوم على خمسة أصول هي: 1- التوحيد 2- العدل 3- الوعد والوعيد 4- المنزلة بين المنزلتين5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ولم تكتمل هذه الأصول الخمسة إلا في وقت شيخنا أبي الهذيل، وتشعبت هذه الأصول أكثر فأكثر)، يقول الإمام أبي الحسين الخيّاط في كتابه الانتصار: وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي.[151]

التوحيد:

اعلم –علّمك الله- أن كلام شيخنا النظّام هو كلام سائر العدلية (المعتزلة والزيدية)، والتوحيد عن شيخنا النظّام هو أن القديم تعالى واحدٌ أحدٌ صمد، ليس كمثله شيء، ولا شبيه ، وأنه على خلاف ما يتوهمه المتوهمون أو يظن الظانون، ولا له ند من الأشياء ولا ضد؛ لأن الند لما يناده مكاف، والضدَّ لما يضاده مناف، وليس من الأشياء ما يكافيه، ولا يضاده فينافيه، وأنه ليس بجسم محدود، ولا شبح مماثل، وأنه بكل مكان على غير اجتنانٍ ولا كينونة كما أثبت ذلك في كتابه المحكم فقال تعالى أنه حي لذاته قائم بذاته: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وقال نافيا عن نفسه الجهة: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} وقال منزّها نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وقال منزها عن نفسه الجهة أيضا: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} وقال مؤكدا أنه القديم الأحد: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وقال في سورة الإخلاص مؤكدا توحيده بآيات شاملة في سورة تعدل ثلث القرآن: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)}، وكان شيخنا النظّام يسخر ويزري المشبهة والمجسمة حيث يقول: هم الذين رووا أن الله عز وجل ينزل عشية عرفة، ويوم النصف من شعبان على جمل أورق، وأنه ينزل في قفص من ذهب، والذين رووا أن أربعة أملاك التقوا، واحداً من المشرق، والآخر من المغرب، وآخر من السماء السابعة، وآخر من الأرضيين السفلى، فقال كل واحد منهم للآخر: أين تركت ربك؟ فقال: من عند ربي جئت!! هم الذين رووا أن حمل العرش من فرق غضب الله

151 الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص 126

يثقل العرش على كواهلهم، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاني ربي في أحسن صورة فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثدي.

قال إبراهيم: ثم يتحدث فقيههم بمثل هذه الأحاديث، ويخبر بمثل هذه الأخبار، ويشهد على الله عز وجل بمثل هذه الشهادة، وهو غير محتفل بذلك ولا مستحٍ منه.[152]

ونزه الله من الجسمية حيث يروون المشبهة أن لله وجه (تعالى الله عن ذلك)، وأشار الاشعري لهذا فقال: والفرقة الثانية منهم يزعمون أنا نقول وجه توسعاً ونرجع إلى إثبات الله لأنا نثبت وجهاً هو هو وذلك أن العرب تقيم الوجه مقام الشيء فيقول القائل: لولا وجهك لم أفعل أي لولا أنت لم أفعل، وهذا قول النظام وأكثر المعتزلة البصريين وقول معتزلة البغداديين.[153]

مسألة في أن للعالم محدثا:

يقول شيخنا النظّام: إن في الكون برهانا على وجوده تعالى[154]، ويقول النظام: إن جميع الحركات متناهية ومحدثة، وكل محدث يحدث عن علة ولا يمكن التسلسل.

إذن، هناك علة أولى، غير محدثة وهي الله.[155]

قلت: وهذه النظرية معروفة في عند النظّام والمعتزلة وغيرهم، ويحب أن يطلق عليها البعض بنظرية المسبب الاول أو المحرك الأول أو السببية، وفي هذا الباب أقول: اعلم أن كل الأجسام محدثة وكل محدث له بداية ونهاية، وكل جسم متحرك إما من مكان إلى مكان أو من حال إلى حال أو من مقدار إلى مقدار لا يوجد جسم ساكن، وكل محدث لابد من محدِث أي صانع أوجده، محال أن يحدث شيء نفسه، فكل مصنوع يستحيل ايجاده لولا وجود صانع له، فإن كان هذا في صنع الساعات والسيارات والحواسيب التي نراها دقيقة فكيف بهذا الكون من كواكب ونبات وجينات دقيقة وغيرها التي تدل على صانع حكيم واجب الوجود، والإنسان واحد من الأدلة على وجود صانع حكيم، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، وفي هذا الصدد قال شيخنا الحسين بن القاسم : "إن سأل سائل مسترشد أو قال قائل ملحد: ما الدليل على الله رب العالمين؟

---

152 الحور العين لنشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 230/ 235

153 المقالات للأشعري ص 189

154 المنية والأمل للقاضي عبد الجبار تحقيق الدكتور سامي النشار ج2: فلسفة وفرق المعتزلة ص134

155 المنية والأمل للقاضي عبد الجبار تحقيق الدكتور سامي النشار ج2: فلسفة وفرق المعتزلة ص 135

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أنا نظرنا الإنسان فإذا هو أقرب الأدلة على نفسه، فلم يخل عندنا من أحد ستة أوجه لا سابع لها:

أ- إما أن يكون خلق نفسه.

ب- وإما أن يكون قديما لم يزل

ج- وإما أن يكون حدث لعلة من العلل

د- وإما أن يكون هملا رسلا لا من علة ولا من خالق

هـ- وإما أن يكون متولدا لم يزل نطفة من إنسان وإنسان من نطفة إلى ما لا نهاية له ولا أصل، ولا غاية ولا أول.

و-وإما أن يكون من خالق محدِث قديم حي قويم.

فإن قلت: إنه أحدث نفسه؛ فهذا محال لأنا وجدناه في حال كماله وبلوغه وحياته عاجزا عن تحسين القبيح من صورته، فعلمنا أنه حال طفوليته وموته وغفلته، ونقصانه وقلته أعجز وأضعف، لأنه إذا عجز في حال الكمال فهو في حال الضعف أحرى بالضعف.

فإن قلت: إنه قديم لم يزل؛ فهذا محال لأنا وجدناه بعد العدم.

وإن قلت: إنه أحدث من علة من العلل؛ فهذا محال لأن العلة لا تخلو في حال إحداثها له من وجهين: إما أن تكون مواتا وغما أن تكون جسما حيوانا؛ فإن كانت حيوانا فيستحيل تدبير الحيوان مثله إذ الحيوان مصنوع، عاجز عن الصنع، وإن كانت العلة مواتا فيستحيل أن ينع الموات إنسانا محكما مدبرا مبقيا مصورا حكيما عالما إذ الموات لا يعي نفسه فضلا عن فعل الحكمة البالغة، والنعمة السابغة.

وإن قلت: إنه حدث من غير محدث ولا من علة هملا رسلا فهذا من أحوال المحال، وأبطل الباطل، وأفسد المقال، لأنه إذا حدث من غير علة ولا محدث لم يخل أنه أحدث من العدم أو من نفسه.

وإن قلت: إنه حدث بالتولد نطفة من إنسان، وإنسانا من نطفة إلى ما لا نهاية له ولا أصل ولا بدء ولم يزل شيء من شيء؛ فهذا محال لأنك قد أقررت بما شاهدت من حدثه ثم نقضت يقينك بالظن الكاذب فقلت: لا أصل للمحدث ولا بداء، وهذا المحدث لم يزل شيئا، فقولك محدث يقين، وقولك قديم ظن.

– دليل آخر: أنا نجد في المحدث آثار الحكمة بعد عدمها، ويستحيل أن تكون الحكمة الحادثة قديمة أزلية.

– دليل آخر: أنا وجدنا الإنسان فرعا ولا بد لكل فرع من أصل، ويستحيل فرع من غير أصل.

فإن قلت: إنه أحدث من العدم فهذا محال بيّن الفساد، لأن العدم لا يوصف بالإيجاد، لأن العدم لا شيء، والفاعل لا يكون إلا موجودا مدبرا، حكيما مقدرا، لأن قولك لا يحدث شيئا نفي للمحدث والمحدِث، لأن لا شيء عدم، والشيء وجود، والعدم ليس بعامد ولا معمود، ولا شيء سوى اللفظ مقصود، وإنما قولنا عدم نريد النفي لهذا الاسم، وإذا كان هذا المحدث عدما قبل حدوثه فالعدم لا شيء، ولا شيء لا يكون شيئا بغير شيء، لأنك إذا قلت: معدوم بعدم بمعدوم نفيت الجميع إذ كله باطل محال، وعبث من صاحب المقال، وإلا فما الذي جعل وجود المعدوم أولى من عدمه، وما جعل حدوثه أولى من تركه؟

قال المهدي لدين الله : وإذا لم يكن الجسم كائنا ما كان من الأشياء لم ينفك من هذين الحالتين، فهو محدث بأبين البيان، وإذا كانت الأعراض لا توجد إلا في الأجسام وكان محالا أن تكون قبلها، فسبيلها في الحدث سبيلها، لأنا نفينا أن تكون علة كون الإنسان وغيره من الحيوان جسما أو عرضا، لأنهما محدثان، قال الحسين بن القاسم: فلما بطل أن تكون علة كون الإنسان وغيره من الحيوان جسما أو عرضا أو عدما صح أن له صانعا قديما، وهو الله رب العالمين"[156]

ويقول شيخنا الجاحظ في باب المعارف: وقد زعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس: واحد منها اختيار، وسبعة منها اضطرار. فخمسة منها درك الحواس الخمس، ثم المعرفة بصدق الأخبار، كالعلم بالقرى والأمصار، والسير والآثار، ثم معرفة الإنسان إذا خاطب صاحبه أنه موجه بكلامه إليه، وقاصد به نحوه، وأما الاختيار فكالعلم بالله ورسوله، وتأويل كتبه، والمستنبط من علم الفتيا وأحكامه، وكل ما كان فيه الاختلاف والمنازعة. وكان سبيل علمه النظر والفكرة. ورئيس هؤلاء أبو إسحاق.[157]

---

156 مجموع الحسين بن القاسم كتاب شواهد الصنع

[157] رسائل الجاحظ ج 4 ص51

وينقل لنا اراء علماء العدلية ومنهم النّظام حول معرفة الله امامنا يحي بن المرتضى عليه السلام فيقول:

(مَسْأَلَةٌ) : (المعتزلة البصرية) : وَعِلْمُنَا بِالصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ مُكْتَسَبٌ .

الْأَشْوَارِيُّ : بَلْ ضَرُورِيٌّ مُبْتَدَا (الجاحظ) ضَرُورِيٌّ وَالنَّظَرُ شَرْطٌ اعْتِيَادِيٌّ .

غَيْلَانُ : بَلْ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ مَصْنُوعٌ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ بَلْ صَنَعَهُ غَيْرُهُ ضَرُورِيٌّ وَسَائِرُ مَسَائِلِ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ اكْتِسَابِيٌّ (ابو الهذيل) : مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ وَالدَّاعِي إلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ ضَرُورِيٌّ ، وَمَا بَعْدَهُ مُكْتَسَبٌ.

بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ : الْمَعَارِفُ ثَلَاثٌ : مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ أَنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ مِنْ صَنْعَتِهِ ضَرُورِيٌّ مُخْتَرَعٌ ، وَمَا سِوَاهُ يُدَرَّسُ بِالْحَوَاسِّ وَبِالرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ .

النَّظَّامُ : مَا عُلِمَ بِالْحَوَاسِّ أَوْ بِالْأَخْبَارِ فَضَرُورِيٌّ وَإِلَّا فَمُكْتَسَبٌ.[158]

الكلام في الصفات:

قال النّظام : إن الله لم يزل عالماً حياً قادراً سميعاً بصيراً قديماً بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة وسمع وبصر وقدم وكذلك قوله في سائر صفات الذات، وكان يقول: إذا ثبت البارئ عالماً قادراً حياً سميعاً بصيراً قديماً أثبت ذاته وأنفي عنه الجهل والعجز والموت والصمم والعمى، وكذلك قوله في سائر صفات الذات على هذا الترتيب.[159]، وقال: معنى قولي عالم إثبات ذاته ونفي الجهل عنه ومعنى قولي قادر إثبات ذاته ونفي العجز عنه ومعنى قولي حي إثبات ذاته ونفي الموت عنه وكذلك قوله في سائر صفات الذات على هذا الترتيب، وكان يقول أن الصفات للذات إنما اختلفت لاختلاف ما ينفى عنه من العجز والموت وسائر المتضادات من العمى والصمم وغير ذلك لا لاختلاف ذلك في نفسه.[160]

قلت: ، أما كلامه في الصفات فهو كما قلت كلام العدلية، أي انه تعالى عالم لذاته، حي لذاته، الى اخره، وليس بصفات زائدة عن الذات او قديمة معه، قادر وذاته القدرة ، يقول قاضي القضاة: فإن قيل فما علم التوحيد؟

[158] البحر الزخار للامام يحي بن المرتضى ج1 ص 430

[159] المقالات للأشعري ص 486/487

[160] المقالات للأشعري ص 167

قيل له: هو العلم بما تفرد الله عز وجل به من الصفات التي يشاركه فيها أحد من المخلوقين، وتفسير ذلك أن تعلم أن لهذا العالم صانعا وأنه موجود فيما لم يزل، قديما فيما لا يزال، لا يجوز عليه الفناء، والواحد منا يوجد بعد العدم ويجوز عليه الفناء.

وتعلم أنه قادر فيما لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه العجز.

وتعلم أنه عالم فيما لم يزل ولا يزال، ولا تجوز عليه الجهالة.

وتعلم أنه عالم بالأشياء كلها: ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون.

وتعلم أنه حي فيما لم يزل ولا يزال ولا تجوز عليه الآفات والآلات.

وتعلم أنه راءٍ للمرئيات ومدرك لجميع المدركات، ولا يحتاج إلى حاسة ولا آلة.

وتعلم أنه غني فيما لم يزل ولا يزال. ولا تجوز عليه الحاجة.

وتعلم أنه لا يشبه الأجسام، ولا يجوز عليه ما يجوز عليها من الصعود والهبوط والتنقل والتغير والتركيب والتصوير والجارحة والأعضاء.

وتعلم أنه لا يشبه الأعراض التي هي الحركات والسكون والألوان والطعوم والروائح.

وتعلم أنه واحد في القدم والأولية لا ثاني له، وأن كل ما سواه محدث مفعول محتاج مُدَبّر مربوب، فإن علمت هذه الجملة كنت عالما بالتوحيد.[161]

العدل:

اعلم يرحمك الله أن كلام النظّام في العدل كلام العدلية وخالفهم في قدرة الله على الظلم، حيث نفاه وقال باستحالة هذا وسنفصل في هذا الكلام، أنه تعالى عدل حكيم ليس في أفعاله ظلم ولا عبث ولا سفه وأن أفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ولا يخل بما هو واجب عليه؛ لأن ذلك كله قبيح ومعلوم قبحه عند كل عاقل.

الكلام في فعل القبيح:

المشهور أن شيخنا النظّام يقول أن الله لا يقدر على فعل القبيح، وتجويز وقوع القبح منه قبيح، وهذا ما نقل عنه، يقول صاحب البحر الزخار في الكلام على قدرة الله على فعل القبيح: النَّظَّامُ وَالْأَسْوَارِيُّ

[161] الأصول الخمسة المنسوب لقاضي القضاة عبد الجبّار ص 67

وَالْمُجْبِرَةُ : لَا يُوصَفُ بِذَلِكَ .[162]، ويقول الحاكم الجشمي في التعديل والتجويز: وعند النظام: لا يقدر على فعل القبيح[163]، ونقل عنه هذا الخياط في الانتصار أيضا[164]، ويقول الدكتور سامي النشار في كتاب قاضي القضاة المنية والأمل: ومذهب «النظام» أن «القبح» إذا كان صفة ذاتية للقبيح، وهو المانع من الإضافة إليه فعلا، ففي تجويز وقوع القبيح منه، «قبح» أيضا، فيجب أن يكون مانعا، ففاعل العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم.

فقد ألزم: عليه أن يكون الباري تعالى مطبوعا، مجبورا على ما يفعله، فإن القادر على الحقيقة، من يتخير بين الفعل والترك.

وأجاب النظام عن هذا الإلزام: إن الذي الزمتموني في القدرة يلزمكم في الفعل، فإن عندكم يستحيل أن يفعله وإن كان مقدورا، فلا فرق[165]

قلت: وبالله التوفيق أن شيخنا النظّام قال بهذا، لكن هناك رأي اخر يقول أن النظّام ترك هذا القول ورجع عنه، وهذا ما نقله الامام يحي المرتضى في كتاب البحر الزخار: قال ابو القاسم البلخي: (من يقول) لَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى الظُّلْمِ كَفَرَ ، وقال: وَتَابَ النَّظَّامُ عَنْ ذَلِكَ[166] وما يؤكد هذا القول أن في كتاب المقالات للبلخي في ذكر طبقات المعتزلة ذكر كل شيوخ المعتزلة والآراء التي تفرد بها كل شيخ، وعندما ذكر الآراء التي تفرد بها شيخنا النظّام لم يذكر هذا الرأي وكذلك القاضي عبد الجبار لم يذكر هذا الرأي عنه، وهذا يؤكد أن النظام رجع عن هذا القول، والذي يبين غلط القول الذي كان يقول به شيخنا النظّام أو مات وهو يقول به هو ردود مشايخ العدلية حول هذا المذهب، فيقول العلامة الكبير يحي بن الحسن القرشي في كاتبه منهاج المتقين في علم الكلام:

شبهة النظام والأسواري: أنه تعالى لو قدر على القبيح لوجب أن يوقعه.

والجواب: من أين يلزم أن من قدر على شيء وجب أن يوقعه أليس أحدنا يقدر على السعي في السوق ولا يفعله والله يقدر على إقامة القيمة الآن ولا يفعله.

---

[162] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج1ص49

[163] تحكيم العقول للحاكم الجشمي ص 99

[164] راجع الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ص 17

[165] المنية والأمل للقاضي عبد الجبار تحقيق الدكتور سامي النشار ج2: فلسفة وفرق المعتزلة ص 158

[166] البحر الزخار للإمام يحي المرتضى ج1 ص 209

قالوا: اتصافه بالقدرة على القبيح نقص. قلنا: بل مدح؛ لأن من ترك القبيح مع القدرة خير ممن ترك القبيح مع عدم القدرة، ولهذا يصح التمدح على أنه معارض بالأنبياء والملائكة.

قالوا: القول بأنه قادر على القبيح مع القول بامتناعه لأجل العدل أو فقد الداعي متناقض.

قلنا: هو كالقول بالقدرة على الفعل الذي يحتاج إلى الآلة مع القول بتعذره عند عدمها.

قالوا: فقوله: أنه قادر على المستحيل لو لم يكن مستحيلاً كما قلتم تقدر على القبيح وإن استحال أن لا يكون عدلاً حكيماً.

قلنا: أتلزموننا المعنى فصحيح إذ لا بد من القول بأن المستحيل لو لم يكن مستحيلاً لكان الله قادراً عليه أو تلزموننا التسمية فغير صحيح كيف يقول هو قادر على شيء لم تثبت القدرة عليه بخلاف القبيح، فإن القدرة عليه ثابتة وامتناعه هو لأجل الحكمة وفقد الداعي.

قالوا: لو قدر على القبيح لصح أن يوقعه لأن هذا حكم القادر، ولو صح أن يوقعه وقدرنا وقوعه لكان إما أن يدل على الجهل والحاجة وهو محال في حق العالم الغني لذاته وإما أن لا يدل وهو محال لأن طرق الأدلة لا تختلف شاهداً وغائباً.

قلنا: يصح أن يوقعه من جهة القدرة بمعنى أنه لو كان غير حكيم أو كان له داع إليه لوقع منه ويستحيل وقوعه من جهة الحكمة عندنا، ومن جهة فقد الداعي عند أبي الحسين وقولهم لو قدرنا وقوعه لكان إما أن يدل أو لا يدل فهو غير صحيح؛ لأنا قد منعنا في مسألة نفي الثاني من صحة تقدير وقوعه ومنعناه أيضاً على مقتضى عبارة أبي الحسين؛ لأن ما يستحيل لا يصح تقديره. وأما الجمهور فالتزموا صحة تقديره وامتنعوا من الجواب بلا أو بنعم وعلله الشيخ أبو علي بكلام حاصله أن كل كلامين تعلق الثاني بالأول على تقدير وجود الأول لا يخلوا إما أن يكون أحدهما هو الآخر كقوله: إن كان زيد فاعل للظلم فهو ظالم أو يكون أحدهما موجباً للآخر كقولك إن كان في قلب زيد علم فهو عالم وإن كان عالماً ففي قلبه علم، أو يكون أحدهما مصححاً للآخر نحو: إن كان الجوهر متحيزاً احتمل العرض وإن كان زيد عالماً كان حياً، وإما أن لا يكون أحدهما هو الآخر ولا موجباً له ولا مصححاً إن كان من القسم الأول وجب على المسئول أن يجيب بلا أو بنعم، وإن كان من القسم الثاني صح الامتناع من الجواب بأحد الأمرين إذا دل الدليل على فسادهما كمسألتنا هذه، فإنا إذا قدرنا وقوع الظلم منه تعالى ففاسد أن يدل

على الجهل والحاجة؛ لأنه عالم لذاته غني لذاته وفاسد أن لا يدل لأنه يعود بالبعض على دلالته في الشاهد، فكان لنا أن نمتنع لأن الظلم ليس هو الجهل والحاجة، ولا يصححهما ولا يصححانه في حق الباري ولا يوجبهما ولا يوجبانه من حيث أن المصحح للظلم في حق الباري هو كونه قادراً فقط.

واعترضه أبو الحسين بما معناه أن الخصم لم يلزمكم العبارة حتى تمتنعوا من إطلاقها وتستدلوا على فسادها وإنما ألزمكم المعنى وهو أنا إذا قدرنا وقوع الظلم من الباري فهل كان ذلك الظلم يولد العلم بالجهل والحاجة أم لا، وليس يخرج النظر عن كونه مولداً لهذا العلم أو لا يكون.

والأقرب والله أعلم أن يفصل الكلام فيقال إن كان السائل يقدر الوقوع مطلقاً بأن يقول لو وقع الظلم من فاعل ما، هل كان يدل على الجهل والحاجة أو لا يدل، فإنه لا يصح الامتناع هنا من الجواب بأحد الأمرين لما ذكره أبو الحسين.[167]

اعلم أرشد الله أمرك وأنار عقلك أنه تعالى عند العدلية عدل حكيم ليس في أفعاله ظلم ولا عبث ولا سفه وأن أفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ولا يخل بما هو واجب عليه؛ كما ينقل هذا قاضي القضاة، لأن ذلك كله قبيح ومعلوم قبحه عند كل عاقل، والله تعالى لا يفعل القبيح؛ لعلمه بقبحه وغناه عن فعله، ويقول قاضي القضاة: وتحرير الدلالة على ذلك، هو أنه تعالى عالم بقبح القبيح ومستغن عنه، عالم باستغنائه عنه، ومن كان هذه حالة لا يختار القبيح بوجه من الوجوه.[168] وغرض شيخنا النظّام من قوله ذلك هو تنزيه الله عن الظلم والعبث وإن أخطأ في الطريقة الا أنه مصيب في الهدف وحسن النية، والراجح أنه ترك هذا الرأي والله أعلم.

الكلام في الاستطاعة

الذي يقول مشايخ التوحيد والعدل: إن القدرة تتقدم الفعل ولا توجبه، بل يصير القادر بها قادراً ثم هو إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وتتعلق بالمثلين والضدين والمختلفين، وأنها باقية، وأن الكافر قادر على الإيمان، والمؤمن قادر على الكفر، ولا يكلف الله عبداً ما لا يطيقه.

---

[167] منهاج المتقين في علم الكلام ليحيى بن الحسن القرشي ص 272/ 274

[168] شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص 301

وزعمت المجبرة: أنها مع الفعل لا تتعلق إلا بمقدور واحد دون المثلين والضدين والمختلفين واحد لا يقدر على شيئين، الكافر لا يقدر على فعل الإيمان والمؤمن لا يقدر على الكفر.

والكلام يقع في ثلاثة مواضع:

أحدها: أن الاستطاعة قبل الفعل غير موجبة له وتتعلق بالضدين، وأن تكليف ما لا يطاق لا يجوز.

فيقال لهم: أليس الواحد منا مع سلامة الأحوال يجب وقوع أفعاله بحسب قصده وداعيه واختياره، وانتفاؤه بحسب كراهته حتى إذا أراد الأكل وكره المشي يقع الأكل ولا يقع المشي.

فإن قالوا: لا يجب كابروا العقول، وإن قالوا: نعم.

قلنا: فالداعي قد يدعوه إلى أن يفعل الشيء وإلى أن يفعل ضده على البدل، فإذا لم يقدر على الضدين كيف يتم القول بما تقدم.

ويقال: هل فرق بين المضطر وبين المختار؟ فلا بد من: بلى، فيقال: فإذا كان كل واحد منهما لا يقدر على خلاف ما هو عليه ولا يمكنه الانفكاك عنه فأي فرق بين حركة الشرايين وحركة اليد؟[169]

وقال إبراهيم النظام: أنت مستطيعٌ قبل الفعل، وأَحَالَ أن تكون الاستطاعة غير المستطيع، وعلته أنه لو كانت الاستطاعة غيره لكانت مفسدةً عليه ولكانت غير مُعِينَةٍ له[170]

وينقل لنا الحاكم الجشمي نظرة خاطفة لمناظرة حول الاستطاعة بين شيخنا النظّام والنجّار فقال: واجتمع النظام والنجار للمناظرة , فقال النجار : لِمَ تدفع أن الله كلف عباده ما لا يطيقون ؟ فسكت النظام . فقيل له : لِمَ سكت ؟ قال : كنت أريد بمناظرته أن ألزمه القول بتكليف ما لا يطاق , فإذا التزم ذلك ولم يستح فما الذي الزمه بعد ذلك .[171]

الكلام في الآلام والأعواض

قال الجاحظ: القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلامها: وقال آخرون: ليس لك أن تحدث في جميع الحيوان حدثا من نقض أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة، ولا يمكنك التعويض له، فإذا

---

[169] تحكيم العقول للحاكم الجشمي ص 135

[170] حقائق المعرفة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام ص 211

[171] رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس الحاكم الجشمي ص 55

أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو الله عزّ وجلّ، حلّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ. وليس لك في حجّة العقل أن تصنع بها إلّا ما كان به مصلحة، كعلاج الدّبر وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنع كلّ ما كان يصنع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده، ممّا لم يكن مدفوعا عند بعضهم، إلّا أن يكون نهي ذلك البعض من جماعتهم، في طريق الخلاف والردّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولا من الأقاويل، فإنّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلّف يعرف وجه الملام. والمذهب في ذلك معروف وإن كان خارجا من ذلك الحدّ، فقد علمنا أنّه أبيح من طريق التعبّد والمحنة، كما جعل الله تعالى لنا ما أحلّ ذبحه من البهائم، وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض، وإن لم يكن منها إلّا مقدار الأذى فقط. والقتل لا يكون قصاصا من الأذى، ولكن لمّا أباح لنا خالق الشيء والقادر على تعويضه قتله، كان قتله أسوغ في العقل مع الأذى، من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذ ولا كل ذي أذى حكم الله تعالى فيه بإباحة القتل، والله عزّ وجلّ، بمقادير الأمور وبحكم المختلف والمتّفق، والقليل من ذلك والكثير، أحكم وأعلم.

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالد وطاوع الولد.

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظّام. وأكثر المتكلّمين يعترضون عليه فيه.[172]

قلت: ومذهب شيخنا النظّام في هذا الباب معروف مشهور وذلك لنزعته التجريبية (كعلماء الأحياء بعده)، وينقل لنا تلميذه الجاحظ بعض تجاربه فيقول: فحدّثني إبراهيم قال: شهدت أكثر هذه التّجربة التي كانت منهم في إسكار البهائم وأصناف السباع، ولقد احتال لأسد مقلّم الأظفار ينادى عليه: العجب العجب، حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتمال، فزعم، أنّه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكرا من الظّبي. ولولا أنّه من الترفّه لكنت لا يزال عندي الظّبي حتّى أسكره وأرى طرائف ما يكون منه.[173]،

ونقل لنا مشاركة النظّام محمد بن عبد الله تجارب أخرى على ظليم حيث قال: وأخبرني إبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظّام- وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان- أنّه شهد محمد بن عبد

[172] الحيوان ج1 ص 107
[173] الحيوان ج2 ص 372

الله- يلقي الحجر في النّار، فإذا عاد كالجمر قذف به قدّامه، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر. كنت قلت له: إنّ الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقي الرّطوبات، ومتى أطبق عيه شيء يحول بينه وبين النّسيم خمد، والحجر أشدّ إمساكا لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلا، وألزق لزوقا وأبطأ انطفاء، فلو أحميت الحجارة! فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتبت به، فلما ثنى وثلّث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقيّ الحديد، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأوّل والثّاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرّف ذلك على الأيّام.

وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته، فلعلّ الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائبا ولا خارجا فعمد بعض ندمائه إلى سكّين فأحمي، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السّكين من موضع مذبحه، ثمّ خرّ ميّتا. فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا.[174]

الكلام في عذاب الأطفال والحيوان

قال الجاحظ: وزعم أبو إسحاق أنّ الطّاعات إذا استوت استوى أهلها في الثّواب، وأنّ المعاصي إذا استوت استوى أهلها في العقاب. وإذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضّل.

وزعم أنّ أجناس الحيوان وكلّ شيء يحسّ ويألم، في التفضّل سواء وزعم أنّ أطفال المشركين والمسلمين كلّهم في الجنّة. وزعم أنّه ليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق، ولا بين السّباع في ذلك وبين البهائم فرق.

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السبعيّة والبهيمية لا تدخل الجنّة، ولكنّ الله عزّ وجلّ ينقل تلك الأرواح خالصة من تلك الآفات؛ فيركّبها في أيّ الصّور أحبّ.

وكان أبو كلدة، ومعمر، وأبو الهذيل وصحصح، يكرهون هذا الجواب.

ويقولون: سواء عند خواصّنا وعوامّنا، أقلنا: إنّ أرواح كلابنا تصير إلى الجنّة، أم قلنا:

إن كلابنا تدخل الجنّة ومتى ما اتّصل كلامنا بذكر الكلب على أيّ وجه كان؛ فكأنّا عندهم قد زعمنا أنّ الجنّة فيها كلاب. ولكنّا نزعم أنّ جميع ما خلق الله تعالى من السّباع والبهائم والحشرات والهمج فهو

---

[174] الحيوان ج4 ص 416

قبيح المنظرة مؤلم، أو حسن المنظرة ملذّ؛ فما كان كالخيل والظباء، والطواويس، والتّدارج فإنّ تلك في الجنّة، ويلذّ أولياء الله عزّ وجلّ بمناظرها. وما كان منها قبيحا في الدّنيا مؤلم النظر جعله الله عذابا إلى عذاب أعدائه في النّار فإذا جاء في الأثر: أنّ الذّباب في النّار، وغير ذلك من الخلق، فإنّما يراد به هذا المعنى. [175]

قلت وبالله التوفيق: إن قول شيخنا النظّام أنّ أطفال المشركين والمسلمين كلّهم في الجنّة هو قول السادة العدلية والكلام في هذا الباب طافح في كتب مشايخنا والمناظرات فيه منقولة، يقول شيخنا الحاكم الجشمي: عندنا: لا يجوز تعذيب الأطفال سواء كانوا من أولاد المؤمنين أو من أولاد الكفار.

وقالت المجبرة: يجوز تعذيب أطفال المشركين.

يقال لهم: هل يجوز أن يعذب الله تعالى من غير ذنبٍ أم لا؟.

فإن قالوا: يجوز أن يعذب بغير ذنب.

قلنا: فالعقول تقتضي ذلك وقد قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ؟[المدثر:**38**].

ويقال لهم: إذا جاز ذلك في أطفال المشركين، جاز في أطفال المؤمنين وجاز في الأنبياء والمؤمنين، وفي ذلك خلاف الكتاب والسنة والإجماع، وإن قالوا: لا يجوز أن يعذب إلا بذنب. فما ذنبهم وليس عليهم أمرٌ ولا نهي؟.

وقال النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم –: ((رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي والمجنون وما استكرهوا عليه)).

فإن قالوا: يعذبون بذنب آبائهم.

قلنا: العقول كما تقضي قبح العقوبة من غير ذنب فكذلك تقضي قبح تعذيبه بذنب غيره، فكما لا تجوز العقوبة من غير ذنب فكذلك لا تجوز بذنوب آبائهم.

ويقال: إذا زنى إنسان أو سرق أيجوز أن يحدّ ابنه أو يقطع؟.

فإن قالوا: نعم خالفوا العقل والشرع، وإن قالوا: لا.

قلنا: فعقوبات الآخرة أحق؛ لأنها عقوبة محضة.

---

[175] الحيوان ج3 ص 187

ويقال لهم: أليس قال الله تعالى: وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى [النجم:39] بعد قوله: أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [النجم:38] مؤكد لما في العقول، وليس لهذا الطفل سعي ولا يؤخذ بسعي غيره.

فإن قالوا: أليست تجري عليه أحكام أبيه؟.

قلنا: في العقوبات، فلا ولذلك لا يقتل ولا تؤخذ منه الجزية.[176]

أما قوله أنّه ليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق، ولا بين السّباع في ذلك وبين البهائم فرق. فهو عين الصواب، وقد تعمقوا وأكثروا الفلاسفة في الكتابة حول هذا، ومقصود شيخنا النظّام هو أن الأطفال كائنات غير عاقلة بعد وغير مكلفة، وغير المكلف لا بد أن يكون غير عاقل، وهذه النقطة المشتركة بين الأطفال والمجانين والحيوانات، كلهم كائنات غير عاقلة وغير مكلفة، وهذا مرتبط بقوله أن الأطفال لا يعذبون ويدخلون الجنة، وهذا أحد أدلته، وكذلك القول بين السباع والبهائم.

الكلام في النبوة

اعلم أنه لا تَجُوزُ الْكَبَائِرُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَبَعْدَهَا، وقالت الْحَشْوِيَّةُ يَجُوزُ مُطْلَقًا . وَقِيلَ قَبْلَهَا لَا بَعْدَهَا.

قال النَّظَّامُ وَابْنُ مُبَشِّرٍ : بَلْ سَهْوًا وَغَفْلَةً [177]، والْأَكْثَرُ : وَالسَّهْوُ وَالْخَطَأُ مَعْفُوَّانِ عَنْ كُلِّ مُكَلَّفٍ النَّظَّامُ : إلَّا عَنْ الْأَنْبِيَاءِ[178]، واختلف الشيوخ في كيفيَّة إقدام النبي على المعصية، فقال النظام وجعفر بن مبشر: على السهو وهذا ضعيف[179]

قلت: ولم أرى هذا الرأي في كتب المعتزلة والتي وقعت بين يدي من كتب الزيدية الا هذان الكتابان وقال ابن المرتضى في كتاب تنزيه الأنبياء وحكي عن النظّام هذا[180]، فالله أعلم بنسبة هذا القول الغريب للنظّام، اعلم أن هذا القول لا يصح، فالسهو والغفلة لا يحاسب عليهم المرء، واعتبار السهو والخطأ معفوان الا على الأنبياء فهذا تكليف ما لا يطان وهو عكس العدل، فصحة نسبة هذا الى شيخ معتزلي فيها كلام، قال يحي بن الحسن القرشي: قد اختلف الناس في جواز الكبائر على الأنبياء مع اتفاقهم على

[176] تحكيم العقول لشيخنا الحاكم الجشمي ص 160
[177] البحر الزخار للإمام يحي المرتضى ج1 ص 116
[178] البحر الزخار للإمام يحي المرتضى ج1 ص 163
[179] منهاج المتقين في علم الكلام ليحيى بن الحسن القرشي ص 511
[180] تنزيه الأنبياء لابن المرتضى ص 16

امتناع كفرهم إلا عند بعض الخوارج فعندنا لا تجوز عليهم الكبائر لا قبل البعثة ولا بعدها، وقال أهل الحشو: يجوز عليهم في الحالين.

وقالت الأشعرية يجوز قبلها لا بعدها، وحكى مثله عن أبي علي.

لنا أن ذلك من أبلغ المنفرات، فإن من علم الناس من حاله أو جوزوا مواقعته للكبائر كانوا عن القبول عنه أبعد.

وهذا فإن الخطيب إذا بات شرب الخمر ويزني وأصبح يعظ الناس لم يكن لموعظته تأثير، ولا فرق بين أن يقع ذلك قبل البعثة أو بعدها، فإن الناس إلى القبول ممن لم يتدنس بالمعاصي أقرب منهم إلى القبول ممن يتعاطاها، وإن كان قد تاب لا شك في ذلك.

وبعد فالمواقع للكبائر يجوز ذمه والاستخفاف به، والنبي يجب مدحه وتعظيمه.

وبعد، فلو واقعوا الكبائر لما قبلت شهادتهم ومعلوم أنهم الشهداء في الدنيا والآخرة.

وبعد، فكان يجب نهيهم وزجرهم عن المعصية لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل شريعة.

وبعد، فكنا لا نأمن أن يكتموا بعض ما أرسلوا به ويكذبوا فنزول الثقة.

فأما الصغائر التي ليس لها حظ إلا في تقليل الثواب دون التنفير والقدح في التبليغ فجائز قبل البعثة وبعدها إلا عند من لا يعنى به.

وعلى هذا يحمل ما حكاه الله من ذنوب الأنبياء وأكل الشجرة وعبوس النبي عليه الصلاة والسلام حين جاءه الأعمى ونحو ذلك، وقد قال تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، وقال: {واستغفر لذنبك}[181]، وقال شيخنا الحاكم الجشمي: قد بيّنا أن من صفة الرسول أن يكون معصوماً قبل البعثة وبعدها، ولا تجوز عليه الكبائر والمنفرات، ولا يجوز فيما يؤدي إلى الغلط والنسيان.

والحشوية يجوزون جميع ذلك، ويروون عنه ما لا يليق به على ما نشير إليه.

ويقال لهم: أليس الله تعالى بعثه وأصحبه المعجز ليؤخذ منه ما يأتي ويصل العبد إلى معرفة مصالحه ويقتدي به في قوله وفعله؟

[181] منهاج المتقين في علم الكلام ليحيى بن الحسن القرشي ص511

فإن قالوا: لا، كابروا وخالفوا الآية، وإن قالوا: نعم.

قلنا: فإذا جاز عليه الغلط والكذب والكبائر، فما الأمان من كون الرسول بهذه الصفة وأن جميع ما أداه إلينا كذب؟ وكيف يوثق بقوله وفعله؟.

ويقال لهم: أليس الغرض بالبعثة القبول منهم والإقتداء بهم؟ فلا بد من: بلى، فيقال: فإذا كان بصفة ينفر الناس منه كان نقضاً للغرض، وذلك لا يجوز من فعل حكيمٍ.

ويقال لهم: أليس قول الرسول وفعله حجة يجب التأسي به في جميع ذلك؟.

فإن قالوا: لا خالفوا الكتاب والأمة، قال الله تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟، والأمة بأسرها من لدن الصحابة إلى يومنا هذا يحتجون بقوله وفعله، فإن قالوا: نعم.

قلنا: فإذا كان في أقواله وأفعاله المعاصي والجرائم فكيف يصح ذلك؟.

ويقال: ما يقوله الرسول ويفعله حق أو باطل؟.

فإن قالوا: حقٌّ، فهو قولنا، وإن قالوا: باطل، وجب أن لا يقتدى به، وإن قال: بعضه حق وبعضه باطل، وجب أن يبعث رسولاً آخر يبين ذلك ثم تسلسل الكلام.

ويقال لهم: بالمعجز الذي ظهر عليه يعلم صدقه على الجملة وأن ما يأتي به حقاً أم لا؟.

فإن قالوا: لا، وجب أن يظهر في كل قول وفعل معجزة يعلم أنه حق أو لا يظهر فلا يعلم بقوله وفي هذا بخلاف الدين.

وإن قال: أليس آدم أكل ما نهي عنه؟.

قلنا: قيل: كان نهي تنزيه، وقيل: أكل متأولاً فوقع صغيرة.

فإن قيل: أليس تسمى ابنه عبد الحارث عند دعا إبليس؟.

قلنا: رواية باطلة.

فإن قيل: إلى من ترجع الكناية في قوله: ?جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ؟.

قلنا: إلى أولاده لا إليه.

فإن قيل: أليس حكي عن إبراهيم الكذب في قوله: إِنِّي سَقِيمٌ، وقال: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ؟.

قلنا: وما المانع أن يكون سقيماً، أو تكون: إني سقيم في الدين لما أرى منكم أو سأسقم، وأما قوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ فإنما أضافه بشرط وهو أنه إن كان ينطق.

فإن قال: أليس فُتن داود بامرأة أوريا حتى أمر بقتله؟.

قلنا: باطلٌ، وقوله: خَصْمَانِ كانا رجلين اختصما إليه على ما هو الظاهر؛ إلا أنه ترك سؤال المدعى عليه وعاتب فذلك قوله: فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ.

فإن قال: أليس في قصة سليمان، وقعود الشيطان على سريره، والدخول على امرأته ما هو خلاف مذهبكم؟.

قلنا: كل ذلك روايات باطلة، وقوله: وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ؟ أي أمرضناه، فقوله: فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ؟ أنه مسح بسوقهم وسبلهم.

فإن قال:فما تقولون في قصة أيوب ويونس وأولاد يعقوب وما فعلوا بيوسف؟.

قلنا: أما أيوب فمرض مرضاً فقط، وأما يونس فكان أمر بالخروج من غير تعيين وقت مغاضباً لأمته قبل أن عيّن وقت الخروج، فأما إخوة يوسف فكانوا أطفالاً.

فإن قيل: فحديث الغرانيق العلى وامرأة زيد في أخبار نبينا – صلى الله عليه وآله؟

قلنا: باطلٌ، كان منزّهاً عن مثل ذلك، وإنما تزوج بامرأة زيدٍ ليعلم أن امرأة ابن ملك اليمين تحل، وما روي عند تلاوته تلك الغرانيق إنما ألقاه بعض الكفرة موهماً أنه كلام الرسول.[182]

هذا ما استطعت تجميعه من المصادر المتاحة لي حول كلام شيخنا النظّام في الأصول الخمسة، وجدت كلامه حول التوحيد والعدل ولم أقف على كلامه حول الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لشح المعلومات حوله.

[182] تحكيم العقول للحاكم الجشمي ص 170/168

دقيق الكلام

وكان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة[183]

الخطيب البغدادي

[183] تاريخ بغداد للخطيب ج6 ص 623

نظرية الكمون

[قول النظام في الكمون]

يقول شيخنا الجاحظ: وكان أبو إسحاق يزعم أن احتراق الثوب والحطب والقطن، إنما هو خروج نيرانه منه، وهذا هو تأويل الاحتراق، وليس أن نارا جاءت من مكان فعملت في الحطب، ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفي ضدّها عنها، فلما اتصلت بنار أخرى، واستمدّت منها، قويتا جميعا على نفي ذلك المانع، فلما زال المانع ظهرت. فعند ظهورها تجزّأ الحطب وتجفف وتهافت؛ لمكان عملها فيه. فإحراقك للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه.

وكان يزعم أن حرارة الشمس، إنما تحرق في هذا العالم بإخراج نيرانها منه.

وهي لا تحرق ما عقد العرض وكثّف تلك النداوة؛ لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس لا تحترق، كاللون والطعم والرائحة، والصوت. والاحتراق إنما هو ظهور النار عند زوال مانعها فقط.

وكان يزعم أن سمّ الأفعى مقيما في بدن الأفعى، ليس يقتل، وأنه متى مازج بدنا لا سمّ فيه لم يقتل ولم يتلف، وإنما يتلف الأبدان التي فيها سموم ممنوعة مما يضادّها. فإذا دخل عليها سم الأفعى، عاون السم الكامن ذلك السمّ الممنوع على مانعه. فإذا زال المانع تلف البدن. فكان المنهوش عند أبي إسحاق، إنما كان أكثر ما أتلفه السمّ الذي معه.

وكذلك كان يقول في حرّ الحمّام، والحر الكامن في الإنسان: أنّ الغشي الذي يعتريه في الحمام ليس من الحر القريب، ولكن من الحر الغريب، حرّك الحرّ الكامن في الإنسان، وأمدّه ببعض أجزائه، فلما قوي عند ذلك على مانعه فأزاله، صار ذلك العمل الذي كان يوقعه بالمانع واقعا به. وإنما ذلك كماء حار يحرق اليد، صبّ عليه ماء بارد، فلما دخل عليه الماء البارد صار شغله بالداخل، وصار من وضع يده فيه ووضع يده في شيء قد شغل فيه بغيره. فلما دفع الله، عزّ وجلّ، عنه ذلك الجسم الذي هو مشغول به، صار ذلك الشّغل مصروفا إلى من وضع يده فيه؛ إذ كان لا ينفكّ من عمله.

وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأت نار الأتّون لم تجد شيئا من الضوء، ووجدت الكثير من الحر؛ لأن الضياء لما لم يكن له في الأرض أصل ينسب إليه، وكان له في العلوّ أصل، كان أولى به.

وفي الحقيقة أنهما جميعا قد اتصلا بجوهرهما من العالم العلويّ. وهذا الحر الذي تجده في الأرض، إنما هو الحرّ الكامن الذي زال مانعه.

هكذا كان ينبغي أن يقول. وهو قياسه.

وكان يزعم أنك إن أبصرت مصباحا قائما إلى الصّبح أن الذي رأيته في أول وهلة قد بطل من هذا العالم، وظفر من الدهن بشيء من وزنه وقدره بلا فضل ، ثم كذلك الثالث والرابع والتاسع. فأنت إن ظننت أن هذا المصباح ذلك، فليس به، ولكن ذلك المكان لما كان لا يخلو من أقسام متقاربة متشابهة، ولم يكن في الأول شية ولا علامة، وقع عندك أن المصباح الذي رأيته مع طلوع الفجر، هو الذي رأيته مع غروب الشّفق.

وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئا من الدّهن ولم تشربه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين، اللذين كانا فيه. وإذا خرج كلّ شيء فهو بطلانه.[184]

[استخراج الأشياء الكامنة]

فكان يقول في الأشياء الكامنة: إن لكل نوع منها نوعا من الاستخراج، وضربا من العلاج. فالعيدان تخرج نيرانها بالاحتكاك، واللبن يخرج زبده بالمخض، وجبنه يجمع بإنفحّة، وبضروب من علاجه.

ولو أن إنسانا أراد أن يخرج القطران من الصّنوبر، والزّفت من الأرز ؛ لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدقّه ويقشره، بل يوقد له نارا بقربه، فإذا أصابه الحرّ عرق وسال، في ضروب من العلاج.

ولو أن إنسانا مزج بين الفضة والذهب، وسبكهما سبيكة واحدة، ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يمكنه ذلك بالفرض والدّق. وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصّاغة، وأرباب الحملانات.[185]

[قول أبي إسحاق النظام في النار]

قال الجاحظ: قال أبو إسحاق: الناس اسم للحرّ والضّياء. فإذا قالوا: أحرقت أو سخّنت، فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين، وهو الحرّ دون الضياء.

[184] الحيوان ج 5 ص 10

[185] الحيوان ج 5 ص 28

وزعم أن الحرّ جوهر صعّاد. وإنما اختلفا، ولم يكن اتّفاقهما على الصعود موافقا بين جواهرهما؛ لأنهما متى صارا من العالم العلويّ إلى مكان صار أحدهما فوق صاحبه.

وكان يجزم القول ويبرم الحكم بأنّ الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد، ولا يعلى.

قال: ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتّون وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارّة، ولم نجدها مضيئة، لأن في الأرض، وفي الماء الذي قد لابس الأرض، حرّا كثيرا، وتداخلا متشابكا؛ وليس فيهما ضياء. وقد كان حرّ النار هيّج تلك الحرارة فأظهرها، ولم يكن هناك ضياء من ملابس فهيّجه الضياء وأظهره، كما اتصل الحرّ بالحرّ فأزاله من موضعه، وأبرزه من مكانه. فلذلك وجدنا أرض الأتّون ، وحيطانها، وهواها حارّة، ولم نجدها مضيئة.

وزعم أبو إسحاق أنّ الدليل على أن في الحجر والعود نارا مع اختلاف الجهات، أنه يلزم من أنكر ذلك أن يزعم أن ليس في السّمسم دهن ولا في الزّيتون زيت.

ومن قال ذلك لزمه أن يقول: أن ليس في الإنسان دم، وأنّ الدّم إنّما تخلّق عند البطّ ، وكان ليس بين من أنكر أن يكون الصّبر مرّ الجوهر، والعسل حلو الجوهر قبل ألّا يذاقا، وبين السمسم والزيتون قبل أن يعصرا- فرق.

وإن زعم الزاعم أنّ الحلاوة والمرارة عرضان، والزيت والخلّ جوهر، وإذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل، وحموضة الخلّ، وهما طعمان- لزمه مثل ذلك في ألوانهما، فيزعم أنّ سواد السّبج ، وبياض الثلج، وحمرة العصفر، وصفرة الذهب، وخضرة البقل، إنما تحدث عند رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينة والمقابلة غير عاملتين في تلك الجواهر.

قال: فإذا قاس ذلك المتكلّم في لون الجسم بعد طعمه، وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته، وفي خفته وثقل وزنه، كما قاس في رخاوته وصلابته- فقد دخل في باب الجهالات، ولحق بالذين زعموا أن القربة ليس فيها ماء، وإن وجدوها باللمس ثقيلة مزكورة وإنما تخلّق عند حلّ رباطها. وكذلك فليقولوا في الشمس والقمر، والكواكب، والجبال، إذا غابت عن أبصارهم.

قال: فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات، كان الذي هرب إليه أشدّ عليه.[186]

---

[186] الحيوان ج 5 ص 3

[تأويل النظام لقولهم: النار يابسة]

وكان أبو إسحاق يتعجب من قولهم: النار يابسة. قال: أما قولهم: الماء رطب، فيصح؛ لأنا نراه سيّالا. وإذا قال الأرض يابسة، فإنما يريد التراب المتهافت فقط. فإن لم يرد إلا بدن الأرض الملازم بعضه لبعض؛ لما فيها من اللّدونة فقط، فقد أخطأ، لأن أجزاء الأرض مخالطة لأجزاء الماء، فامتنعت من التهافت على أقدار ذلك.

ومتى حفرنا ودخلنا في عمق الأرض، وجدنا الأرض طينا؛ بل لا تزال تجد الطين أرطب حتى تصير إلى الماء. والأرض اليوم كلها أرض وماء، والماء ماء وأرض، وإنما يلزمها من الاسم على قدر الكثرة والقلة.

فأما النار فليست بيابسة البدن. ولو كانت يابسة البدن لتهافتت تهافت التراب، ولتبرّأ بعضها من بعض. كما أن الماء لما كان رطبا كان سيّالا.

ولكن القوم لما وجدوا النار تستخرج كل شيء في العود من النار فظهرت الرطوبات لذلك السبب، ووجدوا العود تتميز أخلاطه عند خروج نيرانه التي كانت إحدى مراتعها من التمييز فوجدوا العود قد صار رمادا يابسا متهافتا- ظنوا أن يبسه إنما هو مما أعطته النار وولّدت فيه.

والنار لم تعطه شيئا، ولكن نار العود لما فارقت رطوبات العود، ظهرت تلك الرطوبات الكامنة والمانعة، فبقي من العود الجزء الذي هو الرماد، وهو جزء الأرض وجوهرها؛ لأن العود فيه جزء أرضيّ، وجزء مائيّ، وجزء ناريّ، وجزء هوائيّ، فلما خرجت النار واعتزلت الرطوبة بقي الجزء الأرضيّ.

فقولهم: النار يابسة، غلط، وإنما ذهبوا إلى ما تراه العيون، ولم يغوصوا على مغيّبات العلل.

وكان يقول: ليس القوم في طريق خلّص المتكلمين، ولا في طريق الجهابذة المتقدّمين.[187]

[رد النظام على ضرار في إنكار الكمون]

وكان أبو إسحاق يزعم أن ضرار بن عمرو قد جمع في إنكاره القول بالكمون الكفر والمعاندة؛ لأنه كان يزعم أن التوحيد لا يصحّ إلا مع إنكار الكمون، وأن القول بالكمون لا يصحّ إلا بأن يكون في الإنسان دم. وإنما هو شيء تخلّق عند الرّؤية.

قال: وهو قد كان يعلم يقينا أنّ جوف الإنسان لا يخلو من دم.

[187] الحيوان ج 5 ص 18

قال: ومن زعم أن شيئا من الحيوان يعيش بغير الدم، أو شيء يشبه الدم، فواجب عليه أن يقول بإنكار الطبائع؛ ويدفع الحقائق بقول جهم في تسخين النار وتبريد الثلج، وفي الإدراك والحسّ، والغذاء والسّمّ. وذلك باب آخر في الجهالات.

ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بألّا يكون في الإنسان دم، وإلا بأن تكون النار لا توجب الإحراق، والبصر الصحيح لا يوجب الإدراك- فقد دلّ على أنه في غاية النقص والغباوة، أو في غاية التكذيب والمعاندة.

وقال أبو إسحاق: وجدنا الحطب عند انحلال أجزائه، وتفرّق أركانه التي بني عليها، ومجموعاته التي ركّب منها وهي أربع: نار، ودخان، وماء، ورماد، ووجدنا للنار حرّا وضياء، ووجدنا للماء صوتا، ووجدنا للدّخان طعما ولونا ورائحة، ووجدنا للرّماد طعما ولونا ويبسا، ووجدنا للماء السائل من كل واحد من أصحابه. ثمّ وجدناه ذا أجناس ركّبت من المفردات.

ووجدنا الحطب ركّب على ما وصفنا، فزعمنا أنه ركّب من المزدوجات، ولم يركّب من المفردات.

قال أبو إسحاق: فإذا كان المتكلم لا يعرف القياس ويعطيه حقه فرأى أنّ العود حين احتكّ بالعود أحدث النار فإنه يلزمه في الدخان مثل ذلك، ويلزمه في الماء السائل مثل ذلك. وإن قاس قال في الرّماد مثل قوله في الدخان والماء. وإلا فهو إما جاهل، وإمّا متحكم.

وإن زعم أنه إنما أنكر أن تكون النار كانت في العود، لأنه وجد النار أعظم من العود، ولا يجوز أن يكون الكبير في الصغير، وكذلك الدخان- فليزعم أن الدخان لم يكن في الحطب، وفي الزّيت وفي الزّيت وفي النّفط.

فإن زعم أنهما سواء، وأنه إنما قال بذلك لأن بدن ذلك الحطب لم يكن يسع الذي عاين من بدن النار والدخان، فليس ينبغي لمن أنكر كمونها من هذه الجهة أن يزعم أنّ شرر القدّاحة والحجر لم يكونا كامنين في الحجر والقدّاحة.

وليس ينبغي أن ينكر كمون الدم في الإنسان، وكمون الدّهن في السمسم، وكمون الزيت في الزيتون. ولا ينبغي أن ينكر من ذلك إلا ما لا يكون الجسم يسعه في العين.

فكيف وهم قد أجروا هذا الإنكار في كلّ ما غاب عن حواسّهم من الأجسام المستترة بالأجسام حتى يعود بذلك إلى إبطال الأعراض؟! كنحو حموضة الخلّ، وحلاوة العسل، وعذوبة الماء، ومرارة الصبر.

قال: فإن قاسوا قولهم وزعموا أن الرماد حادث، كما قالوا في النار والدّخان، فقد وجب عليهم أن يقولوا في جميع الأجسام مثل ذلك كالدقيق المخالف للبرّ في لونه، وفي صلابته، وفي مساحته، وفي أمور غير ذلك منه. فقد ينبغي أن يزعم أن الدقيق حادث، وأن البرّ قد بطل.

وإذا زعم ذلك زعم أنّ الزّبد الحادث بعد المخض لم يكن في اللبن، وأنّ جبن اللبن حادث، وقاس ماء الجبن على الجبن. وليس اللبن إلا الجبن والماء.

وإذا زعم أنهما حادثان، وأن اللبن قد بطل، لزمه أن يكون كذلك الفخّار، الذي لم نجده حتى عجنّا التراب اليابس المتهافت على حدته، بالماء الرّطب السيّال على حدته، ثم شويناه بالنار الحارّة الصّعّادة على حدتها. ووجدنا الفخار في العين واللمس والذّوق والشّمّ، وعند النّقر والصّكّ- على خلاف ما وجدنا عليه النار وحدها، والماء وحده، والتّراب وحده؛ فإنّ ذلك الفخار هو تلك الأشياء. والحطب هو تلك الأشياء، إلا أن أحدها من تركيب العباد، والآخر من تركيب الله.

والعبد لا يقلب المركّبات عن جواهرها بتركيبه ما ركب منها.

والحجر متى صكّ بيضة كسرها، وكيف دار الأمر، سواء كانت الرّيح تقلبه أو إنسان.

فإن زعموا أن الفخار ليس ذلك التّراب، وذلك الماء، وتلك النار، وقالوا مثل ذلك في جميع الأخبصة والأنبذة، كان آخر قياسهم أن يجيبوا بجواب أبي الجهجاه؛ فإنه زعم أن القائم غير القاعد، والعجين غير الدقيق. وزعم- ولو أنه لم يقل ذلك- أن الحبّة متى فلقت فقد بطل الصحيح، وحدث جسمان في هيئة نصفي الحبّة. وكذلك إذا فلقت بأربع فلق، إلى أن تصير سويقا، ثم تصير دقيقا، ثم تصير عجينا، ثم تصير خبزا، ثم تعود رجيعا وزبلا، ثم تعود ريحانا وبقلا، ثم يعود الرجيع أيضا لبنا وزبدا؛ لأن الجلّالة من البهائم تأكله، فيعود لحما ودما.

وقال: فليس القول إلا ما قال أصحاب الكمون، أو قول هذا.[188]

[188] الحيوان ج 5 ص5

[احتجاج النظام للكمون]

وقال أبو إسحاق: أخطأ من زعم أن النار تصعد في أول العود، وتنحدر وتغوص فيه، وتظهر عليه، وتأخذ منه عرضا.

وقال: العود، النار في جميعه كامنة، وفيه سائحة، وهي أحد أخلاطه. والجزء الذي يرى منها في الطرف الأول، غير الجزء الذي في الوسط والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر. فإذا احتكّ الطرف فحمي زال مانعه، وظهرت النار التي فيه. وإذا ظهرت حمي لشدة حرها الموضع الذي يليها، وتنحّى أيضا مانعه.

وكذلك الذي في الطرف الآخر ولكن الإنسان إذا رأى النار قد اتصلت في العود كله، وظهرت أولا فأوّلا، ظن أن الجزء الذي كان في المكان الأول قد سرى إلى المكان الثاني، ثم إلى المكان الثالث. فيخبر عن ظاهر ما يرى ولا يعرف حقيقة ما بطن من شأنها.

وقال أبو إسحاق: ولو كانت العيدان كلها لا نار فيها، لم يكن سرعة ظهورها من العراجين، ومن المرخ والعفار ، أحقّ منها بعود العنّاب والبرديّ وما أشبه ذلك. لكنها لمّا كانت في بعض العيدان أكثر، وكان مانعها أضعف، كان ظهورها أسرع، وأجزاؤها إذا ظهرت أعظم. وكذلك ما كمن منها في الحجارة. ولو كانت أجناس الحجارة مستوية في الاستسرار فيها، لما كان حجر المرو أحقّ بالقدح إذا صكّ بالقدّاحة، من غيره من الحجارة، ولو طال مكثه في النار ونفخ عليه بالكير.

ولم صار لبعض العيدان جمر باق، ولبعضها جمر سريع الانحلال، وبعضها لا يصير جمرا؟ ولم صار البرديّ مع هشاشته ويبسه ورخاوته، لا تعمل فيه النيران؟

ولذلك إذا وقع الحريق في السّوق سلم كل مكان يكون بين أضعاف البردي. ولذلك ترى النار سريعة الانطفاء في أضعاف البرديّ، ومواضع جميع اللّيف.

وقال أبو إسحاق: فلم اختلفت في ذلك؟ إلا على قدر ما يكون فيها من النار، وعلى قدر قوة الموانع وضعفها.

ولم صارت تقدح على الاحتكاك حتى تلهبت، كالساج في السفن إذا اختلط بعضه ببعض عند تحريك الأمواج لها؟ ولذلك أعدّوا لها الرجال لتصبّ من الماء صبّا دائما. وتدوّم الريح فتحتك عيدان الأغصان في الغياض، فتلتهب نار فتحدث نيران.

ولم صار العود يحمى إذا احتكّ بغيره؟ ولم صار الطّلق لا يحمى؟ فإن قلت لطبيعة هناك، فهل دللتمونا إلا على اسم علّقتموه على غير معنى وجدتموه؟ أولسنا قد وجدنا عيون ماء حارة وعيون ماء بارد، بعضها يبرص وينفط الجلد، وبعضها يجمد الدم ويورث الكزاز ؟ أولسنا قد وجدنا عيون ريح وعيون نار ؟ فلم زعمتم أن الريح والماء كانا مختنقين في بطون الأرض ولم تجوّزوا لنا مثل ذلك في النار؟ وهل بين اختناق الريح والماء فرق؟ وهل الريح إلا هواء تحرّك؟ وهل بين المختنق والكامن فرق؟.

وزعم أبو إسحاق: أنه رمى بردائه في بئر النبي صلّى الله عليه وسلّم التي من طريق مكة، فردّته الريح عليه.

وحدّثني رجل من بني هاشم قال: كنت برامة، من طريق مكة فرميت في بئرها ببعرة فرجعت إليّ، ثم أعدتها فرجعت، فرميت بحصاة فسمعت لها حريقا وحفيفا شديدا وشبيها بالجولان، إلى أن بلغت قرار الماء.

وزعم أبو إسحاق أنه رأى عين نار في بعض الجبال، يكون دخانها نهارا وليلا.

أو ليس الأصل الذي بني عليه أمرهم: أن جميع الأبدان من الأخلاط الأربعة : من النار، والماء، والأرض، والهواء؟ فإذا رأينا موضعا من الأرض يخرج منه ماء قلنا: هذا أحد الأركان؛ فما بالنا إذا رأينا موضعا من الأرض يخرج منه نار لم نقل مثل ذلك فيه؟.

ولم نقول في حجر النار إنه متى وجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرّصاص والزئبق، إنما هو لما خالطه من أجزاء الهواء الرّافعة له؟ وإذا وجدناه أعلك علوكة، وأمتن متانة، وأبعد من التهافت جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء. وإذا وجدناه ينقض الشرر، ويظهر النار جعلنا لك للذي خالطه من الهواء؟ ولم جعلناه إذا خف عن شيء بمقدار جسمه، لما خالطه من أجزاء الهواء، ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء النار؟! ولا سيما إذا كانت العين تجده يقدح بالشرر، ولم تجر أجزاء الهواء فيه عندنا عيانا. فلم أنكروا ذلك، وهذه القصة توافق الأصل الذي بنوا عليه أمرهم؟.

قال: أو ليس من قوله أنه لولا النيران المتحركة في جوف الأرض، التي منها يكون البخار- الذي بعضه أرضيّ وبعضه مائيّ- لم يرتفع ضباب، ولم يكن صواعق ولا مطر ولا أنداء.[189]

قلت: وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئا من الدّهن ولم تشربه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين، اللذين كانا فيه. وإذا خرج كلّ شيء فهو بطلانه.[190] ويبدوا مما سبق أن شيخنا النظّام سبق لافوازيه ومندلييف في الكلام عن حفظ المادة وقانونها، " والعجيب ان التفسير العلمي الكيميائي يؤيد قول النظام لأن المادة كلها مكونة من الذرّات و هذه الذرات فيها إلكترونات تدور بمدارات طاقة حول أنويتها و بالتالي امتلاكها للطاقة المدارية يعني أن الطاقة فعلاً كامنة بالمادة و تظهر آثارها أحياناً كمثال عند ضرب حجري الصوّان ببعضهما حيث يحدث تفاعل كيميائي يغير من مواضع الإلكترونات و يعطي الشرارة.ولقد عضد هذا المفكر الفذ نظريته ببعض ايات القران ومن ذلك في قول الله عز وجل (افرايتم النار التي تورون اانتم انشاتم شجرتها ام نحن المنشؤون) ووجه الاستدلال عنده ان الضمير في قوله شجرتها عائد على النار وقد اضيف الى الشجرة وهذه الاضافة تدل على كمون النار في الشجرة .ولا يخفى ان نظرية النظام في الكمون والظهور هي التي دفعته إلى تبني نظرية علمية أخرى هي مبدأ السببية القائل بأن لكل حدث علة أحدثته, مما يجعل الكون متصفا بالاطراد السببي, أي أن لكل ظاهرة سببا مباشرا ومهمة العلم هي تعليل الظواهر والبحث عن أسبابها, أما التسليم بحدث ما بدون سبب فلا يعني إلا إنكار العلم ذاته هو ما كان يقرره بعض المسلمين من الاشاعرة بان المسببات عندهم هي عادة ومشاهدة فقط وليست حقيقة في الاشياء"[191]

وعلى ذكر رأي وسبق النظّام في الكمون يشير أ.د محمد عبد الستار نصار: الى إن بعض المستشرقين الذين كتبوا عن مصدر النظّام في القول بالكمون أرادوا أن يجردّوا النظّام من أي ابتكار أو تجديد كالمستشرق الالماني كارل هينرش وهورفيتنر وماكس هورتن الذي يجسم ان النظاّام متأثر بالرواقيين وفكرة الكمون

---

[189] الحيوان ج 5 ص 45
[190] الحيوان ج 5 ص 10
[191] مأساة العقل في الإسلام : ابراهيم النظام مقال لمحمد الكوخي،

اخذها منهم[192]، وقد استعملت هذه النظرية حتى في قول الأشعار، فنجد قول أعرابي سؤل عن الحب فقال:

هو أظهر من أن يخفى
وأخفى من أن يرى
كامن كمون النار في الحجر
إن قدحته أورى وإن تركته توارى

الكلام في الحركة والسكون

قال النظام: الأجسام كلها متحركة والحركة حركتان حركة اعتماد وحركة نقلة فهي كلها متحركة في الحقيقة وساكنة في اللغة، والحركات هي الكون لا غير ذلك، وقرأت في كتاب يضاف إليه أنه قال: لا أدري ما السكون إلا أن يكون يعني كان الشيء[193].

وهذا ما تقوله النظرية النسبية العامة لأينشتاين، أنه لا يوجد جسم ساكن، وهذا يؤكد أن شيخنا النظّام كما قيل فيه شديد التعمق والعبقرية.

الكلام في الأجسام

يرى شيخنا النظّام وأن تداخل الجواهر يصح[194]، ويقول: لا عرض الا الحركة[195] وأن اللون جسم[196]، وأن الصوت جوهر أيضا[197].

فيرى النظّام أن تداخل الجواهر يصح قاصدا الأجسام اللطيفة (الذرات)، ويرى أنه لا عرض الا الحركة، أما الألوان والصوت جواهر قاصدا أجساما لطيفة، أي ذرات.

طفرة النظّام

قال النظّام: أَن الْمَار على سطح الْجِسْم يسير من مَكَان إِلَى مَكَان بَينهمَا أَمَاكِن لم يقطعهَا هَذَا الْمَار وَلَا مر عَلَيْهَا وَلَا حاذاها وَلَا حل فِيهَا.[198]، وينقل الأشعري هذا فيقول: فزعم النظام أنه قد يجوز أن يكون الجسم الواحد في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث ولم يمر بالثاني على جهة الطفرة، واعتل في ذلك بأشياء

192 الأساس القرآني لنظرية الكمون للنظام أ.د محمد عبد الستار نار ص 34
193 مقالات الاسلاميين للأشعري ص 324
194 البحر الزخار للامام يحي المرتضى ج1 ص 277
195 البحر الزخار للامام يحي المرتضى ج1 ص 295
196 البحر الزخار للامام يحي المرتضى ج1 ص 304
197 البحر الزخار للامام يحي المرتضى ج1ص 316
198 الفصل في الملل والأهوا والنحل لابن حزم ج5 ص 42

منها الدوامة يتحرك أعلاها أكثر من حركة أسفلها ويقطع الحز أكثر مما يقطع أسفلها وقطبها قال: وإنما ذلك لأن أعلاها يماس أشياء لم يكن حاذى ما قبلها.[199]، وناظر أبا الهذيل في الجزء فألزمه ابو الهذيل مسئلة الذرّة والنمل وهو اوّل من استنبطها، فتحيّر النظام فلما جنّ عليه الليل نظر إليه ابو الهذيل واذا النظام قائم ورجله في الماء يتفكّر فقال: يا ابراهيم هكذا حال من ناطح الكباش، فقال: يا أبا الهذيل جئتك بالقاطع: انه يطفر بعضا ويقطع بعضا، فقال ابو الهذيل: ما يقطع؟ كيف يقطع؟[200]

يقول د. عدنان ابراهيم: إبراهيم بن سيّار النظّام، تلميذه الجاحظ، كان يُسمى شيطان المُعتزِلة، وهو من أذكى علماء المُسلِمين، هذا الشيطان ذكي جداً وكان رجلاً عبقرياً، وقد أثبت الطفرة في الطبيعة، ما هي الطفرة؟ هذا الرجل عقله اتسع لقبول فكرة أو فرضية أن شيئاً ما – جسماً أو جُسيماً ما – يتحرّك من مكان إلى مكان آخر دون أن يمر بالمسافة بينهما، قالوا ما هذا؟ هذا كلام فارغ؟ الناس قالوا هذا كلام فارغ، الآن ميكانيكا الكم في القرن العشرين والحادي والعشرين تُقرِّر هذا، نعم هذه ميكانيكا الكم، يُمكِن لجُسيم مُعيّن أن ينتقل من حيز إلى حيز آخر دون أن يمر بمسافة بينهما، وهذا ثابت تجريبياً، كيف استوعب النظّام هذه الفكرة؟ لأن هذا الرجل كان عبقرياً، كان رجلاً سابقاً لزمانه، ورُفِضَت في عصره لكنها الآن مقبولة فيزيائياً في ميكانيكا الكم.[201]

الخلق عند النظّام

يرى شيخنا النظّام أن الكون خلقه الله دفعة واحدة، وهذا الباب مرتبط بالكمون، يقول شيخنا الخيّاط: والمعروف من قول ابراهيم إن الله جلّ ذكره كان يقدر أن يخلق أمثال الدنيا وأمثال أمثالها إلى غاية ولا نهاية، وكان مع قوله: إن الله خلق الدنيا جملة، يزعم أن آيات الأنبياء لم يخلقها الله إلا في وقت ما أظهرها...[202]، ويحي الأشعري أن النظّام كان يقول فيما حكي عنه أن الله سبحانه خلق الأجسام ضربة واحدة.[203]

وهذه اشارة وسبق النظّام إى أن الكون نشأ عن نقطة، أي نتيجة الانفجار الكبير Big Bang، يقول الفيزيائي باسل الطائي: أن اكتشاف أدوين هابل في نهاية العشرينيات لظاهرة توسع الكون دفع العلماء

[199] المقالات للأشعري ص 321
[200] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 50
[201] سلسلة التعريف بمباحث الفلسفة – حلقة 3
[202] الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ص 52
[203] المقالات للأشعري ص 404

إلى التفكير بوجود بداية لهذا الكون، بداية في المكان وبداية في الزمان ، خاصة وأن نظرية النسبية العامة التي قدمها آينشتين عام 1915 سمحت بوجود بداية لهذا في المكان والزمان. وهذا ما قدمته حلول فريدمان لمعادلات آينشتين.

لذلك جاء اقتراح جورج جامو وجماعته في نهاية الأربعينيات من هذا القرن في ما سمي "نظرية الانفجار العظيم Big Bang " التي تقول بأن الكون نشأ قبل أكثر من خمسة عشر مليار سنة عن نقطة ولدت انفجارا عظيماً عند درجة حرارية عالية جداً مؤكداً لوجود بداية للكون ومفسراً في الوقت ذاته نسبة الوفرة الطبيعية للعناصر الخفيفة كالهيدروجين والهليوم .

نظرية التطور والنظّام

[الألوان الأصلية في الحيوان]

قال أبو إسحاق: السنور الذي هو السنور، هو المنمّر، وهو الأنمر، وهو الذي يقال له: البقّاليّ، وذلك لكثرة اتخاذ البقالين لها، من بين سائر السنانير، لأنها أصيد للفأر.

قال: وجميع ألوان السنانير إنما هي كالشّيات الدّاخلة على اللون.

قال: وكذلك الحمار، إنما هو الأخضر، والألوان الأخر داخلة عليه.

قال: فأما الأسد فليست بذات شيات، ولا تعدو لونا واحدا، ويكون ذلك اللون متقاربا غير متفاوت.[204]

[أثر البيئة]

وقال الصّنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيّام، كما عمل ذلك في طباع الزّنج، وطباع الصّقالبة، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج.

وقد رأينا العرب وكانوا أعرابا حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدّوابّ وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة، على طبائعهم. وترى جراد البقول والرّياحين وديدانها خضراء، وتراها في غير الخضرة على غير ذلك. وترى القملة في رأس الشابّ الأسود

---

[204] الحيوان ج5 ص 171

الشّعر سوداء، وتراها في رأس الشّيخ الأبيض الشّعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون الجمل الأورق. فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء. فإن نصل خضابه صار فيها شكلة، من بين بيض وحمر.

وقد نرى حرّة بني سليم، وما اشتملت عليه من إنسان، وسبع، وبهيمة، وطائر، وحشرة فتراها كلّها سوداء.

وقد خبّرنا من لا يحصى من النّاس أنّهم قد أدركوا رجالا من نبط بيسان، ولهم أذناب إلّا تكن أذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل؛ وإلّا كأذناب السّلاحف والجرذان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب.

وربّما رأينا الملّاح النّبطيّ في بعض الجعفريّات على وجهه شبه القرد. وربّما رأينا الرّجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ، إلّا القليل.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الخبيث، والتربة الرديّة، ناسا في صفة هؤلاء المغربيّين والأنباط، ويكونون جهّالا، فلا يرتحلون؛ ضنانة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون. فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشّقر، وفي تلك الصّور المناسبة للقرود.

قالوا: ولم نعرف، ولم يثبت عندنا بالخبر الذي لا يعارض، أنّ الموضع الذي قلب صور قوم إلى صور الخنازير، هو الموضع الذي نقل صور قوم إلى صور القرود.

وقد يجوز أن تكون هذه الصّور انقلبت في مهبّ الريح الشمالي، والأخرى في مهبّ الجنوب. ويجوز أن يكون ذلك كان في دهر واحد؛ ويجوز أن يكون بينهما دهر ودهور.

قالوا: فلسنا ننكر المسخ إن كان على هذا الترتيب؛ لأنّه إن كان على مجرى الطّبائع، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقض لقولنا، ولا مثبت لقولكم.

قال أبو إسحاق: الذي قلتم ليس بمحال، ولا ينكر أن يحدث في العالم برهانات، وذلك المسخ كان على مجرى ما أعطوا من سائر الأعاجيب، والدّلائل والآيات. ونحن إنّما عرفنا ذلك من قبلهم. ولولا ذلك لكان الذي قلتم غير ممتنع.

ولو كان ذلك المسخ في هذا الموضع على ما ذكرتم، ثمّ خبر بذلك نبيّ، أو دعا به نبيّ، لكان ذلك أعظم الحجّة.

فأما أبو بكر الأصمّ، وهشام بن الحكم، فإنّهما كانا يقولان بالقلب، ويقولان:
إنّه إذا جاز أن يقلب الله خردلة من غير أن يزيد فيها جسما وطولا أو عرضا جاز أن يقلب ابن آدم قردا من غير أن ينقص من جسمه طولا أو عرضا.
وأمّا أبو إسحاق فقد كان- لولا ما صحّ عنده من قول الأنبياء وإجماع المسلمين على أنّه قد كان، وأنّه قد كان حجّة وبرهانا في وقته- لكان لا ينكر مذهبهم في هذا الموضع.
وقوله هذا قول جميع من قال بالطّبائع، ولم يذهب مذهب جهم، وحفص الفرد.[205]
ونظرية التطور تقر هذا أيضا، وقول الذي نقله الجاحظ حول الديدان والقمل وتغير لونهم تأثرا بالبيئة هو نفسه ما حدث لنوع من الفرشات، في القرن التاسع عشر اثناء الثورة الصناعية في البريطانية, ادى تلوث ودخان المصانع الى قتل الحزازيات النامية على الاشجار وادى ذلك بدوره الى اسوداد لحاء الاشجار . أثر تغير لون اغصان الشجر على عدد من الكائنات الحيه منها نوع من الفراشات فقد لاحظ علماء الاحياء تغير في لون هذا النوع الفراشات مع مرور الزمن، فالفراشات الفاتحة (التي كانت قادرة على العيش والتخفي من الطيور بسبب لونها) اصبحت بعد الثورة الصناعية واضحه جداً للطيور وسهلة الصيد وغير قادرة على التخفي .
في المقابل الفراشات الداكنة (التي كانت تشكل 2٪) اصبحت اكثر تخفياً بسبب لونها المقارب للون أغصان الاشجار الداكنة على عكس ما كانت عليه في الماضي . مع مرور الزمن والاجيال تفاجئ علماء الاحياء باختلاف نسب الفراشات الفاتحة والداكنة اختلاف جذرياً فأصبحت معظم الفراشات داكنة (95٪) وفي المقابل عدد ضئيل جداً من الفراشات الفاتحة .

النظّام والروح

يقول أكثر المعتزلة: الْإِنْسَانُ هُوَ الْجَسَدُ الظَّاهِرُ الْحَيُّ الْقَادِرُ لِمَعَانٍ تَحِلُّهُ وَلَا يَدْخُلُ فِي جُمْلَتِهِ إلَّا مَا حَلَّتْهُ الْحَيَاةُ، ويقول النَّظَّامُ : بَلْ الْإِنْسَانُ هُوَ الرُّوحُ وَهُوَ الْحَيَاةُ الْمُتَشَابِكَةُ وَهُوَ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ مُدَاخِلٌ لِلْجَسَدِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَلَا مُتَضَادٍّ قَادِرٌ عَالِمٌ حَيٌّ لِذَاتِهِ.[206]، ويقول المقدسي: وقال إبراهيم النظام الإنسان هو

[205] الحيوان ج4 ص 296
[206] البحر الزخار للامام يحي بن المرتضى ج 1 ص 83

الروح وهو الحياة المشابكة لهذا الجسم ولأنه لا شيء غيره.[207]، وقيل لإبراهيم النظّام: أيّ أمور الدّنيا أعجب؟ قال: الرّوح.[208]

فالإنسان عند النظّام هو الروح والجسد آلتها والروح مشابكة للجسم، ويغلب على ظني أن شيخنا النظّام استنبط نظريته هذه من القرآن الكريم، إن شيخنا النظّام يرى أن الروح هي الانسان كون الروح هي المحرك لأجسادنا، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)} [الحجر : 28 – 29] وهنا اشارة لعملية الخلق، الجسد ثم الروح، فقال للملائكة انه سيخلق بشرا من صلصال من حمإ مسنون، أي يخلق الجسد ثم قال فإذا سوتيه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين أي اذا بثثت فيه الروح قعوا له ساجدين وبمجرد ان يبث فيه الروح يكون انسانا حيا، فبدون الروح لا شيء، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء : 85] فلا النظّام ولا غيره من يجزم ف ماهية الروح، وقال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)} [السجدة : 7 – 9]. وهذه الآية كنظيرتها الأولى.

مناظرة جرت بين النظام وبين هشام بن الحكم حول الروح :

سأل النظام هشاماً فقال لم زعمت أن الروح إذا بطل استعمالها للجسد رجعت ففعلت في نفسها إدراك الأشخاص والأشكال بالقوة الروحية قال هشام لأنها ليست بجسم فيدخلها التضاد الذي أحدهما مزيل للإدراك وهو السكون قال النظام فإذا لم يكن جسماً ولم يدخلها التضاد على قولك فما الذي يوجب لها إدراك ما ليس بحضرتها قال هشام قوة الانبساط وارتفاعهما على السترات وأنها لم تدرك الأشياء توهماً وتقديراً على الانفراد إذا كانت إنما تدركها ملامسة وحساً على الاجتماع قال النظام وهل يوجب التوهم والتقدير إيجاد الشيء وحضوره قال هشام إن كنت تريد ما يوجب مشاهدة إنه وإن وصفته إدراك فنعم قال النظام فإن كان يوجب إنه وإن وصفته ادراك فما حاجته إلى الحاسة للإدراك قال هشام ليجتمع له إدراك المائية والصفة في الوهم والتقدير وفي المشاهدة والعيان قال النظام وما حاجته إلى هذا وإنما

[207] البدء والتاريخ للمقدسي ج 2 ص 121
[208] الحيوان 7 ص 121

يطلب الإدراك الذي قد وجده بلا حاسة قال هشام ليعلم ما هيئته في الإعلان بالصفة والهيئة كما علمها في الضمير توهماً وتقديراً قال النظام وهل يزيده علمه بماهيّته علما بما في الضمير قال هشام نعم يزيده لأن الإدراك بالحواس أولاً والإدراك بالتوهم ثانياً وذلك إن من لم ير طولاً قط لا يتوهمه حتى يتصور في ضميره فإذا رآه ثم فقده كان مصوراً في الضمير قائماً لإدراك الروح إذا ترك استعمال الحاسة[209]

مناظرة أخرى جرت بين النظام وبين مخالفيه حول الروح

قالوا له أخبرنا عن الإنسان هل يرى قال نعم قد يرى معقولاً قيل فهل يدرك بالبصر قال نعم يدرك بالبصر مفعولا كما يقول القائل قد رأيت الحائط ولم ير غير صفحته التي تليه ويقول رأيت على فلان سيفاً وإنما رأى غمده ويقول رأيت ميّتا وإنّما رأى بدنه قيل له فأخبرنا عن الإنسان ما هو قال لا يخلو هذا السؤال من أحد أمرين إما أن أردتم عن اسمه أو عن خواصه التي يعرف بها وبها يفصل بينه وبين غيره فإن أردتم الاسم فهذا إنسان وإن أردتم الخواص فهو الحياة والموت والنطق والضحك قال وليس نعني بهذا الكلام أنه أبداً ميت أو ضاحك أو ناطق أو حي وإنما نريد به أن من شأنه وغريزته أنه ممن يموت وأن من شأنه الحياة والضحك وإن لم يضحك قالوا فأخبرنا عن هذا الإنسان الحي الذي وصفته بالحياة أهو هي أم غيره قال قد وصفته بحياة هي غيره وكذلك إذا مات وصفته بموت هو غيره وحياته وموته عرضان يتضادان فبأحدهما كان حياً وبالآخر كان ميتاً قالوا فما الحياة والموت قال أما الحياة فمعنى له أمكن أن يكون به محركاً لما حرك ومريداً لما أراد من أعماله التي يجوز أن يكون منه قيل له وما الأعمال التي يجوز أن يكون منه قال أما ما كان بالاستطاعة فالإرادة لاستخراج الأشياء والعلم والفكرة وما أشبههما وكل فعل كان منه على المفاجأة وليس قبله له فيه إرادة ولا تمثيل فإن ذلك لغريزة قال والموت بخلاف ذلك وهو إذا دخل بالحي بطل معه كل ما ذكرناه لأنه تبطل بحلوله القدرة على ما كان تقدر عليه قبل ذلك فإذا أحياه الله فحي بطبعه وإذا أماته مات وفعله بطبعه قال وليس الموت فناء له لو كان فناء لم يجز أن يقوم الموت فيه وهو بشر وإنما الموت آفة حلّت به فحالت بينه وبين التدبير.[210]

[209] البدء والتاريخ للمقدسي ج 2 ص 123
[210] البدء والتاريخ للمقدسي ج 2 ص 125

النظّام والحواس

يقول النَّظَّامُ : حِسُّ الْإِنْسَانِ كُلُّهُ حِسٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ وُجُودُهُ لِلْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ[211]

يقول ابو ريدة: فحاسة لابصر من جنس حاسة السمع، وإنما يكون الإختلاف في جنس المحسوس وفي موانع الحواس، وهذا الرأي هو النتيجة المنقطية لمذهب النظّام العام في الإحساس والإدراك، وهو أن الحسّاس الدرّاك هو الروح، وهو واحد غير مختلاف ولا متضاد، ولما كانت الروح في الانسان واحدة كان فعلها واحدا، لأن الشيء الواحد لا يكون منه جنسان من الفعل، وإذا كان الأمر كذلك فما الذي منع الحواس من أن يدرك بعضها ما يدركه الآخر؟ دافع النظّام في هذه المسألة عن قولين:

الأول: هو أن في الخارج شوائب وموانع تمنع ذلك؟ فالعين لا تدرك الصوت، لأن مانعا من جنس الزجاج الذي يمنع ادراك الصوت ولا يمنع ادراك اللون يحول بينها وبين ذلك، والأذن لا تدرك اللون، لأن مانعا من جنس الظلام الذي يمنع من درك اللون ولا يمنع من درك الصوت يحول ينها وبين ذلك.

والقول الثاني هو أن الحواس شوائب من نوع واحد تغلب عليها، فالغالب في العين شوائب الألوان، وفي الأذن شوائب الأصوات، وفي الفم شوائب الطعوم، أما لاشوائب الأخرى فهي قليلة لا تستطيع التأثير، ولذلك تدرك كل حاسة الشيء الذي تغلب عليه شوائبه.[212]

---

[211] البحر الزخار للامام يحي بن المرتضى ج2 ص 44

[212] ابراهيم بن سيار النظام واراؤه الكلامية والفلسفية لابو ريدة ص 105

باب الصحابة

رأينا بعض الصحابة يقدح في البعض وذلك يقتضي توجه القدح إما في القادح إن كان كاذبا وإما في المقدوح فيه إن كان القادح صادقا.

إبراهيم بن سيّار النظّام

اعلم أرشد الله أن ملف الصحابة أكثر ملف فتح أبواب الطعون على شيخنا النظّام، وهذا راجح لعدم استيعاب العدلية وغيرهم لكلام شيخنا النظّام إلا القليل، والسبب في عدم استيعابهم لكلام أبو اسحاق واتهامه بالطعن في الصحابة يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

1- إن شيخنا النظّام يفرق بين الصحبة والعدالة وهذا ما يقرره، ولتقريره يستعمل اسلوب الإلزام، فينقل لنا كلام الصحابة في بعضهم ليلزمهم بقوله، ففهموا بهذا أنه يطعن فيهم.

2-يرى شيخنا ابراهيم النظّام أن الصحابة مجرد بشر ليست لهم ميزة كونه ولدوا في فترة بعث فيها النبي، أي أن القدسية التي يعطيها لهم الحشوية واهل السنة من الاشاعرة وغيرهم مبالغ فيها.

3- يرى النظّام ليس لأحد أن يستحق لقب الصحابي حتى تتوفر فيه شروط الصحبة، وهذا ما قال به بعض المعتزلة والزيدية ومن المتأخرين حسن بن فرحان المالكي حيث تغوص اكثر من الجميع في هذا الموضوع.

الصحبة والعدالة عند شيخنا النظّام:

كما قلت أعلاه، إن شيخنا النظّام يفرق بين الصحبة والعدالة وهذا ما يقرره، ولتقريره يستعمل اسلوب الإلزام، فينقل لنا كلام الصحابة في بعضهم ليلزمهم بقوله، وكان هدفه الرئيسي أيضا ابطال الاجماع، ففهموا بهذا أنه يطعن فيهم، وقد استعمل شيخنا الإمام الحجة القاسم بن محمد عليه السلام (القسم الأول) في مجموعه، كتاب الجواب المختار على مسائل القاضي عبد الجبار، حيث قال: ومما يقدح به عليهم:

ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس: ((إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة، إبراهيم عليه السلام، وإنه سيُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...))، الخبر.

وفي حديث ابن مسعود: ((أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلّجُنَّ دوني فأقول: يا رب، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) ومثله في حديث حذيفة.

وفي حديث أنس: ((ليردن عليَّ ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني...)) الحديث.

وفي رواية أبي سعيد الخدري: ((فأقول: إنَّهم مني، فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي)).

وفي رواية أبي هريرة: ((يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيجلأون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي...))الخبر إلى قوله: ((إنَّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)).

وفي حديث سعيد بن المسيب، كان يحدث عن أصحاب النبي عليه السلام، أن النبي عليه السلام قال: ((يرد عليّ الحوض رجال من أصحابي، فيجلأون عنه...)) الخبر، أي: يمنعون ويطردون عنه.

وفي رواية أخرى لأبي هريرة قال: ((بينا أنا قائم إذ زُمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم، ثم ذكر مثل الأول، ثم قال: فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)).

وما روى مسلم في صحيحه، في حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله، تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء، وليصدّن عني طائفة فلا يصلون، فأقول: يا ربِّ، هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك))، وفي رواية: ((ألا ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلمَّ، فيقال: إنهم قد بدَّلوا، فأقول: سحقاً سحقاً)).

وفيه عن أبي هريرة أيضاً: ((لأذودنَّ عن حوضي رجالاً، كما تذاد الغريبة من الإبل)).

وفي حديث أنس: ((ليردنّ عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم، ورفعوا إليّ اختلجوا دوني، فلأقولنّ: أي ربِّ، أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)).

وفي حديث لأحمد -أي ابن حنبل-: ((رجال ممن صحبني ورآني)).

ولأحمد من حديث أم سلمة من ثلاث أو أربع طرق: ((إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن يفارقني)) فبلغ ذلك عمر فأتاها، فقال لها: أنشدك بالله أمنهم أنا؟ قالت: لا، ولن أبرئ أحداً بعدك.

وفيه أيضاً حديث عمار، قال: أخبرني حذيفة عن النبي أنه قال: ((في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبيلة))، وفي رواية: ((كان أصحاب العقبة أربعة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)).

وفي تفسير الثعلبي، رفعه إلى ابن المسيب، عن أبي هريرة: أنه كان يُحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيجلأون عن الحوض فأقول: يا رب، أصحابي [أصحابي] فيقال: إنَّك لا علم لك بما أحدثوا، إنَّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى)).

وفي الجمع بين الصحيحين قال: وأخرجه البخاري، من حديث عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ((بينا أنا قائم، إذ أقبلت زمرة حتى إذا عرفتهم، خرج رجل [من] بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: [ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال]: إنهم ارتدوا [على أدبارهم] فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)).

ووجه القدح عليهم بذلك أنه لا يخلو إما أن يكونوا صادقين في روايات هذه الأخبار أو كاذبين، إن كانوا صادقين فقد خرجوا أكثر الصحابة الذين رووا عنهم، كما ثبت في رواية البخاري، أنه لا يخلص منهم -أي من الصحابة- إلا مثل همل النعم، وإن كانوا كاذبين، فقد لزمتهم التهمة، فثبت بحمد الله عدم الوثوق برواياتهم، إلا ما وقع مجمعاً عليه، أو موافقاً لكتاب الله سبحانه، ولا يقال: إن المراد بتلك الأخبار أهل الردة، كبني حنيفة؛ لأنا نقول: إن في لفظها: ((ممن صحبني ورآني)) وفي لفظها أيضاً: ((فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي)) بالتصغير، وذلك يفيد التحبيب، والتقريب، فالمراد به بعض من كان يحبه، ويقربه، وفي لفظها أيضاً: ((كان أصحاب العقبة أربعة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر حرب لله ورسوله...))الخبر، وفيها أن أم سلمة لم تبرئ غير عمر، وفي لفظها [أيضاً]: ((فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)) وأهل الردة من بني حنيفة أقل قليل مع أنهم أو أكثرهم لم ير النبي صلى الله عليه وآله

البتَّة، والصحابي عند المحدثين، وبعض الفقهاء من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وآله مؤمناً، وإن لم تطل مجالسته.[213]

قلت وهذا نفس الأسلوب الذي اعتمده شيخنا النظّام في الزامهم بقوله في التفريق بين الصحبة والعدالة، ويروي لنا الامام الثقة الرازي الأشعري هذا فيقول: وقد بلغ إبراهيم النظام في الطعن فيهم على ما نقله الجاحظ عنه في كتاب الفتيا ونحن نذكر ذلك مجملا ومفصلا أما مجملا فإنه روي من طعن بعضهم في بعض أخبارا كثيرة يأتي تفصيلها وقال النظام رأينا بعض الصحابة يقدح في البعض وذلك يقتضي توجه القدح إما في القادح إن كان كاذبا وإما في المقدوح فيه إن كان القادح صادقا بيان المقام الأول من وجوه:

أ- قال عمران بن الحصين والله لو أردت لحدثت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام يومين متتابعين فإني سمعت كما سمعوا وشاهدت كما شاهدوا ولكنهم يحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم.

ب- عن حذيفة أنه يحلف لعثمان بن عفان على أشياء بالله أنه ما قالها وقد سمعناه قالها فقلنا له فيه فقال إني اشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كله.

ج- بن عباس رضي الله عنهما بلغه أن ابن عمر رضي الله عنهما يروي أن الميت ليعذب ببكاء أهله قال ذهل أبو عبد الرحمن إنما مر النبي عليه الصلاة والسلام بيهودي يبكي على ميت فقال إنه ليبكي عليه وإنه ليعذب.

قلت (عبد الله) : وذلك الحديث يناقض الآية الكريمة : {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} وهذا ما قالت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَفَعَ إِلَى النَّبِيِّ: إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ، فَقَالَتْ: وَهَلَ إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ بِخَطِيئَتِهِ وَذَنْبِهِ وَإِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ الْآنَ "

د- ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي عليه الصلاة والسلام قال في الضب كل لا آكله ولا أحله ولا أحرمه فقال زيد الأصم قلت لابن عباس إن ناسا يقولون أنه عليه الصلاة والسلام قال في الضب كل لا آكله ولا أحله ولا أحرمه قال بئس ما قلتم ما بعث الله النبي محللا ولا محرما.

---

[213] مجموع الإمام القاسم بن محمد عليه السلام (القسم الأول) ص 41/38

هـ- عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر فقال هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ثم قال إنهم الآن يسمعون ما أقول فذكروه لعائشة رضي الله عنها فقالت لا بل قال إنهم ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، قال النظام وهذا هو التكذيب.

قلت (عبد الله) : قالت أم المؤمنين غلط ابن عمر في رواية هذا الخبر، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنّ النَّبِيَّ وَقَفَ عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ، فَقَالَ: " هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالَ: إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ الْآنَ مَا أَقُولُ لَهُمْ "، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَقَالَتْ: وَهِلَ ابْنُ عُمَرَ، إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " إِنَّهُمُ الْآنَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ "، ثُمَّ قَرَأَتْ قَوْلَهُ {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} حَتَّى قَرَأَتِ الْآيَةَ.

و- لما روت فاطمة بنت قيس أن زوجي طلقني ثلاثا ولم يجعل لي رسول الله عليه الصلاة والسلام سكنى ولا نفقة فقال عمر لا نقبل قول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت وقالت عائشة رضي الله عنها يا فاطمة قد قتلت الناس ومعلوم أنها كانت من المهاجرات مع أنها عند عمر وعائشة رضي الله عنهما كاذبة.

ز- أراد عمر رضي الله عنه ضرب أبي موسى رضي الله عنه في خبر الاستيذان حتى شهد له أبو سعيد الخدري.

ح- كان علي رضي الله عنه يستحلف الرواة فلو كانوا غير متهمين لما استحلفهم فإن عليا أعلم بهم منا.

ط- حميد كما بن عبد الرحمن الحميري بعث أبن أخ له إلى الكوفة وقال سل علي بن أبي طالب عن الحديث الذي رواه عنه أهل الكوفة في البصرة فإن كان حقا فخبرنا عنه فأتى الكوفة فلقى الحسن بن علي رضي الله عنهما فأخبره الخبر فقال له الحسن أرجع إلى عمك وقل له قال أمير المؤمنين يعني أباه إذا حدثتكم عن رسول الله فإني لن أكذ ب على الله ولا على رسوله وإذا حدثتكم برأيي فإنما أنا رجل محارب ويروي عنه هذا المعنى بروايات قال عمرو بن عبيد الله وهاشم الأوقص يرى أن قوله أمرت أن أقاتل الناس أو القاسطين أو المارقين من ذلك وقوله في ذي الثدية ما كذبت ولا كذبت فإنما ربما كان الشئ عنده حقا فيقول إن الرسول أمرني به لأن الرسول كان آمرا بكل حق.

ى- ورويتم هو عن أبي سعيد الخدري وجابر وأنس رضي الله عنهم قال وذكر سنة مائة أنه لا يبقى على ظهرها نفس منفوسة ثم يروي أن عليا رضي الله عنه قال لأبي مسعود إنك تفتي الناس

قال أجل وأخبرهم أن الأخير شر قال فأخبرني ما سمعت منه قال سمعته يقول لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف فقال علي أخطأت وأخطأ في أول فتواك إنما قال ذلك لمن حضره يومئذ وهل الرجاء الا بعد مائة.

يا- أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام الشمس والقمر نوران مكوران في النار يوم القيامة قال الحسن ما ذنبهما قال أبو هريرة أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا من الحسن رد على أبي هريرة.

يب- قال علي لعمر رضي الله عنهما في قصة الجنين إن كان هذا جهد رأيهم فقد قصروا وإن كانوا قاربوك فقد غشوك وهذا من علي رضي الله عنه حكم بجواز اللبس.

يج- أبو الأشعث قال كنا في غزاة وعلينا معاوية رضي الله عنه فأصبنا ذهبا وفضة فأمر معاوية رجلا ببيعها للناس في أعطياتهم فتسارع الناس فيها فقام عبادة بن الصامت رضي الله عنه فنهاهم فردوها فأتى الرجل معاوية فشكا إليه فقام معاوية خطيبا فقال ما بال رجال يحدثون عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أحاديث قد كنا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه فقام عبادة واعاد القصة ثم قال والله لنحدثن عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وإن كره معاوية أو قال وأن رغم ما أبالي أن لا أصحبه في جنده ليلة سوداء فهذا يدل إما على كذب عبادة أو كذب معاوية ولو كذبنا معاوية لكذبنا وسلم أصحاب صفين كالمغيرة عنه وغيره وعلى أن معاوية لو كان كذابا لما ولاه عمر وعثمان على الناس.

يد- إن أبا موسى قام على منبر الكوفة لما بلغه أن عليا رضي الله عنه أقبل يريد البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أهل الكوفة والله ما أعلم واليا أحرص على صلاح الرعية مني والله لقد منعتكم حقا كان لكم بيمين كاذبة فأستغفر الله منها، وهذا إقرار منه على نفسه باليمين الكاذبة.

يه- روى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يوم السقيفة أنه عليه الصلاة والسلام قال الأئمة من قريش ثم رويتم أشياء ثلاثة تناقضه أحدها قول عمر رضي الله عنه في آخر حياته لو كان سالم حيا لما تخالجني فيه شك وسالم مولى امرأة من الأنصار وهي حازت ميراثه وثانيها أنه عليه الصلاة والسلام قال اسمع وأطع ولو كان عبد حبشيا وثالثها قوله عليه الصلاة والسلام لو كنت مستخلفا من هذه الأمة أحدا من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد.

يو لما روى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال إن المرأة والكلب والحمار يقطعن الصلاة مشت عائشة رضي الله عنها في خف واحدة وقالت لأخشن أبا هريرة فإني ربما رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام وسط السرير وأنا على السرير بينه وبين القبلة.

يز- روى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال إن الميت على من غسله الغسل وعلى من حمله الوضوء فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت أنجاس موتاكم.

يح - عن ابراهيم أن عليا رضي الله عنه بلغه أن أبا هريرة يبتدئ بميامينه في الوضوء وفي اللباس فدعا بماء فتوضأ وبدأ بمياسيره وقال لأخالفن أبا هريرة.

يط- إن أصحاب عبد الله لما بلغهم خبر أبي هريرة من قام من منامه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا قالوا إن أبا هريرة مكثار فكيف نصنع بالمهراس.

ك- لما قال أبو هريرة حدثني خليلي قال له علي رضي الله عنه متى كان خليلك وقال عمرو بن عبيد الله كأنه ما سمع قوله عليه الصلاة والسلام لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا.

كا- لما روى أبو هريرة من أصبح جنبا فلا صوم له أرسل مروان في ذلك إلى عائشة وحفصة رضي الله عنهما فقالتا كان النبي عليه الصلاة والسلام يصبح جنبا ثم يصوم فقال للرسول اذهب إلى أبي هريرة فأخبره بذلك فقال أبو هريرة أخبرني بذلك الفضل بن عباس قال النظام والاستدلال به من ثلاثة أوجه: أحدها أنه استشهد ميتا وثانيها أنه لو لم يكن متهما فيه لما سألوا غيره وثالثها أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما كذبتاه.

كب- ولما روى أبو سعيد الخدري خبر الربا قال ابن عباس نحن أعلم بهذا وفينا نزلت آية الربا فقال الخدري أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول لي ما تقول والله لا يظلني وإياك سقف بيت وهذا تكاذب بين ابن عباس وأبي سعيد.

كج- لما قدم ابن عباس البصرة سمع الناس يتحدثون عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إليه فقال أبو موسى لا أعرف منها حديثا.

كد- روى أن عمر رضي الله عنه كان إذا ولي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعمال وشيعهم قال لهم عند الوداع أقلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النظام فلولا التهمة لما جاز المنع من العلم.

كه- رووا عن سهل بن أبي خيثمة في القسامة ثم إن عبد الرحمن بن عبيد قال والله ما كان الحديث كما حدث سهل ولقد وهم وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل خيبر إن قتيلا وجد في أو ديتكم فدوه فكتبوا يحلفون بالله ما قتلوه فواده رسول الله من عنده وقال محمد بن اسحاق سمعت عمرو بن شعيب في المسجد الحرام يحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن حديث سهل ليس كما حدث.

كو- قال أصحاب الشعبي إنك لا ترى طلاق المكره قال أنتم تكذبون علي وأنا حي فكيف لا تكذبون على إبراهيم وقد مات.

كز- قال ابن أبي ملكية ألا تعجب حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أهللت بعمرة وقال القاسم إنها قالت بحجة.

كح- قال صدقة بن يسار سمعت أنه عليه الصلاة والسلام قال في الذي يسافر وحده وفي الإثنين شيطان وشيطانان إن فلقيت القاسم بن محمد فسألته فقال كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث البريد وحده وكان النبي وصاحبه وحدهما فهذا من القاسم تكذيب بهذا الخبر.

لا- روى أبو سعيد الخدري أنه لا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية فقال له مروان كذبت وعنده رافع ابن خديج وزيد بن ثابت وهما قاعدان على سريره فقال أبو سعيد لو شاء هذان لعرفاك إلا ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة فسكتا فرفع مروان عليه الدرة فلما رأيا ذلك قالا صدق

لب - عطاء بن أبي رباح قيل له روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال سبق الكتاب الخفين قال كذب أنا رأيت ابن عباس يمسح على الخفين.

قال عروة لابن عباس أضللت الناس يا ابن عباس قال وما ذاك يا عروة قال تأمرنا بالعمرة في هذه الأيام وليست فيها عمرة قال أفلا تسأل أمك عن هذا فإنها قد شهدته قال عروة فإن أبا بكر وعمر كانا لا يفعلانه قال هذا الذي أضلكم أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثونني فيه

عن أبي بكر وعمر فقال عروة أبو بكر وعمر كانا أتبع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم بها منك وهذا تكذيب من عروة لابن عباس.

له - رويتم عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال أي سماء تضلني! وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله برأي ثم رويتم أنه سئل عن الكلالة فقال أقول فيها برأيي فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان قال النظام وهذان الأثران متناقضان ثم رويتم أن عمر رضي الله عنه قال إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر قال النظام فإن كان عمر استقبح مخالفة أبي بكر فلم خالفه في سائر المسائل فإنه قد خالفه في الجد وفي أهل الردة وقسمة الغنائم.

ب - أنكر ابن مسعود كون المعوذتين من القرآن فكأنه ما شاهد قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم لهما ولم يهتدي صلى إلى ما فيهما من فصاحة المعجزة أو لم يصدق جماعة الأمة في كونهما من القرآن فإن كانت تلك الجماعة ليست حجة عليه فأولى أن لا تكون حجة علينا فنحن معذورون في أن لا نقبل قولهم.

ج - إختار المسلمون قراءة زيد وهو خالف الكل ولم يقرأ بها

د - لما صلى عثمان رضي الله عنه بمنى أربعا عابه فقيل له فيه فقال الخلاف شر والفرقة شر ثم إنه عمل بالفرقة في أمور كثيرة يعني ابن مسعود

ز - سأله عمر رضي الله عنه عن شئ من الصرف فقال لا بأس به فقال عمر رضي الله عنه لكني أكرهه فقال قد كرهته إذ كرهته فرجع عن قول إلى قول بغير دليل قال النظام فقد ثبت قدح بعضهم في البعض فإن صدق القادح فقد توجه العيب وإن كذب فكذلك،

وثالثها ما يروى من شتم بعضهم بعضا ولنذكر من ذلك حكايات الحكاية الأولى حكى ابن داب في مجادلات قريش قال اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص وعتبة بن أبي سفيان والوليد بن عقبة والمغيرة بن شعبة ثم أحضروا الحسن بن علي رضي الله عنهم ليسبوه وهو فلما حضر تكلم عمرو بن العاصى وذكر عليا رضى الله عنه ولم يترك شئ من المساوئ الا ذكر فيه وفيما قال إن عليا شتم أبا بكر وشارك في دم عثمان إلى أن قال اعلم أنك وأباك من شر قريش ثم خطب كل واحد منهم بمساوئ علي والحسن رضي الله عنهما ومقابحهما صلى الله عليه وسلم ونسبوا عليا إلى قتل عثمان ونسبوا الحسن

إلى الجهل والحمق فلما ال الأمر إلى الحسن رضي الله عنه خطب ثم بدأ يشتم معاوية رضي الله عنه وطول فيه إلى قال له إنك كنت ذات يوم تسوق بأبيك ويقود به أخوك هذا القاعد وذلك بعدما عمي أبو سفيان فلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمل وراكبه وسائقه وقائده فكان أبوك الراكب وأخوك القائد وأنت السائق ثم قال لعمرو بن العاص إنما أنت سبة كما أنت فأمك زانية اختصم فيك خمسة نفر من قريش كلهم يدعي عليك أنك أبنه فغلب عليك جزار قريش من الأمهم حسبا وأقلهم منصبا وأعظمهم لعنة ما أنت إلا شانئ محمد فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم إن شانئك هو الأبتر ثم هجوت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعين قافية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللَّهُمَّ إني لا أحسن الشعر فالعنه بكل قافية لعنة وأما أنت يا ابن أبي معيط فوالله ما ألومك أن تبغض عليا وقد جلدك في الخمر وفي الزنا وقتل أباك صبرا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وسماه الله تعالى في عشر آيات مؤمنا وسماك فاسقا وأنت فاسقا وأنت علج من أهل النورية أما أنت يا عتبة فما أنت بحصيف إذا فأجيبك ولا عاقل فأعاتبك فقال وأما وعدك إياي بالقتل فهلا قتلت الذي وجدت في فراشك مع أهلك وأما أنت يا مغيرة بن شعبة فمثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة استمسكي فإني عليك نازلة فقالت النخلة والله ما شعرت بوقوعك أي علي وأما زعمك أنه قتل عثمان فلعمري لو قتل عثمان ما كنت منه في شئ وإنك لكاذب قال الخوارج فهذه المشاتمة العظيمة المتناهية التي دارت بينهم تدل على أنهم ما كانوا يمسكون ألسنتهم عن القذف والقدح في الدين والعرض وذلك بوجب القدح العظيم في احدى الطائفتين.[214]

قلت: وهذا ما قاله الذهبي في جملة قصيرة شاملة، قال: وَلَو فتحنا هَذَا الْبَاب على نفوسنا لدخل فِيهِ عدَّة من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ والائمة فبعض الصَّحَابَة كفر بَعضهم بِتَأْوِيل مَا وَالله يرضى عَن الْكل وَيغْفر لَهُم فَمَا هم بمعصومين[215]، والمحصول أن شيخنا النظّام أراد إلزامهم في نقاط، أولا أن الصحابة مجرد بشر ولا يجوز اعطائهم تلك القدسية، وصحبة النبي لا علاقة لها في شخصيتهم، ثانيا الزامهم بأن مفهومهم حول عدالة الصحابة لا يصح، ثالثا: لا أحد يستحق لقب صحابي وقد احدث بعد النبي (اما افعال او اقوال)، ففهموا انه يطعن فيهم، وهذا ما فهمه حتى ابن الروندي الملحد، قال شيخنا أبي الحسين الخياط

[214] المحصول للرازي ج4 ص 342/308

[215] الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم ص 23

المعتزلي في كتابه الانتصار: ثم قال (اي ابن الروندي) : وزعم النظّام أنه ليس في جلة أصحاب رسول الله صلى الله عيه وسلم إلا من قد أخطأ في الفتيا، وقال في الدين برأيه فأحلّ ما حرّم الله وحرّم ما أحلّ الله، (ثم قال) وفاعل ذلك عنده منسلخ من الايمان، (ثم قال) وكان يزعم أن أبا بكر الصديق ناقض بعد أن قال: " أي سماء تضلني! وأي أرض تقلني؟" ثم قال " أقول فيها برأيي"* يقال له: كذبت على ابراهيم وقلت الباطل، الذين تكلموا في الفتيا من أصحاب رسول الله عند ابراهيم لا يعدون أمورا: إما أن يكونوا قالوا برأيهم، فذلك منهم خطأ لا يضلّون به عنده ولا يخرجون من الولاية ولا يستحقون به العداوة، وإما أن يكونوا تكلموا فيها ليستخرجوا الحق من جُمل الكتاب والسنة فذلك حق وصواب، وإما أن يكونوا تكلموا على جهة الاصلاح بين الناس فذلك أيضا حق وهدى.[216]

ويقول شيخنا المؤيد بالله يحي بن حمزة في مجموعه بعد أن قيل له أن النظّام يقع في الصحابة ويسبّهم: واعلم أنا لا نعلم أن مثل هذا مذهب للنَّظام ولا يحكى عنه, وأن مذهبه في الصحابة في تحسين حالهم, واعتقاد عدالتهم كمذهب غيره من المعتزلة, ولو كان صحيحا لنقلوا عنه وردوا عليه هذه المقالة, كما ردوا عليه مقالات مخالفة لمذهبهم, كمسألة الكفر, وإنكار كون الإجماع حجة, وقوله في الصواب بما قالوا, فهذه مذاهب قد حكيت عنه, ونقلها آخرون من المعتزلة, ولو قال بهذه المقالة لنقلت, فدل على أنها غير كائنة, ولا ندري من أين بلغتك هذه الحكاية؟ فإخوانه أعرف بمذهبه, فهذه حكاية مغمورة لا ندري حالها , و لا ينبغي نسبتها إلى النظام .[217]

وكلام شيخنا الخيّاط والمؤيد بالله يؤكد أن هدف شيخنا النظّام لم يكن الطعن فيهم والبراءة منهم، بل توضيح رأيه حول ابطال حجية الاجماع المزعوم وتناقض الروايات ومفهوم الصحبة و العدالة.

وينقل لنا ابن ابي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، كلام النظّام حول أسد الله الغالب علي عليه السلام حيث قال في ذكر مطاعن النظام على الإمام علي والرد عليه:

[216] الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد لأبي الحسين الخياط ص 98

[217] مجموع المؤيد بالله يحي بن حمزة عليه السلام ص 200

و اعلم أن النظام لما تكلم في كتاب النكت وانتصر لكون الإجماع ليس بحجة اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة فذكر لكل منهم عيبا ووجه إلى كل واحد منهم طعنا وقال في علي إنه لما حارب الخوارج يوم النهروان كان يرفع رأسه إلى السماء تارة ينظر إليها ثم يطرق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى يوهم أصحابه أنه يوحى إليه ثم يقول ما كذبت ولا كذبت فلما فرغ من قتالهم وأديل عليهم ووضعت الحرب أوزارها، قال الحسن ابنه يا أمير المؤمنين أ كان رسول الله ص تقدم إليك في أمر هؤلاء بشي ء فقال لا ولكن رسول الله ص أمرني بكل حق ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين . قال النظام وقوله ما كذبت ولا كذبت ورفعه رأسه أحيانا إلى السماء وأطراقه إلى الأرض إيهام أما لنزول الوحي عليه أو لأنه قد أوصى من قبل في شأن الخوارج بأمر ثم هو يقول ما أوصى فيهم على خصوصيتهم بأمر وإنما أوصى بكل الحق وقتالهم من الحق .

و هذا عجيب طريف . فنقول إن النظام أخطأ عندنا في تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحا وقال قولا منكرا نستغفر الله له من عقابه ونسأله عفوه عنه وليست الرواية التي رواها عن الحسن وسؤاله لأبيه وجوابه له بصحيحة ولا معروفة والمشهور المعروف المنقول نقلا يكاد يبلغ درجة المتواتر من الأخبار ما روي عن رسول الله ص في معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم و قوله ص لعلي ع إنك مقاتلهم وقاتلهم وإن المخدج ذا الثدية منهم وإنك ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين فجعلهم أصنافا ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه وهذا من معجزات الرسول ص وإخباره عن الغيوب المفصلة فما أعلم من أي كتاب نقل النظام هذه الرواية ولا عن أي محدث رواها ولقد كان رحمه الله تعالى بعيدا عن معرفة الأخبار والسير منصبا فكره مجهدا نفسه في الأمور النظرية الدقيقة كمسألة الجزء ومداخلة الأجسام وغيرهما ولم يكن الحديث والسير من فنونه ولا من علومه ولا ريب أنه سمعها ممن لا يوثق بقوله فنقلها كما سمعها . فأما كونه ع كان ينظر تارة إلى السماء وتارة إلى الأرض وقوله ما كذبت ولا كذبت فصحيح وموثوق بنقله لاستقامته وشهرته وكثرة رواته والوجه في ذلك أنه استبطأ وجود المخدج حيث طلبه في جملة القتلى فلما طال الزمان وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدمه إليهم من الأخبار قلق واهتم وجعل يكرر قوله ما كذبت ولا كذبت أي ما كذبت على رسول الله ص ولا كذبني رسول الله ص فيما أخبرني به . فأما رفعه رأسه إلى السماء تارة وأطراقه إلى الأرض أخرى فإنه حيث

كان يرفع رأسه كان يدعو ويتضرع إلى الله في تعجيل الظفر بالمخدج وحيث يطرق كان يغلبه الهم والفكر فيطرق . ثم حين يقول ما كذبت ولا كذبت كيف ينتظر نزول الوحي فإن من نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يسند الخبر إلى غيره ويقول ما كذبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله ص . ومما طعن به النظام عليه أنه ع قال إذا حدثتكم عن رسول الله ص فهو كما حدثتكم فو الله لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله ص وإذا سمعتموني أحدثكم فيما بيني وبينكم فإنما الحرب خدعة . قال النظام هذا يجري مجرى التدليس في الحديث ولو لم يحدثهم عن رسول الله ص بالمعاريض وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك . فنقول في الجواب إن النظام قد وهم وانعكس عليه مقصد أمير المؤمنين وذلك أنه ع لشدة ورعه أراد أن يفصل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه وبين ما يرويه عن رسول الله ص وذلك لأن الضرورة ربما تدعوه إلى استعماله المعاريض لا سيما في الحرب المبنية على الخديعة والرأي فقال لهم كلما أقول لكم قال لي رسول الله ص فاعلموا أنه سليم من المعاريض خال من الرمز والكناية لأني لا أستجيز ولا أستحل أن أعمي أو ألغز في حديث رسول الله ص . وما حدثتكم به عن نفسي فربما أستعمل فيه المعاريض لأن الحرب خدعة .[218]

قلت وبالله أستعين: أولا اعلم علمّك الله أن مقصود شيخنا النظّام ليس الطعن في باب مدينة العلم علي عليه السلام كما قال شيخنا ابن ابي الحديد رضوان الله عليه، وانما كلام النظّام كان نقدا وان كان خطأ كون تلك الرواية ليست هكذا كما وصلت لشيخنا ابو اسحاق لذلك كان انتقاده غلط لأنه كان مبني على رواية مغلوطة، ومما يدل على أن شيخنا النظّام لم تكن نيته الطعن في وصي رسول الله علي هو ما ذكره شيخ المعتزلة الخياط والمؤيد بالله أعلاه أولا، وما قاله الجاحظ ثانيا، حيث قال: قال سمعت سمعت النظام يقول : علي بن أبي طالب (عليه السلام) محنة للمتكلم ، إن وفى حقه غلى ، و إن بخسه حقه أساء ، و المنزلة الوسطى دقيقة الوزن ، حادة اللسان ، صعبة الترقي إلا على الحاذق الذكي[219]، وقال الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام: وقالت الزيدية، والمرجئة، وإبراهيم النظام، وبشر بن المعتمر: إن عليًّا عليه السَّلام كان مُصيباً في تحكيمه الحكمين، وأنه إنما حكّم حين خاف على عسكره الفساد، وكان الأمر عنده بيِّناً واضحاً، فنظر للمسلمين ليُتَابِعَهُمْ، وإنما أمرهما أن يحكما

218 شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج 6 - الصفحة 129

219 سفينة البحار للشيخ عباس القمي ج1 ص146

بكتاب الله، فخالفا، فهما اللذان اخطئا وأصاب هو، واعتلوا في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَادَعَ أهل مكّة، وردّ أبا الجندل بن سهيل بن عمرو وتحول في قيده.[220]

ومن كان هذا كلامه في الإمام علي وفي ضوء كلام الخياط والمؤيد بالله فإنه ثبت أن شيخنا النظّام لم يطعن في علي عليه السلام، أما الكلام في الرواية التي اعتمد عليها شيخنا النظّام رضي الله فقد كفانا شيخنا ابن ابي الحديد الرد فأحسن وأجاد، أما القول بأن كلام النظّام طعن فليس كذلك وقد بيّنا مكانة الامام علي عنده، هذا أولا، ثانيا فهم شيخنا ابن ابي الحديد كلام النظّام أنه طعن وذلك لتشيعه، ثالثا كما قلت مسبقا فغن النظّام انسان عقلاني لا يقول بتقديس الرجال أياَ كانوا عدا الانبياء، ويخضعهم جميعا تحت النقد، وهذا مذهب جميل، رابعا عدم التفريق بين الطعن والنقد دائما ما يحدث مشاكل في استيعاب الأفكار، النقد، - الرأي الشخصي (مبني على مؤخذات) ليس هو الطعن المبني على بغض وحسد، ..وأكثر العوام والعلماء لا يفرقون بينها: النقد يكون موجها للأفكار والمعتقدات والأفعال لا الأشخاص، كنقدي للفلسفة الوجودية عند جان بول سارتر، انا لا انتقد سارتر كشخص لكن انتقد فلسفته. الرأي الشخصي المبني على المؤاخذات هو رأيي في شخص من خلال افعاله أو أقواله، مثلا رأيي في فلان مبني على أفعاله وأقواله والرأي هنا يكون محدود وليس حرا، أي رأيي يكون محدود في بغضه او حبه و اعطاء رأيي فيه كقولي مجرم او طاغية او انسان كريم او طيب وهذا ليس طعن وانما تحليل لشخصية مبني على ادلة. الطعن ان اطعن في عرضك او شرفك او اسبك طعن...يجب ان نفرق حتى لا نتهم الناس بأمور لم يقولوها بسبب خلط في فهم المفردات. وتبياني لهذه المفردات تبيان شخصي.

[220] حقائق المعرفة للإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام ص 497

باب المسائل الفقهية

ما رأيت احدا اعلم بالكلام والفقه من النظام[221]

الجاحظ

[221] طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 52

لم يحفظ لنا التاريخ الأراء الفقهية لشيخنا النظّام رحمه الله، فلحقت ايادي الحبث الى كل كتبه واتلفتها، والاراء التي تدور في الكتب المنسوبة للنظّام لا تصح، كقولهم ان النظّام كان يقول ان من نام مضطجعا لا تجب عليه الطهارة وتارك الصلاة عمدا لا تجب عليه الاعادة، فكل هذه الاراء ردها شيخنا الخياط وقد كانت كتب النظّام بين يديه، فيتضح انما هي اراء منسوبة له ولا تصح نسبتها اذا، أما الاراء التي وجدتها وتنسب له هي قليلة، منها:

اختلاف النّاس في الصّلاة في الدّار المغصوبة:

فَقَالَ جلّ الْفُقَهَاء وَأَبُو إِسْحَاق النظام إِن الصَّلَاة فِي الدَّار الْمَغْصُوبَة مجزئة مسقطة للْفَرض وَقَالَ أَبُو عَليّ وَأَبُو هَاشم وَأَبُو شمر وَأهل الظَّاهِر والزيدية إِنَّهَا غير مجزئة وَاسْتدلَّ شُيُوخنَا على أَنَّهَا غير مجزئة بَان الصَّلَاة من حَقّهَا أَن تكون طَاعَة لِإِجْمَاع الْمُسلمين على ذَلِك وَالصَّلَاة فِي الدَّار الْمَغْصُوبَة غير طَاعَة بل مَعْصِيّة لِأَن الصَّلَاة تشْتَمل على الْقيام وَالرُّكُوع وَالسُّجُود وَالْجُلُوس وَهَذِه الْأَشْيَاء تصرف فِي الدَّار الْمَغْصُوبَة وشغل لأماكنها وأهويتها وَمنع لرب الدَّار لَو حضر من التَّصَرُّف فِيهَا فَجرى مجْرى وضع مَتَاع فِي ذَلِك الْمَكَان فِي أَنه قَبِيح وَأَيْضًا.[222]

جوَاز إسماع الْمُكَلف الْعَام دون الخَاص:

منع أَبُو الْهُذيْل وَأَبُو عَليّ رحمهمَا الله من ان يسمع الْحَكِيم خطابه الْعَام الْمُكَلف من دون أَن يسمعهُ مَا يدل من جِهَة السّمع على تَخْصِيصه وَمَا لَا يشْغلهُ عَن سَماع الْعَام حَتَّى يسمع الْخَاص مَعَه وأجازا أَن يسمعهُ الْعَام الْمَخْصُوص بأدلة الْعقل وَإِن لم يعلم السَّامع أَن فِي أَدَاة الْعقل مَا يدل على تَخْصِيصه وَأَجَازَ أَبُو إِسْحَق النظام وَأَبُو هَاشم رحمهمَا الله أَن يسمعهُ الْعَام من دون أَن يعرف الْخَاص سَوَاء كَانَ مَا يدل على تَخْصِيصه دَلِيلا عقليا أَو سمعيا وَهُوَ ظَاهر مَذْهَب الْفُقَهَاء وَالدَّلِيل على ذَلِك أَن الْعُمُوم الْمَخْصُوص يُمكن الْمُكَلف اعْتِقَاد تَخْصِيصه إِذا سمع بِالدَّلِيلِ الْمُخَصّص كَمَا يُمكنهُ ذَلِك إِذا لم يسمع بِهِ فَجَاز غسماعه الْعَام وَإِن تكلّف اعْتِقَاد تَخْصِيصه فِي الْحَالين لِأَنَّهُ فيهمَا مُتَمَكن مِمَّا كلف إِن قبل وَلم زعمتم أَنه يُمكنهُ اعْتِقَاد التَّخْصِيص إِذا لم يسمع الْمُخَصّص قيل لِأَن الله سُبْحَانَهُ يخْطر بِبَالِهِ جَوَاز كَون الْمُخَصّص فِي الشَّرْع فيشعره بذلك فيجوزه فاذا جوزه وَجب عَلَيْهِ طلبه كَمَا يلْزمه الْمعرفَة عِنْدَمَا يخَاف بالخاطر وَإِذا قلب الْمُخَصّص ظفر بِهِ فاذا نظر فِيهِ اعْتقد التَّخْصِيص وبمثل هَذِه الطَّرِيقَة يعلم

[222] المعتمد ج1 ص 181

التَّخْصِيص إِذا كَانَ الْمُخَصّص دَلِيلا عقليا إِن قيل دلَالَة الْعقل حَاضِرَة عِنْد السَّامع للْعُمُوم فأمكنه الْعلم بالتخصيص وَلَيْسَ كَذَلِك الْمُخَصّص السمعي إِذا لم يسمعهُ قيل لَا فرق بَينهمَا لِأَن كثيرا من الْمذَاهب لَا يشْعر الْإِنْسَان بِأَن عَلَيْهَا دَلِيلا عقليا بل رُبمَا استبعد أَن يكون عَلَيْهَا دَلِيلا عقليا كَمَا لَا يعلم أَن على كثير من الْمذَاهب دلَالَة شَرْعِيَّة فَكَمَا جَازَ أَن يُكَلف طلب أَحدهمَا بالخاطر جَازَ مثله فِي الآخر.[223]

تفسيق خائن مائة درهم من مال اليتيم:

قال شيخنا الخياط: اعلم أن النظّام كان يفسق خائن مائتي درهم، لقول الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} والمال عنده لا يكون أقل من مائتي درهم، والوعيد عنده لا يعلم بالقياس وانما يعلم بالسمع، وكذلك الأسماء انما تعلم أيضا بالسمع، فلما نطق القرآن بالوعيد لخائن المائتي درهم حكم به عليه ووقف دون ذلك.[224]

[223] المعتمد ج1 ص 331
[224] الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ص 93

باب الامامة والكلام في الخلافة

وهذا المذهب الذي ذهب إليه النظام، هو أقرب الوجوه إلى العدل، وأبعدها من المحاباة.[225]

نشوان الحميري

[225] الحور العين لشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 153

كان لشيخنا ابراهيم النظّام رأي جميل جدا في الامامة نذكره ان شاء الله، و شأنه شأن قدماء البصريين في التفضيل، كان يفضل ابو بكر الصديق على علي عليه السلام وعلى سائر الصحابة فجعل ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وهذه من النقاط البسيطة التي اخالف فيها شيخنا، وأقول برأي المدرسة البغدادية والسادة الزيدية، بتفضيل أسد الله الغالب علي عليه السلام عن سائر الصحابة، عليه السلام ورضوان الله عن صحابة النبي، وكان يخنا النظّام كرأي جمهور المعتزلة في معاوية وبني أمية، ويظهر من كلامه احيانا انه لا يقيم لعثمان بن عفان وزنا، وننقل ان شاء الله كل ما نسب اليه هنا.

يقول شيخنا ابن أبي الحديد في نهج البلاغة في القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج :

اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله المتقدمون منهم والمتأخرون والبصريون والبغداديون على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية وأنها لم تكن عن نص وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع كونه طريقا إلى الإمامة . واختلفوا في التفضيل فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عبيد وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وأبي معن ثمامة بن أشرس وأبي محمد هشام بن عمرو الفوطي وأبي يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام وجماعة غيرهم إن أبا بكر أفضل من علي ع وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . وقال البغداديون قاطبة قدماؤهم ومتأخروهم كأبي سهل بشر بن المعتمر وأبي موسى عيسى بن صبيح وأبي عبد الله جعفر بن مبشر وأبي جعفر الإسكافي وأبي الحسين الخياط وأبي القاسم عبد الله بن محمود البلخي وتلامذته إن عليا ع أفضل من أبي بكر . وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي أخيرا وكان من قبل من المتوقفين كان يميل إلى التفضيل ولا يصرح به وإذا صنف ذهب إلى الوقف في مصنفاته وقال في كثير من تصانيفه إن صح خبر الطائر فعلي أفضل.[226]

وقد أكد نشوان رأي النظّام في ابو بكر فقال: وقال (أي النظّام) في عقد المسلمين لأبي بكر: إن الناس لا يطيعون إلا من له عشيرة يقهرهم بها، أو مال يستعبدهم به، أو دين ينقادون له به؛ فلما وجدت أبا

[226] شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ص 8

بكر أفقر قريش وأقلَّهم عشيرة علمت أن الناس ما انقادوا له إلا بالدين والفضل، فأجمعت الأمة على إمامته لدينه وفضله.[227]

أما كلامه في الفتنة الكبرى وحرب علي مع البغاة فيرى أن علي عليه السلام كان مصيبا ونقل هذا الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام فقال : وقالت الزيدية، والمرجئة، وإبراهيم النظام، وبشر بن المعتمر: إن عليًّا عليه السَّلام كان مُصيباً في تحكيمه الحكمين، وأنه إنما حكّم حين خاف على عسكره الفساد، وكان الأمر عنده بيِّناً واضحاً، فنظر للمسلمين ليُتَابِعَهُمْ، وإنما أمرهما أن يحكما بكتاب الله، فخالفا، فهما اللذان اخطئا وأصاب هو، واعتلوا في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَادَعَ أهل مكّة، وردّ أبا الجندل بن سهيل بن عمرو وتحول في قيده.[228]

أما رأيه في بني أمية وعثمان ومعاوية فيقول الجاحظ: وقالوا: وكان عبد الملك بن مروان أول خليفة من بني أمية منع الناس من الكلام عند الخلفاء، وتقدّم فيه وتوعّد عليه، وقال: إن جامعة عمرو بن سعيد بن العاصي عندي، وإني والله لا يقول أحد هكذا إلا قلت به هكذا.

وفي خطبة له أخرى: إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (وهو يعني عثمان بن عفان رحمه الله) ، ولا أنا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ، ولا أنا بالخليفة المأبون (يعني يزيد بن معاوية) .

قال أبو اسحاق: والله لولا نسبك من هذا المستضعف، وسببك من هذا المداهن، لكنت منها أبعد من العيّوق . والله ما أخذتها من جهة الميراث ولا من جهة السابقة، ولا من جهة القرابة، ولا تدعي شورى ولا وصية.[229]

أما رأيه في الامامة هو ان الامام من تتوفر فيه الشروط غير مهم نسبه، ونقل عنه هذا نشوان فقال: وقال إبراهيم بن سيار النظام، مولى بلحارث بن عباد من بني قيس بن ثعلبة، وهو أحد فرسان المتكلمين، ومن قال بقوله من المعتزلة وغيرهم: الإمامة لأكرم الخلق وخيرهم عند الله، واحتجوا بقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا الآية) . قال: فنادى جميع خلقه الأحمر منهم والأسود، والعربي والعجمي، ولم يخص أحداً منهم دون أحد، فقال: (إن أكرمكم عند الله

[227] شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري ج1 ص 141
[228] حقائق المعرفة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان عليه السلام ص 497
[229] البيان والتبيين ج2 ص 168

أتقاكم) ، فمن كان أتقى الناس لله، وأكرمهم عند الله، وأعلم بالله، وعملهم بطاعته، كان أولاهم بالأمامة، والقيام في خلقه، كائناً من كان منهم، عربياً كان أو عجمياً.

قال مصنف الكتاب (نشوان بن سعيد الحميرى اليمني) : وهذا المذهب الذي ذهب إليه النظام، هو أقرب الوجوه إلى العدل، وأبعدها من المحاباة.[230]

[230] الحور العين لشوان بن سعيد الحميرى اليمني ص 153

ردود النظّام على مخالفيه

النظّام أكبر عقل وأحد ذهن في الكفاح الذي قام بين الاسلام وغيره من النحل،والمثل يضرب بقوته في الجدل وبرجحان عقله.[231]

نيبردج

[231] ابراهيم بن سيار النظام واراؤه الكلامية والفلسفية ابو ريدة ص 54

كَانَ شيخنا النظّام أحد فرسان أهل النظر وَالكلام، ومن أشهر فرسان المناظرة، حتى أبو الهذيل العلاّف المشهور الذي كان نسيج وحده وعالم دهره ولم يتقدّمه احد من الموافقين له ولا من المخالفين وكان يقطع الخصم بأقل الكلام كان يتمارض أمام النظّام كي لا يظهر بمظهر المغلوب، وردود النظّام ومناظراته شاهدة على هذا.

[ردّ النظام على أصحاب الأعراض]

قال أبو إسحاق: فإن اعترض علينا معترض من أصحاب الأعراض فزعم أن النار لم تكن كامنة، وكيف تكمن فيه وهي أعظم منه؟ ولكنّ العود إذا احتكّ بالعود حمي العودان، وحمي من الهواء المحيط بهما الجزء الذي بينهما، ثم الذي يلي ذلك منهما، فإذا احتدم رقّ، ثم جفّ والتهب. فإنما النار هواء استحال. والهواء في أصل جوهره حارّ رقيق، وهو جسم رقيق، وهو جسم خوّار، جيّد القبول، سريع الانقلاب.

والنار التي تراها أكثر من الحطب، إنما هي ذلك الهواء المستحيل، وانطفاؤها بطلان تلك الأعراض الحادثة من النارية فيه. فالهواء سريع الاستحالة إلى النار، سريع الرجوع إلى طبعه الأول. وليس أنها إذا عدمت فقد انقطعت إلى شكل لها علويّ واتصلت، وصارت إلى تلادها، ولا أنّ أجزاءها أيضا تفرقت في الهواء، ولا أنها كانت كامنة في الحطب، متداخلة منقبضة فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت.

وإنما اللهب هواء استحال نارا؛ لأن الهواء قريب القرابة من النار، والماء هو حجاز بينهما، لأنّ النار يابسة حارة، والماء رطب بارد، والهواء حارّ رطب، فهو يشبه الماء من جهة الرطوبة والصفاء، ويشبه النار بالحرارة والخفة فهو يخالفهما ويوافقهما؛ فلذلك جاز أن ينقلب إليهما انقلابا سريعا، كما ينعصر الهواء إذا استحال رطبا وحدث له كثافة، إلى أن تعود أجزاؤه مطرا. فالماء ضدّ النار، والهواء خلاف لهما، وليس بضدّ. ولا يجوز أن ينقلب الجوهر إلى ضده حتى ينقلب بديّا إلى خلافه. فقد يستقيم أن ينقلب الماء هواء، ثم ينقلب الهواء نارا، وينقلب الهواء ماء، ثم ينقلب الماء أرضا. فلا بدّ في الانقلاب من الترتيب والتدريج. وكلّ جوهر فله مقدمات؛ لأن الماء قد يحيل الطين صخرا، وكذلك في العكس، فلا يستحيل الصخر هواء، والهواء صخرا، إلا على هذا التنزيل والترتيب.

وقال أبو إسحاق لمن قال بذلك من حذّاق أصحاب الأعراض: قد زعمتم أن النار التي عاينّاها لم تخرج من الحطب، ولكنّ الهواء المحيط بهما احتدم واستحال نارا. فلعلّ الحطب الذي يسيل منه الماء الكثير،

أن يكون ذلك الماء لم يكن في الحطب، ولكنّ ذلك المكان من الهواء استحال ماء. وليس ذلك المكان من الهواء أحقّ بأن يستحيل ماء من أن يكون سبيل الدخان في الاستحالة سبيل النار والماء.

فإن قاس القوم ذلك، فزعموا أن النار التي عاينّاها، وذلك الماء والدخان في كثافة الدخان وسواده، والذي يتراكم منه في أسافل القدور وسقف المطابخ إنما ذلك هواء استحال، فلعلّ الرماد أيضا، هواء استحال رمادا.

فإن قلتم: الدّخان في أول ثقله المتراكم على أسافل القدور، وفي بطون سقف مواقد الحمامات، الذي إذا دبّر ببعض التدبير جاء منه الأنقاس العجيبة أحق بأن استحال أرضيّا. فإن قاس صاحب العرض، وزعم أن الحطب انحلّ بأسره، فاستحال بعضه رمادا كما قد كان بعضه رمادا مرة، واستحال بعضه ماء كما كان بعضه ماء مرة، وبعضه استحال أرضا، كما كان بعضه أرضا مرة، ولم يقل إن الهواء المحيط به استحال رمادا، ولكنّ بعض أخلاط الحطب استحال رمادا ودخانا، وبعض الهواء المتصل به استحال ماء وبعضه استحال نارا، على قدر العوامل، وعلى المقابلات له.

وإذا قال صاحب العرض ذلك كان قد أجاب في هذه الساعة على حدّ ما نزّلته لك.

وهذا باب من القول في النار. وعلينا أن نستقصي للفريقين والله المعين.[232]

[رد النظام على الديصانية]

وقال أبو إسحاق: زعمت الديصانية أن أصل العالم إنما هو من ضياء وظلام، وأن الحرّ والبرد، واللون والطعم والصوت والرائحة، إنما هي نتائج على قدر امتزاجهما.

فقيل لهم: وجدنا الحبر إذا اختلط باللبن صار جسما أغبر، وإذا خلطت الصّبر بالعسل صار جسما مرّ الطعم على حساب ما زدنا. وكذلك نجد جميع المركبات. فما لنا إذا مزجنا بين شيئين من ذوات المناظر، خرجنا إلى ذوات الملامس، وإلى ذوات المذاقة والمشّمة؟! وهذا نفسه داخل على من زعم أن الأشياء كلها تولدت من تلك الأشياء الأربعة ، التي هي نصيب حاسة واحدة.[233]

[نقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة]

وقال أبو إسحاق: إن زعم قوم أن ههنا جنسا هو روح، وهو ركن خامس- لم نخالفهم.

---

[232] الحيوان ج5 ص7

[233] الحيوان ج5 ص 24

وإن زعموا أن الأشياء يحدث لها جنس إذا امتزجت بضرب من المزاج، فكيف صار المزاج يحدث لها جنسا وكلّ واحد منه إذا انفرد لم يكن ذا جنس، وكان مفسدا للجسم، وإن فصل عنها أفسد جنسها؟! وهل حكم قليل ذلك إلا كحكم كثيره؟ ولم لا يجوز أن يجمع بين ضياء وضياء فيحدث لهما منع الإدراك؟!.

فإن اعتلّ القوم بالزاج والعفص والماء، وقالوا: قد نجد كلّ واحد من هذه الثلاثة ليس بأسود، وإذا اختلطت صارت جسما واحدا أشدّ سوادا من الليل، ومن السّبج، ومن الغراب- قال أبو إسحاق: بيني وبينكم في ذلك فرق. أنا أزعم أن السواد قد يكون كامنا ويكون ممنوع المنظرة، فإذا زال مانعه ظهر، كما أقول في النار والحجر وغير ذلك من الأمور الكامنة. فإن قلتم بذلك فقد تركتم قولكم.

وإن أبيتم فلا بدّ من القول. قال أبو إسحاق: وقد خلط أيضا كثير منهم فزعموا أن طباع الشيخ البلغم. ولو كان طباعه البلغم، والبلغم ليّن رطب أبيض، لما ازداد عظمه نحولا، ولونه سوادا، وجلده تقبّضا.

وقال النّمر بن تولب: [من الطويل]

كأنّ محطّا في يدي حارثيّة ... صناع علت منّي به الجلد من عل

وقال الراجز [4] : [من الرجز]

وكثرت فواضل الإهاب

قال: ولكنهم لما رأوا بدنه يتغضّن، ويظهر من ذلك التغضّن رطوبات بدنية كالبلغم من الفم، والمخاط السائل من الأنف، والرّمص والدمع من العين، ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من أجزاء الرطوبات. وأرادوا أن يقسّموا الصّبا والشباب، والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما تهيأ لهم ذلك في غير باب.

وإذا ظهرت تلك الرطوبات، فإنما هي لنفي اليبس لها، ولعصره قوى البدن.

ولو كان الذي ذكروا لكان دمع الصّبا أكثر ومخاطه أغزر، ورطوباته أظهر. وفي البقول والرياحين والأغصان والأشجار ذلك؛ إذ كانت في الحداثة أرطب، وعلى مرور السنين والأيام أيبس.

قال الرّاجز : [من الرجز]

اسمع أنبّئك بآيات الكبر ... نوم العشيّ وسعال بالسّحر

وسرعة الطّرف وضعف في النظر ... وتركي الحسناء في قبل الطّهر

وحذر أزداده إلى حذر ... والناس يبلون كما يبلى الشجر

وكان يتعجّب من القول بالهيولى.

وكان يقول: قد عرفنا مقدار رزانة البلّة. وسنعطيكم أن للبرد وزنا. أليس الذي لا تشكّون فيه أن الحر خفيف ولا وزن له، وأنه إذا دخل في جرم له وزن صار أخفّ. وإنكم لا تستطيعون أن تثبتوا لليبس من الوزن مثل ما تثبتون للبلّة. وعلى أنّ كثيرا منكم يزعم أن البرد المجمد للماء هو أيبس.

وزعم بعضهم أن البرد كثيرا ما يصاحب اليبس، وأن اليبس وحده لو حلّ بالماء لم يجمد، وأن البرد وحده لو حلّ بالماء لم يجمد، وأن الماء أيضا يجمد لاجتماعهما عليه. وفي هذا القول أن شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الإجماد، فما تنكرون أن يجتمع شيئان على الإذابة؟!.

وإن جاز لليبس أن يجمد جاز للبلّة أن تذيب.

قال أبو إسحاق: فإن كان بعض هذه الجواهر صعّادا وبعضها نزّالا، ونحن نجد الذهب أثقل من مثله من هذه الأشياء النزّالة، فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء صعّادة؟!.

فإن زعموا أن الخفة إنما تكون من التّخلخل والسّخف ، وكثرة أجزاء الهواء في الجرم. فقد ينبغي أن يكون الهواء أخفّ من النار، وأن النار في الحجر، كما أن فيه هواء. والنار أقوى رفع الحجر من الهواء الذي فيه.

وكان يقول: من الدليل على أن النار كامنة في الحطب، أن الحطب يحرق بمقدار من الإحراق، ويمنع الحطب أن يخرج جميع ما فيه من النيران، فيجعل فحما، فمتى أحببت أن تستخرج الباقي من النار استخرجته، فترى النار عند ذلك يكون لها لهب دون الضرام. فمتى أخرجت تلك النار الباقية، ثم أوقدت عليها ألف عام لم تستوقد. وتأويل: «لم تستوقد» إنما هو ظهور النار التي كانت فيه. فإذا لم يكن فيه شيء فكيف يستوقد؟.

وكان يكثر التعجّب من ناس كانوا ينافسون في الرّآسة، إذا رآهم يجهلون جهل صغار العلماء، وقد ارتفعوا في أنفسهم إلى مرتبة كبار العلماء.

وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فينقيه فيقول: أين تلك النار الكامنة؟! ما لي لا أراها، وقد ميّزت العود قشرا بعد قشر؟![234]

[رد النظام على أرسطاطاليس]

وزعم أبو إسحاق أن أرسطاطاليس كان يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضا، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء. وكذلك ما كان من الماء في الحجر، ومن النار في الأرض والهواء. وأن الأجرام إنما يخفّ وزنها وتسخف، على قدر ما فيها من التخلخل ومن أجزاء الهواء. وأنها ترزن وتصلب وتمتن على قدر قلّة ذلك فيها.

ومن قال هذا القول في الأرض والماء والنار والهواء، وفيما تركّب منها من الأشجار وغير ذلك- لم يصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضا يحدث، وبالحرا أن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض والنار عرضا. وإذا قال في تلك الأشجار بتلك القالة ، قال في الطول والعرض، والعمق، وفي التربيع والتثليث والتدوير، بجواب أصحاب الأجسام. وكما يلزم أصحاب الأعراض أصحاب الأجسام بقولهم في تثبيت السكون والحركة أن القول في حراك الحجر كالقول في سكونه- كذلك أصحاب الأجسام يلزمون كلّ من زعم أن شيئا من الأعراض لا ينقض أنّ الجسم يتغير في المذاقة والملمسة والمنظرة والمشمّة من غير لون الماء. وفي برودة نفس الأرض وتثبيتها كذلك.

ومتى وجدنا طينة مربّعة صارت مدوّرة، فليس ذلك بحدوث تدوير لم يكن.

فكان عنده تغيّره في العين أولى من تغيّر الطينة في العين من البياض إلى السواد.

وسبيل الصلابة والرّخاوة؛ والثقل والخفّة، سبيل الحلاوة والملوحة، والحرارة والبرودة.[235]

[مساءلة أبي إسحاق للمنانية]

كان أبو إسحاق يسأل المنانيّة ، عن مسألة قريبة المأخذ قاطعة، وكان يزعم أنّها ليست له.

وذلك أنّ المنانيّة تزعم أنّ العالم بما فيه، من عشرة أجناس: خمسة منها خير ونور، وخمسة منها شرّ وظلمة. وكلّها حاسّة وحارّة.

---

[234] الحيوان ج 5 ص 25

[235] الحيوان ج 5 ص 28

وأنّ الإنسان مركّب من جميعها على قدر ما يكون في كلّ إنسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشّرّ، ورجحان أجناس الشّرّ على أجناس الخير.

وأنّ الإنسان وإن كان ذا حواسّ خمسة، فإنّ في كلّ حاسّة متونا من ضدّه من الأجناس الخمسة. فمتى نظر الإنسان نظرة رحمة فتلك النّظرة من النّور، ومن الخير.

ومتى نظر نظرة وعيد، فتلك النّظرة من الظلمة. وكذلك جميع الحواسّ.

وأنّ حاسّة السّمع جنس على حدة، وأنّ الذي في حاسّة البصر من الخير والنّور، لا يعين الذي في حاسّة السّمع من الخير ولكنه لا يضادّه، ولا يفاسده، ولا يمنعه. فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس، ولا يعين عليه؛ لأنّه ليس ضدّا.

وأنّ أجناس الشّرّ خلاف لأجناس الشّرّ، ضدّ لأجناس الخير. وأجناس الخير يخالف بعضها بعضا ولا يضادّ. وأنّ التّعاون والتآدي لا يقع بين مختلفها، ولا بين متضادّها، وإنما يقع بين متفقها.

قال: فيقال للمنانيّ: ما تقول في رجل قال لرجل: يا فلان، هل رأيت فلانا؟

فقال المسؤول: نعم قد رأيته. أليس السّامع قد أدّى إلى النّاظر، والنّاظر قد أدّى إلى الذّائق؟! وإلّا فلم قال اللّسان: نعم! إلّا وقد سمع الصّوت صاحب اللّسان؟! وهذه المسألة قصيرة كما ترى، ولا حيلة له بأن يدفع قوله.[236]

ويقول الخياط: وسألهم ابراهيم عن مسألة ألزمهم فيها أن الانسان الواحد قد يكذب في حال ويصدق في حال أخرى، ليلزمهم على قولهم أن الفاعل الواحد قد يكون منه شيئان مختلفان خير وشر وصدق وكذب، وفي هذا هدم القول بقدم اثنين أحدهما خير والآخر شرير وهي مسألة مشهورة، قال لهم:

حدثونا عن انسان قال قولا كذب فيه: من الكاذب؟ قالوا: الظلمة، فغن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب وقال: قد كذبت وقد أسأت، من القائل قد كذبت؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون، فقال لهم ابراهيم: ان زعمتم أن النور هو القائل: قد كذبت وأسأت، فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر فقد كان من النور وهذا هدم قولكم، وان قلتم أن الظلمة قالت: قد كذبت

---

[236] الحيوان ج4 ص 478

وأسأت فقد صدقت والصدق خير ، فقد كان عند الظلمة صدق وكذب وهما عندكما مختلفان فقد كان الشيء الواحد شيئان مختلفان خير وشر على حكمكم، وهذا هدم قولكم بالاثنين.[237]

[قول الدهرية في أركان العالم]

قال أبو إسحاق: قالت الدهرية في عالمنا هذا بأقاويل: فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة أركان: حرّ، وبرد، ويبس، وبلّة . وسائر الأشياء نتائج، وتركيب، وتوليد. وجعلوا هذه الأربعة أجساما.

ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان: من أرض، وهواء، وماء، ونار.

وجعلوا الحر، والبرد، واليبس، والبلّة أعراضا في هذه الجواهر. ثم قالوا في سائر الأراييح، والألوان، والأصوات: ثمار هذه الأربعة، على قدر الأخلاط، في القلة والكثرة، والرقة والكثافة.

فقدّموا ذكر نصيب حاسّة اللمس فقط، وأضربوا عن أنصباء الحواسّ الأربع.

قالوا: ونحن نجد الطّعوم غاذية وقاتلة، وكذلك الأراييح. ونجد الأصوات ملذة ومؤلمة، وهي مع ذلك قاتلة وناقصة للقوى متلفة. ونجد للألوان في المضار والمنافع، واللّذاذة والألم، المواقع التي لا تجهل، كما وجدنا مثل ذلك في الحر والبر، واليبس والبلّة، ونحن لم نجد الأرض باردة يابسة، غير أنا نجدها مالحة، أي ذات مذاقة ولون كما وجدناها ذات رائحة، وذات صوت متى قرع بعضها بعضا.

فبرد هذه الأجرام وحرها، ويبسها ورطوبتها، لم تكن فيها لعلة كون الطّعوم والأراييح والألوان فيها.

وكذلك طعومها، وأراييحها وألوانها، لم تكن فيها لمكان كمون البرد، واليبس، والحر، والبلّة فيها.

ووجدنا كلّ ذلك إما ضارّا وإما نافعا، وإما غاذيا وإما قاتلا، وإما مؤلما وإما ملذّا.

وليس يكون كون الأرض مالحة أو عذبة، ومنتنة أو طيبة أحقّ بأن يكون علة لكون اليبس والبرد، والحر والرطوبة، من أن يكون كون الرطوبة واليبس، والحر والبرد- علّة لكون اللون والطعم والرائحة.

وقد هجم الناس على هذه الأعراض الملازمة، والأجسام المشاركة هجوما واحدا، على هذه الحلية والصورة ألفاها الأول والآخر.

قال: فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسّة، وحدها ونحن لم نر من البلّة، أو من اليبس نفعا ولا ضرّا، تنفرد به دون هذه الأمور؟!.

---

[237] الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ص 31

قال: والهواء يختلف على قدر العوامل فيه من تحت ومن فوق، ومن الأجرام المشتملة عليه والمخالطة له. وهو جسم رقيق، وهو في ذلك محصور، وهو خوّار سريع القبول. وهو مع رقّته يقبل ذلك الحصر؛ مثل عمل الريح والزّقّ، فإنها تدفعه من جوانبه، وذلك لعلة الحصر ولقطعه عن شكله.

والهواء ليس بالجسم الصعاد، والجسم النّزّال، ولكنه جسم به تعرف المنازل والمصاعد.

والأمور ثلاثة: شيء يصعد في الهواء، وشيء ينزل في الهواء، وشيء مع الهواء. فكما أن الصاعد فيه، والمنحدر- لا يكونان إلا مخالفين، فالواقع معه لا يكون إلا موافقا.

ولو أنّ إنسانا أرسل من يده- وهو في قعر الماء- زقّا منفوخا، فارتفع الزّقّ لدفع الريح التي فيه، لم يكن لقائل أن يقول: ذلك الهواء شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول: ذلك الهواء من شأنه أن يصير إلى جوهره، ولا يقيم في غير جوهره؛ إلا أن يقول: من شأنه أن يصعد في الماء، كما أن من شأن الماء أن ينزل في الهواء، وكما أن الماء يطلب تلاد الماء، والهواء يطلب تلاد الهواء.

قالوا: والنار أجناس كثيرة مختلفة. وكذلك الصاعد. ولا بدّ إذا كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض، أو يكون بعضها إذا خرج من عالم الهواء، وصار إلى نهاية، إلى حيث لا منفذ- ألّا يزال فوق الآخر الذي صعد معه، وإن وجد مذهبا لم يقم عليه.

ويدلّ على ذلك أنا نجد الضياء صعّادا، والصوت صعّادا، ونجد الظلام رابدا، وكذلك البرد والرّطوبة. فإذا صح أن هذه الأجناس مختلفة، فإذا أخذت في جهة، علمنا أن الجهة لا تخالف بين الأجناس ولا توافق، وأن الذي يوافق بينهما ويخالف اختلاف الأعمال.

ولا يكون القطعان متفقين، إلا بأن يكون سرورهما سواء. وإذا صارا إلى الغاية، صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه، كاتصال بعضه ببعض. ثم لا يوجد أبدا، إلا إمّا أعلى، وإما أسفل.

قال أبو إسحاق: فيستدل على أن الضياء أخفّ من الحر بزواله. وقد يذهب ضوء الأتّون، وتبقى سخونته.

قال أبو إسحاق: لأمر ما حصر الهواء في جوف هذا الفلك. ولا بد لكل محصور من أن يكون تقلبه وضغطه على قدر شدة الحصار. وكذلك الماء إذا اختنق.

قال: والريح هواء نزل لا غير. فلم قضوا على طبع الهواء في جوهريته باللدونة، والهواء الذي يكون بقرب الشمس، والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك؟

ولولا أن قوى البرد غريزية فيه، لما كان مروّحا عن النفوس، ومنفّسا عن جميع الحيوان إذا اختنق في أجوافها البخار والوهج المؤذي، حتى فزعت إليه واستغاثت به، وصارت تجتلب من روحه وبرد نسيمه، في وزن ما خرج من البخار الغليظ، والحرارة المستكنّة.

قال: وقد علموا ما في اليبس من الخصومة والاختلاف. وقد زعم قوم أن اليبس إنما هو عدم البلّة. قالوا: وعلى قدر البلة قد تتحول عليه الأسماء. حتى قال خصومهم: فقولوا أيضا إنما نجد الجسم باردا على قدر قلة الحرّ فيه.

وكذلك قالوا في الكلام: إن الهواء إنما يقع عندنا أنه مظلم لفقدان الضياء، ولأن الضياء قرص قائم، وشعاع ساطع فاصل، وليس للظلام قرص. ولو كان في هذا العالم شيء يقال له ظلام، لما قام إلا في قرص، فكيف تكون الأرض قرصة، والأرض غبراء، ولا ينبغي أن يكون شعاع الشيء أسبغ منه.

قال: والأول لا يشبه القول في اليبس والبلة، والقول في الحر والبرد، والقول في اليبس والرطوبة. والقول في الخشونة واللين، لأن التراب لو كان كله يابسا، وكان اليبس في جميع أجزائه شائعا، لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبرد والتهافت، من الجزء الذي نجده متمسكا.

قال خصمه: ولو كان أيضا التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدم البلة، وكله قد عدم البلّة، لكان ينبغي للكل أن يكون متهافتا، ولا نجد منه جزأين متلازقين.

فإن زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليبس، فينبغي لكم أن تجعلوا اليبس طبقات، كما يجعل ذلك للخضرة والصّفرة.

وقال إبراهيم: أرأيت لو اشتمل اليبس الذي هو غاية التّراب كله كما عرض لنصفه، أما كان واجبا أن يكون الافتراق داخلا على الجميع؟ وفي ذلك القول بالجزء الذي لا يتجزأ.

وأبو إسحاق، وإن كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليبس، فإنّ المسألة عليه في ذلك أشد.

وكان أبو إسحاق يقول: من الدليل على أن الضياء أخفّ من الحرّ أنّ النار تكون منها على قاب غلوة فيأتيك ضوؤها ولا يأتيك حرها. ولو أن شمعة في بيت غير ذي سقف، لارتفع الضوء في الهواء حتى لا تجد منه على الأرض إلا الشيء الضعيف، وكان الحرّ على شبيه بحاله الأول.[238]

---

[238] الحيوان ج5 ص 21

[النظام والنجار]

وكان إبراهيم النظام هو السبب في وفاة أحد المتكلّمين متأثرا بهزيمته أمامه في إحدى المناظرات وهو الحسين النجّار، فقد اجتمع مع إبراهيم النظام عن بعض إخوانه،فسلّم الحسين، فقال له إبراهيم: تجلس حتى أكلّمك ؟؟ فجلس ، فقال له إبراهيم: يجوز أن تفعل خلق الله ؟؟ فقال الحسين: يجوز أن أفعل الذي هو خلق الله، فقال إبراهيم: فالذي هو خلق الله خلق الله أو ليس بخلق له ؟؟، قال الحسين: هو خلق الله، قال إبراهيم: فقد فعلتَ خلق الله، فلم لا يجوز أن تخلق خلق الله كما جاز أن تفعل خلق الله ؟؟، قال الحسين: لم أفعل خلق الله، وإنما فعلتُ الذي هو خلق الله !، قال إبراهيم: والذي هو خلق الله أليس بخلقً له ؟؟، قال الحسين: فهو خلق الله !، فرفسه إبراهيم وقال: قم أخزى الله من ينسبك إلى شيء من العلم والفهم ! ، وانصرف محموما وكان ذلك سبب علّته التي مات فيها.[239]

[239] ابراهيم بن سيار النظام واراؤه الكلامية والفلسفية ابو ريدة ص 55

خـــــــــــاتــــمــــة

وفي الختام أقول: ما أحوج الأمة الى عقلية مثل عقلية النظّام وفكر كفكر النظّام، في ظل الهبل والتخلف الذي نعيشه اليوم، وفي ظل تصدّر الحشوية فقهاء الحيض والنكاح الواجهة الدينية والعلمية، ان النظّام هو كما قال عنه الجاحظ، واحد من الرجال الذين لا نظير لهم كل ألف سنة، أنا أجزم لأي شخص له اطلاع حول الاعتزال يرى أن النظّم أكثر من مثّل الاعتزال قولا وفعلا، ان الاعتزال مذهب يقدس العقل فعلا لكن لم يعطي العقل تلك الاستقلالية والمكانة وسط المعتزلة وفي كل التاريخ الاسلامي مثلما فعل النظّام، هو نسيج وحده وبديع زمانه وفريد عصره، امام وفيلسوف وعالم وشاعر، قد جمع كل ضروب العلوم، رضي الله عن أستاذي وأبي الروحي، امام اهل العدل والتوحيد، فارس المتكلمين أبو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظّام وجعل مثواه الجنة مع النبيين والصدّيقين والشهداء.
تم الكتاب والحمد لله الواحد الأحد والصلاة والسلام على سيدنا وقائدنا محمد وعلى آله الطاهرين أزكى التسليم، وفي الختام أتمنى أن يكون هذا البحث المتواضع حول امام العدلية أوضح المطلوب.

كتبه مدقن عبد الله (عبد الله النظّام المعتزلي) ابن الشيخ ابن الطالب الإمام ابراهيم رضي الله عنه بتاريخ 09-07-2019 على الساعة 20:13 ولاية غرداية.

فهرست



إبراهيم بن سيّار النظّام

ثورة العقل في الإسلام

مقتطفات من تراث النظام وشخصيته